الدولة الصفوية

دور المذهب في العلاقات الدولية

علي المؤيد



إنكي
INKY
للنشر والتوزيع

- عنوان الكتاب: العامل المذهبي وتأثيره في العلاقات الدولية

- اسم المؤلف: علي المؤيد

- الطبعة الأولى: 2020

- الترقيم الدولي: 978-9922-9209-5-5



العراق - بغداد - الجادرية - جسر ذي الطابقين

07702682518

inky.publishing@gmail.com

الدولة الصفوية

دور المذهب في العلاقات الدولية

علي المؤيد

الإهداء

إلى الراحل جدي العزيز..

المقدمة

كان العامل الديني من بين جملة العوامل التي لها تأثير في العلاقات بين الدول والمجتمعات ، ويمثل حضوره ظاهرة تستحق الدراسة والتحليل في الكثير من فترات التاريخ القديم والحديث، ويبدو هذا العامل شديد الصلة بقضية القيم كما يتضح من آراء الباحثين والدارسين للتاريخ السياسي وحقل العلاقات الدولية، وفي هذه الدراسة قمنا ببحث حضور العامل الديني والمذهبي على وجه التحديد في العلاقات الدولية متخذين نموذجا لذلك وهو العلاقات الخارجية للدولة الصفوية.

فقد شهدت بداية القرن السادس عشر ظهور ماسمي بالدولة الصفوية في إيران، والتي أعلنت المذهب الشيعي مذهبا رسميا لها، وقد جاء ظهور هذه الدولة في مرحلة تاريخية شديدة التعقيد من تاريخ المنطقة، حيث قُدّر لهذه الدولة الناشئة أن تحاط بواقع إقليمي سمته الأساسية وجود عدد من الدول والإمارات السنية كان أبرزها السلطنة العثمانية والدولة المملوكية ودولة الآق قوينلو إلى الغرب، كما تزامن ظهورها مع ظهور دولة الأوزبك إلى الشمال الشرقي من إيران. وتبرز اهمية هذه الدراسة في محاولتها معرفة وتحليل تأثير عامل الاختلاف المذهبي في صياغة العلاقات بين الدول، متخذة من العلاقات الخارجية للدولة الصفوية نموذجاً لمعرفة حجم هذا التأثير وحضوره، والأبعاد التي يمكن أن يصلها، ويزيد من هذه الأهمية قلة الدراسات العربية التي عالجت قضية العلاقات الدولية في تلك الفترة ولاسيما العلاقات الخارجية للدولة الصفوية، كما أن المرحلة التاريخية التي تمثل حدود هذه الدراسة تبدو نتائجها وتبعاتها حاضرة وممتدة التأثير بشكل أو بآخر حتى اليوم.

إن إشكالية الدراسة تتجسد في أن ظهور دولة تدين بين جاراتها بمذهب مختلف لابد وأن يترك آثارا محددة على علاقاتها بالمحيط من حولها، وقد اختار الباحث في بحثه الدولة الصفوية كنموذج لدراسة هذه العلاقة، وينطلق البحث من السؤال التالي:

هل كان لاختلاف الدولة الصفوية مذهبيا عن جيرانها في العالم الإسلامي أثر في تحديد علاقاتها الخارجية سواء مع إقليمها الإسلامي أو العالمي بصورة عامة؟

ولهذا تهدف الدراسة إلى معرفة مدى تأثير العامل المذهبي في العلاقات الدولية، وتحديدا معرفة تأثير اختلاف الدولة الصفوية مذهبياً عن جيرانها في المنطقة، وانعكاسات هذا الاختلاف على العلاقات بينها وبين الدول الإقليمية، وثانياً بينها وبين دول العالم الأخرى وبشكل خاص الدول الأوروبية المؤثرة آنذاك. ومما تهدف إليه الدراسة هو توضيح حجم التأثير لمذهب الدولة الصفوية التي اتخذت التشيع الإثني عشري مذهباً رسمياً لها في القرن السادس عشر الميلادي وحتى سقوطها النهائي في الثلث الأول من القرن الثامن عشر، وبما يمكن من بناء تصورات أساسية حول مدى تأثير هذا الاختلاف في أية فترة أخرى لاحقة من التاريخ السياسي للمنطقة.

لقد قسم الباحث دراسته إلى أربعة فصول وخاتمة تضمنت النتائج التي توصل إليها، فقد تناول الفصل الأول دراسة طبيعة الهوية الدينية والمذهبية في إيران قبل قيام الدولة الصفوية، وكان لابد للباحث من البدء بعرض ودراسة منشأ تكوين هذه الهوية بداية من الفتح الإسلامي، وهذا ما تناوله المطلب الأول، أما المطلب الثاني فقد خُصِّص لدراسة التيار الشعوبي بعد الفتح الإسلامي،

وماهيـة هـذا التيـار وأنواعـه وأهدافـه، وكذلـك تأثـير ومشـاركة العنـصر الفـارسي في الحيـاة السياسـية الإسـلامية في العهـد الأمـوي، ثـم العهـد العبـاسي. أمـا المطلـب الثالـث فعـرض إلى التشـيع في إيـران قبـل الصفويـة، والحكومـات الشـيعية التـي حكمـت في إيـران. بينـما جـاء المطلـب الرابـع مـن هـذا الفصـل لتبيـان الخارطـة المذهبيـة لإيـران في القـرن الثـاني الهجـري، وهـو أمـر ضروري لفهـم التحـولات التـي أعقبـت قيـام الدولـة الصفويـة مبـاشرة، وختـم الباحـث الفصـل الأول مـن دراسـته بمطلـب تضمـن عرضـاً للعلاقـة بـين التصـوف والتشـيع في إيـران.

وبالإجـمال فـإن الفصـل الأول يهـدف في خطـة البحـث إلى الوقـوف عـلى جـذور المذهـب الشـيعي في إيـران قبـل الصفويـة، كـون هـذه الدولـة التـي اتخـذت التشـيع الإثنـي عـشري مذهبـاً رسـمياً لهـا لايمكـن أن تبنـي نفسـها وتفـرض سـطوتها بالطريقـة التـي حدثـت مـن فـراغ، فالتشـيع كـما تثبتـه الدراسـة في هـذا الفصـل لم يكـن غريبـاً عـلى المجتمـع الإيـراني.

ومـما لاشـك فيـه أننـا عندمـا نتحـدث عـن نمـوذج سـياسي للسـلطة في قـرون متماديـة (خمسـة قـرون) فنحـن مجـبرون عـلى الـسرد التاريخـي والتركيـز عـلى الأحـداث التاريخيـة التـي هـي بمثابـة تحولالـت كـبرى في تاريـخ الأمـم والشـعوب، أثـرت عـلى مـن حولهـا في بيئتهـا الإقليميـة أو الأبعـد منهـا دوليـاً.

ولهـذا سـعى الباحـث في هـذا الفصـل إلى تسـليط الضـوء عـلى جـذور الحـركات الإيرانيـة الاجتماعيـة والسياسـية والدينيـة للتعـرف عـلى الميـل الجـارف الشـعبي نحـو الاسـتقلال وإعـادة التماسـك في ظـل انهيـار الإمبراطوريـة الساسـانية، التـي كانـت تمثـل أحـد قطبـي القـوة في العـالم آنـذاك، رغـم انزعـاج الجمهـور الإيـراني مـن حكومتـه بـل وقوفـه مـع الفاتحـين العـرب ومسـاعدته في الانقضـاض عـلى الحكـم، في الغالـب إمـا تقاعسـا عـن الدفـاع أو مشـاركة مـع الفاتحـين، بحثـا عـن سـبيل جديـد لتحقيـق الحريـة والنهـوض الاقتصـادي والتخلـص مـن النظـام الطبقـي الصـارم. وهنـاك عـدة نقـاط هامـة سـيتم تسـليط الضـوء عليهـا نـرى بانهـا كانـت تمثـل تحـولات دوليـة ودينيـة ومذهبيـة في آن واحـد وبصـورة معقـدة ومتشـابكة جـدا وهـي:

أولا: الفتـح الاسـلامي: حيـث يعتـبر تحـولا تاريخيـا كبـيرا لأمـة مغمـورة ومهمشـة بـدأت تتوسـع عـلى حسـاب قـوى اقليميـة ودوليـة عظمـى حتـى تمكنـت منهـا وفرضـت معادلـة جديـدة غـيرت وجـه العـالم بالكامـل.

وهـذه العمليـة التوسـعية (الفتوحـات) قـد تركـت آثـارا اجتماعيـة وسياسـية داخليـة لـدى الفاتحـين العـرب مـن حيـث اختـلاط الأمـم الأخـرى بهـا، واتسـاع الرقعـة الجغرافيـة، والـثراء الاقتصـادي الكبـير، وتحملهـا مسـؤولية أمـم كاملـة أصبحـت تابعـة لمركـز الخلافـة الاسـلامية.

ثانيـا: الاحتـكاك القومـي: كان الفتـح الإسـلامي ـ العـربي بالنسـبة للقوميـات الجديـدة، ومنهـا الفارسـية، تحـولا كبـيرا حمـل معـه إيجابيـات وسـلبيات لجميـع الطبقـات الاجتماعيـة.

ومـن جهـة أخـرى تابـع الشـعب الإيـراني انهيـار الحكـم الفـارسي المسـتقل، وذوبانـه الكامـل بالدولـة الجديـدة، وتحـول الامبراطوريـة إلى جـزء جغـرافي واجتماعـي تابـع تحـت عنـوان ولايـة فـارس والمـوالي. وهـذا التحـول قـد قسّـم المجتمـع الإيـراني إلى موافـق ومعـارض، وانعكـس عـلى الحـراك والـصراع الداخـلي وبـين الداخـل والقـوة الفاتحـة، أي بـين المتضرريـن والمسـتفيدين داخليـا، وبـين الفئتـين والفاتحـين مـن جهـة أخـرى، لاسـيما وأن ممارسـات الأمويـين في التمييـز بـين القوميـات فتـح الأبـواب أمـام تشـكل أحـزاب قوميـة وإصلاحيـة معارضـة، كانـت أبرزهـا الشـعوبية في شـقيها القومـي والإسـلامي.

ثالثا: الصراع الديني: تزامنا مع الحراك القومي العربي ـ الفارسي برز الصراع الديني بين الأديان الفارسية المتجذرة (الزرادشتية والمسيحية) وبين المسلمين الإيرانيين الجدد والفاتحين العرب المسلمين. وأيضا الصراع الفارسي ـ الفارسي بين رجال السلطة السابقة ورجال الدين الزرادشتي والنخبة القومية المتضررة من الأغنياء، وبين قاعدة المجتمع الإيراني ممن تحرر من طوق السلطة السابقة وتبدل إلى نخبة متعلمة جديدة خرّجت العديد من علماء المسلمين.

رابعا: الصراع والتكتلات المذهبية: إذا اتفقنا بأن الفتوحات الإسلامية تزامنت مع الصراع الداخلي بين المسلمين على الإمامة والخلافة، وأن الفتوحات جاءت لنقل الصراع من الداخل إلى الخارج في أحد أهم أوجهه، فإن هذا الصراع السياسي الداخلي قد تحول إلى تكتلات مذهبية وعقدية متجذرة بين المسلمين. وبدأت هذه الكتل السياسية ـ المذهبية تبحث عن أنصار لها في الداخل وضمن الأمم المنضوية حديثا، وبالتالي توسع النزاع جغرافيا وسياسيا ليعم كل المساحة الاسلامية. وهنا نرى أن الإيرانيين بشقيهم القومي والإسلامي قد دخلوا على خط الأزمة بشكل كبير، فنرى لهم وجودات في التكتل الشيعي بكل تفرعاته (الزيدي، العباسي، الحسني، الامامي) من الناحية العاطفية والسياسية وبشكل أقل في الجانب العقدي، وهكذا مع حركات التمرد الاخرى وعلى رأسهم الخوارج.

خامسا: النزعات الثورية نحو الاستقلال: مع سقوط الامبراطورية الساسانية نتابع اختفاء الحدود السياسية، ولكننا لايمكن أن نغفل عن أن النزعات القومية لم تختف وتحولت الى رمال متحركة تتجسد على شكل ثورات إيرانية مسلحة على طوال الجغرافية الاسلامية، ومنها ثورات في داخل الحدود العربية (ثورة المختار وثورة زيد بن على)، واحتضان الجغرافيا الإيرانية أيضا لثورات (الخوارج والزيدية) وصولا الى انطلاق الثورة العربية الأكبر (ثورة العباسيين)، وبقيادة عسكرية إيرانية وجيش فارسي (ابو مسلم الخراساني) نحو مركز الدولة الإسلامية وإسقاطها.

وهكذا فقد تغلغل الايرانيون بشكل كبير في السلطة الجديدة وفي الهرم السياسي، ومن ثم الانطلاق نحو توفير مناخ للحكم الذاتي الإيراني أو الاستقلال الكامل.

سادسا: نتابع في التاريخ انتشار القاعدة الشيعية في الجغرافيا الإيرانية قبل وصول الصفويين الى السلطة، واستقلال إيران بالكامل. وهذا ما يدحض نظرية صناعة التشيع على يد الصفويين أو فارسية التشيع.

نرى قبل الصفويين تواجد الفرق الشيعية في إيران: الزيدية في شمال إيران (طبرستان)، الإمامية في المركز (قم وكاشان و..)، والتشيع المغالي في جنوب إيران (المشعشعين).

وهذه الفرق لم تبق في حدود الانتشار المذهبي العقدي بل تحولت الى سلطات متجذرة في تلك المناطق ما سهل مهمة الصفويين في ترسيخ وتعميم العقيدة الرسمية.

سابعا: كان للتصوف دوره الكبير وتأثيره الواضح على المذاهب السنية الرئيسية في إيران (الشافعية والحنفية)، وانعكاسه على الاعتدال المذهبي الممزوج بالتصوف الروحي.

ثامنا: سقوط الخلافة العباسية وكسر الهيمنة والقدسية مع الغزو المغولي، مما أعاد الأمل بمعالجة التفكك الجغرافي والاستقلال السياسي، والطموح الفارسي في إعادة الدولة الإيرانية لدى الصفويين ومن سبقهم.

كل هذه النقاط السابقة كانت جديرة بالمقاربة والبحث في هذا الفصل، لتوفير صورة أكثر وضوحا ودقة لفهم طبيعة

قيـام الدولـة الصفويـة، وتاليـا فهـم تأثـيرات العامـل المذهبـي في علاقاتهـا الخارجيـة وانعكاسـاته عـلى هـذه العلاقات.
امـا الفصـل الثـاني فقـد تضمـن دراسـة طبيعـة الهويـة المذهبيـة في إيـران مابعـد ظهـور الصفويـة، وتكـوّن مـن مطلبـين، عـرض الاول لدراسـة تاريـخ الاسرة الصفويـة ونسـبها وأصولهـا العرقيـة ومذهبهـا، ومراحـل ترسـيخ طريقتهـا، ونشـاطها السـياسي والعسـكري، امـا المطلـب الثـاني فاختـص في مؤسـس الدولـة الصفويـة الشـاه اسـماعيل الصفـوي، وقـد قسّـم الباحـث هـذا المطلـب الى ثـلاث مراحـل، المرحلـة الاولى عنيـت بنشـأة اسـماعيل الصفـوي حتـى تسـلمه للمشـيخة، اما المرحلـة الثانيـة فمـن تسـلمه المشـيخة الى تأسـيس الدولـة، فيـما تضمنـت المرحلـة الثالثـة لفـترة التـي قضاهـا الشـاه اسـماعيل في الحكـم حتـى وفاتـه. ودرس الباحـث ضمـن هـذه المرحلـة الاخـيرة قضيـة إعـلان المذهـب الشـيعي الاثنـي عـشري مذهبـا رسـميا للدولة، وأسـباب اختيـاره مـن قبـل شـاه اسـماعيل، وحـاول تلمـس الأسـباب الحقيقـة لهـذا الاختيـار، وختـم ذلـك بدراسـة انتشـار التشـيع في إيـران.
وقـد ركـز هـذا الفصـل عـلى جملـة مـن القضايـا التـي دار حولهـا بعـض الجـدل وتباينـت بشـأنها الآراء، كنسـب العائلـة الصفويـة التـي كانـت مصـدر اختـلاف بالنسـبة للمؤرخـين بـين متبـن ومنكـر لصحـة نسـبة الصفويـة الى آل البيـت. وصلـة كل ذلـك بالقـول إن هـذا الانتسـاب كان لأجـل إضفـاء الشرعيـة عـلى الحكـم الصفـوي، كـما انشـغل المؤرخـون في الدولـة الصفويـة بقضيـة الأصـل العرقـي للعائلـة الحاكمـة، والتـي تباينـت بـين القـول إنهـا مـن أصـول تركيـة مقابـل الـرأي الـذي يذهـب الى كونهـا كرديـة، وهـو الـرأي الـذي يبـدو أن طارحيـه كانـوا بصـدد إثبـات دور الصفويـين في بحـث القوميـة الإيرانيـة، عـلى أن الجـدل لا يقـف عنـد هـذه الحـدود إنمـا يتعـداه الى مسـألة المذهـب التـي كانـت تعتنقـه الأسرة الصفويـة. وهـو مـن المسـائل المهمـة التـي تناولهـا هـذا الفصـل، فرغـم أن مـن المسـلم بـه هـو أن الشـيخ صفـي الديـن الجـد الـذي يتنسـب إليـه الصفويـين كان ينتمـي إلى أسرة صوفيـة عريقـة إلا أن مذهـب الأسرة ظـل محـط نقـاش، فتتبـع الباحـث حيـاة الشـيخ صفـي الديـن والظـروف السياسـية والاجتماعيـة التـي رافقـت حياتـه ومراحلهـا، والصـيرورة التـي انتهـت بالعائلـة لتكـون واحـدة مـن بـين أبـرز العوائـل تأثـيرا وسـطوة روحيـة. والتـي قـاد بالنهايـة إلى بلـورة طموحـات سياسـية واضحـة لـدى أحفـاد الشـيخ صفـي الديـن وحدثـت تحـولات بـارزة بهـذا الشـان في عهـد حيـدر وجنيـد اللذيـن مهـدا الطريـق في نهايـة المطـاف أمـام اسـماعيل ليعلـن قيـام دولتـه.
والحقيقـة فـإن قضيتـي الأصـل العرقـي والانتسـاب الى إحـدى الطـرق الصوفيـة، فضـلا عـن مـدى قـرب عائلـة الشـيخ صفـي مـن التشـيع، تعتـبر مـن القضايـا ذات الـدلالات الهامـة في تقييـم التأثـير السـياسي فيـما بعـد للعامـل المذهبـي وحضـوره في علاقـة الدولـة الصفويـة مـع جيرانهـا وبشـكل خـاص للعلاقـات الخارجيـة مـع العثمانيـين، وذلـك لكـون الاشـتراك يبـدو واضحـا بـين العثمانيـين والصفويـين مـن الناحيـة العرقيـة ومـن كونهـما ينتميـان الى ذات الأجـواء الروحانيـة السـائدة آنـذاك، فبمثـل مـا يعتنـق الصفويـون الطريقـة الصوفيـة الصفويـة فإنـه في مقابـل ذلـك كان العثمانيـون قـد مالـوا إلى الطريقـة البكتاشـية التـي انتقلـت اليهـم مـن خـلال رجـل صـوفي قـدم مـن خراسـان ـ والـذي ارتبطـت الانكشـارية منـذ تأسيسـها بمعتقداتـه ارتباطـا وثيقـا، وهـي معتقـدات كانـت مزيجـا مـن التصـوف والتشـيع.
وهـذا الامـر الـذي يجـذب الانتبـاه حـول القواسـم المشـتركة بـين الصفويـين والعثمانيـين قـد ولـد تسـاؤلات

كثيرة، ويبدو أن بعض المؤرخين عبر عن ذلك من خلال قصة مختلقة، تغاضى الباحث عن ذكرها في بحثه لترجيح عدم صحتها، حيث يروى ان السلطان سليم العثماني والشاه اسماعيل الصفوي كانا كلاهما من اتباع الطريقة البكتاشية، وقد حدث مرة في شبابيهما انهما كانا جالسين معا بحضور «بالم سلطان» الشيخ البكتاشي المشهور، فاتفقا فيما بينهما على أنهما حين يصلان الى الحكم سيسعيان نحو توحيد المسلمين في عقيدة واحدة والمفروض بالطبع انها عقيدة البكتاشية . فلما وصلا الى الحكم فعلا كتب اسماعيل الى سليم يذكره بوعده فاجابه سليم معتذرا بأن وزرائه سنيون وانه مضطر الى التباطؤ في تحقيق وعده.

وهو مايدلنا على مدى تأثير الخلاف المذهبي في صياغة العلاقة بين العثمانيين والصفويين، وبدءا من السنوات الاولى لقيام الدولة الصفوية. ولهذا كان لابد للباحث من تتبع المراحل التي قطعتها العائلة الصفوية في طريقها الى السلطة، وما سبق ذلك من تحولات وتطورات، مما يتصل بمعتقدات عائلة الشيخ صفي وانتقالها عبر مراحل متوالية من التصوف الممزوج بمسحة شيعية الى استقرار اسماعيل الأول على المذهب الشيعي الاثني عشري، وهو تحول كانت له مقدماته ومبرراته.

ان تأثير العامل المذهبي كان حاضرا بهذه الدرجة أو تلك في عدد كبير من الدراسات والبحوث التاريخية التي سلطت الضوء على تلك المرحلة التاريخية من القرن السادس عشر ـ وقد اختلفت هذه الدراسات حول تقييم دور الاختلاف المذهبي في العلاقات لاسيما بين الدولتين الصفوية والعثمانية، وأهم ما لاحظه الباحث في هذه الدراسات والمؤلفات التي عنيت بالموضوع، أنها انطلقت في دراستها لتاريخ الدولتين من خلفيات أيديولوجية وطائفية ضيقة ـ جعلت هذا الكم من تلك البحوث والمؤلفات ينقسم كثير منه الى عدة أقسام ابتعدت أحيانا عن الموضوعية والحيادية التي يفترضها البحث العلمي، وأعني بهذه الاقسام ما يلي:

* قسم حمل الدولة الصفوية مسؤولية الصراع الذي حدث في العالم الإسلامي منذ ذلك الوقت حتى الان، مؤديا الى ضعفه وانشقاقه أمام الدول الأوروبية الطامعة في فرض هيمنتها ونفوذها على العالم الإسلامي ومنطقة الشرق الأوسط بشكل خاص.

* قسم آخر حمل الدولة العثمانية تلك المسؤولية، وذلك لفرط ما انطوى عليه سلاطينها من رغبة في التوسع ومد السيطرة على أكبر رقعة من المنطقة والعالم.

* فيما كان قسم من تلك الدراسات بشكل عام قد أولى العوامل السياسية أهمية كبيرة وغلّبها من حيث الحضور والتأثير على العامل المذهبي ـ وكأنه لم يكن له ذلك التأثير.

وغالبا مايستند ذلك على مبرر أن السلطة الحاكمة في الدولتين كانت تستخدم الدين والشعارات المذهبية كغطاء لمصالحها ورغباتها السياسية، ورغم أن هذا المبرر يعد مبررا حقيقيا الا انه لا يلغي بحال من الأحوال حضور وتأثير العوامل الاخرى ومنها العوامل المذهبية.

* القسم الرابع حصر الأمر بمجمله ضمن نطاق الاختلاف المذهبي بين الصفويين ومن جاورهم وتحديدا الدولة العثمانية، ويلاحظ غالبا في هذا القسم أن الدراسات والبحوث انطلقت من خلفيات انتماء كتابها بشكل واضح، واللذين لم يفرقوا بين حدود تأثير العوامل السياسية والمذهبية، وجعلوا المسألة منحصرة في شدة الاختلاف والتباين بين الشيعة الذين مثلتهم الدولة الصفوية والسنة الذين

مثلتهم الدولة العثمانية، وقد أخذ هؤلاء الكتاب والباحثون حكام الصفوية ومعتقداتهم ومواقفهم وسلوكياتهم العامة كنموذج أصيل للمذهب الشيعي الإمامي وفعل بعض من على الجهة الاخرى الشيء ذاته ايضا.

وبناء على ذلك جاء اهتمام الباحث بموضوع دراسته، منطلقا من أن أهميتها تكمن في أمرين:

الاول: هو أن أغلبية الدراسات التاريخية التي تناولت العلاقات الخارجية للدولة الصفوية لم تركز كفاية على خصوصية العامل المذهبي ـ ضمن إطار الصراع السياسي وليس في خانة التسقيط الأيديولوجي القومي والديني ـ كما أنها لم توله الاهتمام المناسب مقارنة بالعوامل السياسية والاقتصادية عدا تلك الدراسات التي ركزت على انتماء الصفويين الى التشيع جاعلا من ذلك جزءا من هم شخصي لكاتبها وهي دراسات مبتسرة عادة وقليلة الجدوى من الناحية العلمية، وبالتالي كان ذلك مدعاة للتخلي عن روحية البحث العلمي فيها.

ومن هنا يأتي الأمر الثاني: في تحديد أهمية هذه الدراسة، والذي يكمن في رغبة الباحث بأن يكون منهجه مبنيا على مقاربة موضوعية ومحايدة لبحث مدى تاثير العامل المذهبي في علاقات الدولة الصفوية، سواء علاقتها مع العثمانيين أو غيرهم من الأنظمة والحكومات التي كانت قائمة في العهد الصفوي في الإقليم وخارجه.

ومما سبق تتضح إشكالية الدراسة والتي أشرنا اليها سابقا في أن ظهور الدولة الصفوية التي اتخذت من المذهب الشيعي الإثني عشري مذهبا رسميا لها في مقابل المذهب السني الذي كان مذهبا رسميا لدول المنطقة (العثمانيون، المماليك، الاق قوينلو، الاوزبك) كان له ان يلقي بظلاله على العلاقات بين الجانبين، وان يسير فاعلا في مراحل العلاقات الصفوية بغيرها جنبا الى جنب مع عوامل اخرى سياسية واقتصادية وحتى اجتماعية لاسيما في بدايات المواجهة بين الطرفين، والباحث إنما يحاول تسليط الضوء على هذا الجانب، وفرز وتحديد المساحة التي لعب من خلالها الاختلاف المذهبي بين الصفوية والدول المجاورة لها دوره في توجيه سياسات أنظمة الحكم القائمة حينها .

وقد كان لزاما والحال هذه أن يعمل البحث على دراسة مواقف هذه الانظمة واستقرائها، مما له قدرة الكشف عن حضور انتمائها المذهبي في تحديد سياستها الخارجية. ولن يكون ذلك كافيا ما لم يلق البحث الضوء على موقف المؤسسات الدينية لاسيما في الجانب الصفوي (المؤسسة الدينية الشيعية) وعلى الجانب العثماني بشكل خاص (مشيخة الاسلام السنية) ـ وهذا ما تكفل به الفصل الثالث، الذي عالج تفاصيل العلاقة ومراحل تطورها بين الصفوية والدول المحيطة بها، ومحاولة التعرف على موقف المؤسسات الدينية، والطريقة التي تعاطت من خلالها بدءاً من حدث قيام الدولة الصفوية وتأسيسها وما يليه من مراحل قوتها واصطدامها مع الدول والحكومات الاخرى.

وقد انطلقنا في هذا الفصل من التعريف المختصر بهذه الدول والانظمة التي تزامن ظهور الصفوية معها وهي (المماليك، العثمانيون، الاق قوينلو، الاوزبك)، ثم عرضنا في مطلب اخر لردود فعل الدول السابقة تجاه قيام الدولة الصفوية، والتي كانت خصوصيتها انها رفعت شعار تمثيلها للشيعة، وفرضها للتشيع الإثني عشري مذهبا رسميا لها، وقد اهتمت حكومات تلك لدول بما كان يجري في بلاد فارس آنذاك، وراقبت التطورات الداخلية عبر وسائل مختلفة منها الاستخبارية ومنها المراسلات

مع بعض الجهات المقربة لها داخل إيران، فيما شكل عدد من اللاجئين السنة الفارين من الدولة الصفوية مصادر معلوماتية مهمة لتلك الحكومات لفهم ما جرى ويجري داخليا.
بينما جاءت المطالب الأخرى في هذا الفصل لبحث العلاقات بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية، يليها العلاقات بين الصفوية والمماليك، ثم من الاق قوينلو، واخيرا مع دولة الاوزبك. ويبرز في العلاقة بين الدولة الصفوية والعثمانيين انها بدءت بأدنى حدود التوتر رغم حدثين هامين كانا لهما ان يشعلا المواجهه سريعا لولا عدم رغبة الطرفين (الشاه اسماعيل والسلطان بايزيد) في ذلك، يتمثل هذان الحدثان بدخول الشاه اسماعيل الى العراق واحتلاله بغداد، وخرق السيادة العثمانية في الاناضول من قبل الشاه باتجاه إمارة دلغار التركمانية.
لكن اختلف الامر كليا بعد تقلد سليم الاول مقاليد الحكم في السلطنة العثمانية، والذي كان على خلاف والده شديد الحساسية تجاه التشيع، وقد شهدت هذه المرحلة تطورات حادة وسريعة في العلاقات بين الدولتين، قادت الى صدام دام بينهما، وحدوث مجازر بخلفية مذهبية لاسيما على الجانب العثماني. ان العوامل التي أججت الصراع بين الطرفين قمنا بتقسيمها الى نوعين، عوامل سياسية وعوامل مذهبية، رغم انها عوامل تؤثر بعضها في بعض، ويمنح احدهما زخما للآخر، ولعل من الجوانب المهمة في دراسة العلاقات الصفوية العثمانية هو تسليط الضوء على موقف المؤسسات الدينية الكبرى آنذاك، والتي تمثلت في مشيخة الاسلام السنية التي كانت متناغمة مع التوجهات الحكومية العثمانية وباتت مهمتها سبغ الشرعية على مجمل سياسات السلطان العثماني، يقابلها موقف المؤسسة الدينية الشيعية المتمثلة بحوزة النجف، والتي كانت وقتها في بداية انتقال المركزية العلمية والدينية إليها، حيث لم يمض وقت طويل على بدء نشاطها الحقيقي الفعال بعد حقب طويلة من محدودية الدور التي استأثرت به حوزة الحلة.
والحقيقة أن أية مقاربة لهذه القضية لايمكن أن تغفل عن النقلة النوعية في الفكر السياسي الشيعي التي حدثت على يد الشيخ على الكركي، والتي تُجمع المصادر والوقائع التاريخية على أن بلورته في رؤيا متقدمة حول علاقة الفقيه للسلطة قد جاءت بسبب قيام الدولة الصفوية، التي حاولت ان تضفي المزيد من الشرعية على حكمها عبر التقرب من المؤسسة الدينية في حين مثلت هذه الدولة لجزء كبير من الشيعة وعلمائهم نموذجا للسلطة العادلة وان لم تكن شرعية تماما. ومن هنا كان للجدل أن يحتدم بين الكركي واتباعه من جانب وخصومه بقيادة الشيخ القطيفي من جانب اخر.
وقد اختلف موقف المؤسستين السنية والشيعية اختلافا واضحا، ففي حين كانت فتاوى التكفير والحكم على الشيعة بالردة والإلحاد، وليس على الصفويين فحسب، تُرى من قبل مشيخة الإسلام طوال فترات الصراع الصفوي العثماني، نجد على الجانب الاخر موقفا اكثر هدوءا وتوازنا لدى علماء الشيعة، فلو استثنينا رسالة الكركي المسماة بنفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت فإننا لا نكاد نجد كتب أو فتاوى تخصصت بتكفير السنة لاسيما من قبل الحوزة النجفية، وقصارى ما يتعلق بهذا الجانب كان جهود تجميع الأحاديث الشيعية التي كان بعضها شديد اللهجة تجاه أعداء أهل البيت الذين تصفهم تلك الأحاديث بالنواصب، وهم على أية حال ليسوا عموم أتباع المذاهب السنية والواقع ان مرحلة التأسيس ونمو الدولة الصفوية شهدت اكبر الجهود التي انصبت على

تجميع وكتابة موسوعات حديثية شيعية، وهو ما له مبررات تقع دراستها خارج حدود هذا البحث.
إن ما تجب الإشارة إليه، ومما سيتبين خلال بحثنا في هذا الفصل، هو انه في وقت كانت المرجعيات والمؤسسات الدينية السنية متفقة في موقفها حيال الدولة الصفوية والتشيع بشكل عام، كان الموقف الشيعي يشهد حالة انقسام واضحة إزاء الصفوية، ويُبنى هذا الموقف المنقسم على خلفية الجدل حول تحديد طبيعة العلاقة مع السلطة السياسية وما يتصل بموضوع شديد الحساسية هو شرعية الحكم في عصر الغيبة، وعدم وجود إمام معصوم او نائب مباشر له، ورغم أن من الواضح هو أن هذا الانقسام لا يتعلق تماما بلب قضية الشرعية، فالطرفان فيما يظهر كانا متفقين او متقاربين في رؤيتهما حول عدم الشرعية السياسية للسلطة الصفوية، إنما تأسس الخلاف على شرعية التعامل مع السلطة غير الشرعية ذاتها. وهذه الإشكالية هي التي ذللها الشيخ الكركي عبر رؤيته التي سنتحدث عنها في الفصل الثالث.
وعلى أية حال حظي بعض الحكام الصفويين برضى وقبول لدى علماء وفقهاء المؤسسة الشيعية، حيث وصفتهم العديد من الكتب العائدة لهؤلاء العلماء بأنهم عادلون، واستخدم وصف الملك العادل في وصف الشاه اسماعيل وابنه طهماسب وكذلك الشاه عباس، ولعل هذا الوصف كان وصفا محايدا ولا يحمل مشكلة من الناحية الشرعية، فقد ورد في الروايات استخدام النبي الأكرم له في وصف النجاشي ملك الحبشة. ويسهل معرفة دوافع هذا الموقف حيث كان الشيعة سواء في العراق او جبل عامل يتعرضون لضغوطات هائلة، ويعملون التقية في الكثير من الشؤون، وتبدو ممارسة طقوسهم عملية شاقة وتثير حفيظة السلطات، فيما تبدلت الاحوال في ظل مساعي الصفويين لنشر التشيع، وبدت هناك ولأول مرة منذ قرون طويلة سلطة سياسية ذات قوة ومكانة راسخة تعمل على تبني التشيع الإثني عشري وتتجلبب بجلباب الدفاع عنه، ونشره في العديد من المناطق التي لم يكن يوجد فيها الشيعة الا اقلية ضئيلة على هامش مجتمعاتها السنية، وبشكل خاص في بلاد فارس وأجزاء من الاناضول وشمال العراق.
في المطلب الرابع من الفصل الثالث تناول الباحث العلاقة بين الصفويين ودولة المماليك، هذه الدولة التي كانت تحتكر شرعية تمثيل العالم السني إذ جعلت نفسها امتدادا للخلافة العباسية، وقد ظهرت الدولة الصفوية في المرحلة الاخيرة من حياة الدولة المملوكية حيث كانت في أضعف احوالها، وتزامن وجود الدولتين بضع سنوات، إذ اسقطها العثمانيون عام 1517 ميلادي، ولهذا فلم تشهد العلاقة بين الجانبين تطورات ومراحل كالتي كانت بين الصفوية والعثمانيين، الا ان موقف المماليك اتسم بملمحين هامين ومؤثرين:
الاول ان ردة الفعل على قيام الصفوية كان منسجما تماما مع العداء المتأصل منذ العهد الأيوبي تجاه التشيع بكل فرقه في مصر وبلاد الشام الخاضعة لسلطة الوالي المملوكي. وقد دأب المماليك على النظر الى الشيعة كخطر على أمنهم وتحد لشرعيتهم، وحاولوا امتصاص رغبة السكان في التطلع الى التشيع للتعبير عن تعلقهم بآل البيت من خلال فسح المجال للفرق الصوفية، التي كانت تستخدم شعارات وطقوسا للتعبير عن مودة آل البيت النبوي، ولكن مع انتماء أية فرقة صوفية الى أحد المذاهب السنية الأربعة كشرط أساس لوجودها. اما الملمح الثاني فهو ان المماليك لم يتحركوا عسكريا

باتجاه الصفويين بشكل جدي، بل ومالوا بمرور الوقت الى أخذ جانب الحياد في الصراع الذي ظهرت بوادره بين الصفوية والعثمانيين، حتى وصل أوجه في معركة جالديران الشهيرة، وبهذا فإن الحسابات السياسية والعسكرية فرضت نفسها على المماليك، وأدت في بعض الفترات الى نوع من بلورة طابع التقارب الصفوي ـ المملوكي، يبرره تصاعد الخلاف بشدة بين المماليك والعثمانيين، الذين بادروا الى مهاجمة الدولة المملوكية وإسقاطها بعد الانتصار الكبير الذي حققوه على الصفويين في جالديران.

وضمن هذا المطلب عرض الباحث الى العلاقة بين الدولة الصفوية والاق قوينلو، وهي علاقة تمتد الى مرحلة ما قبل تأسيس الصفويين لدولتهم، وقد تم توضيح جزء مهم من ذلك في الفصل الثاني، والواقع ان العلاقة بين الطرفين لم تشهد سوى تطور واحد تمثل في طابع المواجهة المباشرة، باعتبار ان تأسيس الدولة الصفوية جاء في ضل الاق قوينلو، ولأجل تحجيمها اولا ومن ثم اسقاطها لاسيما في بغداد، عاصمة الاق قوينلو. وهذا ما تم سريعا للشاه اسماعيل.

لقد كانت مراكز القوة العالمية في القرن السادس عشر موزعة بين اوروبا والعثمانيين والمماليك، وقد خاضت هذه القوى الثلاث صراعا عسكريا بتأثير العوامل الدينية والاقتصادية.

وبظهور الدولة الصفوية أُضيف لاعب جديد الى الساحة الدولية، وحاول هذا اللاعب مباشرة ان يحتل موقعا من التأثير في موازين القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية، حيث بدى طموح الصفويين واضحا في أن يحتلوا مكانتهم المؤثرة عبر تحركات الشاه اسماعيل الذي سارع في التواصل مع القوى الأوروبية المنهمكة في صراعها مع الدولة العثمانية.

إن دراستنا حول تأثير العامل المذهبي في العلاقات الدولية لايمكن أن تغض الطرف عن علاقات الدولة الصفوية بأوروبا، ولهذا جاء الفصل الرابع ليعرض مسار العلاقات الصفوية مع الدول الأوروبية المهمة، والتي كان قد بدأ تواجدها العسكري ونشاطها الاقتصادي يتزايد آنذاك بعد اكتشاف طريق بحري جديد متمثلا براس الرجاء الصالح، صحيح ان الصراع الصفوي العثماني وهو الصراع الأبرز على الساحة في الشرق كان لا يدور بين مؤسستين دينيتين، بل هو بمجمله وفي جزء من جوهره الحقيقي صراع سياسي، الا ان العامل المذهبي كان حاضرا، ويمكن الاشارة هنا الى عدة نقاط حاول الفصل الرابع عرضها والوقوف عليها، وهي:

- إن الأوروبيين كانوا قد أدركوا عمق الصراع الصفوي - العثماني، بعد فترة من دخولهم الخليج، بدءا من التواجد البرتغالي، وكانت دوافع هذا التواجد الذي تعاظم ثقله بمرور الوقت هي مزيج من الاسباب الاقتصادية والسياسية والدينية، فرغبة فرض الهيمنة على العالم الاسلامي ونشر المسيحية لم يكن هدفا غامضا ولا غير معلن عنه، بل صُرح عن ذلك بوضوح، ولهذا فوجود قوتين مختلفتين في مذهبهما ضمن العالم الاسلامي ومعرفة حجم وتاريخ التنافر بينهما كان له ان يكون حاضرا في سياق التخطيط للمصالح الغربية وتحقيق اهدافها.

- كما ان المواجهة الصفوية العثمانية صبت في مصلحة الدول الأوروبية، حيث انشغل العثمانيون في حروبهم مع الصفويين عن التوغل داخل أوروبا. وكان المطلوب أوروبيا الحرص على استمرار هذا الصراع، وعليه يمكن فهم لماذا بائت كل المحاولات الصفوية في عقد حلف عسكري مع الأوروبيين بالفشل.

- إن المكاسب التي تحققت للأوروبيين كانت في جزء كبير منها بسبب الصراع الصفوي – العثماني،

وكما أشرنا وسيتضح ذلك تفصيليا في فصول البحث، أنه صراع لعب فيه العامل المذهبي دورا واضحا، وبالتالي فإن نتائجه المباشرة هو تسهيل الهيمنة الأوروبية لاحقا وتبديد طاقات وقدرات كل من الصفويين والعثمانيين، وقد وصلت حالة العداء بين الطرفين الصفوي والعثماني حدودا بعيدة في رغبة كل منهما في هزيمة الآخر وإخراجه من الساحة، وكان من نتائج ذلك كما يلاحظ الباحث أن مال الصفويون إلى فتح المجال للمسيحيين وأنشطتهم التبشيرية فيما منح العثمانيون اليهود الذين كانوا مؤثرين في المشهد الاقتصادي مجالا واسعا في عموم مناطق النفوذ العثماني، وهي مسألة مهمة تشير إلى منهج في استقطاب من هم في خارج الدائرة الإسلامية في صراع الطوائف داخل الإسلام بين السلطات السياسية.

لقد عرض الباحث في هذا الفصل إلى الأسباب التي دفعت الأوربيين باتجاه منطقة الخليج العربي، ومن ثم تتبع العلاقات الصفوية الأوروبية، والتي بدأت مع مملكة البرتغال، ثم مع إسبانيا وهولندا وإنجلترا وفرنسا وانتهاء بالعلاقة مع روسيا، سعيا للوقوف على العوامل الفاعلة والمؤثرة في تلك العلاقة، ودوافع الحكم الصفوي في محاولات إقامة أحلاف سياسية وعسكرية مع تلك الاطراف، وكيف تصرف الأوروبيون مع تلك الرغبة. وسيظهر جليا أن المصالح الاقتصادية والسياسية كانت مقدمة لدى الأوروبيين، ولم يشكلوا حلفا عسكريا ولم يشتركوا في معارك ضد العثمانيين بجانب الجيش الصفوي، الا في مناسبات نادرة جرت في عرض البحار. لكن لا يمكن إنكار التعاون العسكري على صعيد تجهيز الصفويين بالأسلحة المتطورة والعتاد والمستشارين العسكريين.

لقد اتبع الباحث في دراسته المنهج الوصفي والمنهج التحليلي في عرض وقراءة الاحداث والوقائع المتعلقة بموضوع الدراسة.

وقد وضع الباحث خاتمته بناء على ماتوصل إليه في بحثه من نتائج فيما يخص تأثير العامل المذهبي في العلاقات الدولية في تلك الفترة الواقعة ضمن حدود الدراسة وقد واجهته صعوبات جمة أثناء فترة الإعداد، على رأسها ندرة المصادر التي تناولت موضوع البحث بشكل مباشر، في مقابل كثرة ما كتب حول تاريخ الدولة الصفوية بصورة عامة وباللغتين العربية والفارسية، الأمر الذي استوجب قراءة العديد منها لاستخلاص ما له صلة بموضوع الدراسة.

وأخيرا آمل أن تكون هذه الدراسة قد أضافت شيئاً إلى الدراسات والبحوث المتعلقة بالدولة الصفوية، وتحديدا تفردها في العالم الإسلامي آنذاك بانتمائها الى التشيع، ومدى تأثير هذا التفرد المذهبي في علاقاتها الخارجية، والله ولي التوفيق.

علي المؤيد

الفصل الأول

طبيعة الهوية الدينية والمذهبية في إيران ما قبل الصفوية

المطلب الأول
إيران والفتوح الإسلامية

بدأت الفتوحات الإسلامية نحو بلاد فارس عن طريق الحدود العراقية في عام (12هـ/ 632م) وبأمر من الخليفة أبي بكر الذي ولى خالد بن الوليد قائدًا لأول الجيوش المسلمة في حربها مع الحكومة الساسانية. واستمرت الفتوحات حتى عام (31 هـ / 651م) في زمن الخليفة عثمان والتي انتهت بمقتل آخر ملوك الفرس الساسانيين يزدجرد الثالث، وفيها تمت السيطرة الإسلامية على الأراضي الإيرانية بالكامل.[1]

ويلاحظ أن عدة عوامل أدت إلى سقوط الإمبراطورية الفارسية، والتي كانت تمثل أحد قطبي القوة في العالم آنذاك مع تفوقها العددي والعسكري، وقد تنوعت عوامل وأسباب سقوط تلك الإمبراطورية بين أسباب سياسية واقتصادية ودينية لهذا السقوط، ومنها:

(1) الفوضى والاضطراب السياسي الذي كانت تعاني منه المؤسسة الساسانية الحاكمة حيث حكم عشرة ملوك خلال السنوات العشر التي سبقت بدء الفتوحات الإسلامية.

(2) الحروب طويلة الأمد بين الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية وما أهدر جراءها من النفوس والأموال والتي أرهقت كاهل الخزينة الساسانية وشعبها.

(3) سوء الأحوال الاقتصادية واستشراء الفساد المالي والإداري في أركان الدولة الساسانية وقوانين الضرائب غير العادلة.

(4) عدم مجابهة الجيش الإسلامي الزاحف مقاومة عنيفة من قبل أغلبية الشعب، والذي كان يرنو إلى الخلاص من النظام الساساني الظالم والخلاص من المؤسسة الدينية الزرادشتية التي حولت المجتمع إلى طبقتي الأشراف والرعية، فيما حرمت غالبية الشعب من حق التعليم والتطور المعيشي.

(5) مبادئ الدين الإسلامي في مناداته بالمساواة والعدالة وعدم التبعيض بين أبناء المجتمع المسلم وشمولية العقيدة الإسلامية واعتبارها فوق كل نزعة قومية أوعنصرية أوطبقية.

(6) تذمر الأقليات الدينية الإيرانية وأهمها المسيحية من اضطهاد الدولة الساسانية والمؤسسة الدينية الزرادشتية ووقوف هذه الأقليات مع الجيش الإسلامي لغرض إسقاط النظام الساساني.

هذه جملة من الأسباب الرئيسة التي يمكن ملاحظتها واستقراؤها لتبرير وفهم ذلك الحدث التاريخي المدوي بسقوط الإمبراطورية الفارسية[2]، ومهما تكن الأسباب فانتقال إيران من إمبراطورية عظمى إلى إحدى الولايات الإسلامية، و تغيير الدين الرسمي الزرادشتي إلى الدين الإسلامي الجديد قد ترك آثاراً سياسية واجتماعية وفكرية كبيرة على الشعب الإيراني، ومن خلال تتبع كتابات المؤرخين والمفكرين الإيرانيين يمكن ملاحظة انقسام الفئتين حول هذه الحقبة التاريخية الهامة بوضوح، بين مؤيد إسلامي يعتبر دخول إيران إلى الإسلام تحولاً إيجابياً كبيراً في تاريخ هذه البلاد و تاريخ الحضارة الإسلامية برمتها،

---

(1) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار روائع التراث العربي، بيروت، 2009 م، ج3 ص 343. وابن أثير: الكامل في التاريخ، تحقيق د. سمير شمس، دار صادر، بيروت، 2009م، ج3 ص62.

(2) انظر: د. حسن كريم الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، الدار العربية للموسوعات، بيروت 2008م، ج1، ص 124-118.

وبـين معـارض قومـي يعتـبر الفتـح الإسـلامي غـزواً عربيـاً دمـر الحضـارة الفارسـية واسـتعبد الشـعب الإيـراني فكريـاً وسياسـياً و لغويـاً [3]. ولهـذا تكمـن أهميـة الدولـة الصفويـة في أنهـا تمكنـت مـن لم شـمل المجتمـع الإيـراني تحـت لوائهـا كإحـدى أهـم السـلالات الإيرانيـة، وإضفـاء طابـع الاسـتقلال التـام عـلى الأراضي الفارسـية مـن خـلال توحيدهـا الأرض والمذهـب والحكـم بعـد عـدة قـرون مـن السـيطرة الأجنبيـة[4]، ومـن هنـا جـاء الـرأي القائـل إن ظهـور الدولـة الصفويـة كانـت نتاجـاً ظاهـراً لبعـث قومـي ودينـي إيـراني، وكان هـذا البعـث عامـلاً لخلـق إيـران قويـة وموحـدة مـن جديـد بعـد أن كانـت جـزءاً مـن الإمبراطوريـة الإسـلامية، وتمكـن الصفويـون مـن بنـاء دولـة إيرانيـة مسـلمة ومسـتقلة بعـد قـرون مـن سـقوط الحكـم الساسـاني عـلى يـد الفاتحـين العـرب.[5]

المطلب الثاني

التيار الشعوبي بعد الفتح الإسلامي

أولاً: التيار الشعوبي الإيراني

تكتسـب دراسـة التيـار الشـعوبي بشـقيه الإسـلامي الإصلاحـي والقومـي الفـارسي أهميـة واضحـة في فهـم طبيعـة تأسـيس الدولـة الصفويـة المركزيـة، ومـدى نجاحهـا في تحقيـق مـا كان يحلـم بـه هـذا التيـار بمختلف مشـاربه واتجاهاتـه السياسـية والعقديـة. وتكمـن أهميـة دراسـة التيـار الشـعوبي- مـع مـا يشـوبه مـن الحساسـيات بـين العـرب والشـعوب غـير العربيـة وعـلى رأسـها الشـعب الفـارسي - في أن أصحـاب هـذا الفكـر ومعارضيـه مجمعـون عـلى تأثـيره الكبـير في سـير التاريـخ الإسـلامي والسـياسي لـدول المنطقـة عمومـاً كـما سـيأتي تفصيلـه. ثمـة اختـلاف في تعريـف الشـعوبية وماهيـة أفكارهـا وأهدافهـا، وزمـن نشـوئها مـا بعـد الإسـلام. ولكـن مـا هـو متفـق عليـه هـو أن طبقـات مـن الشـعب الإيـراني ممـن أسـلم أو بقـي عـلى ديانتـه السـابقة لم تتمكـن مـن الاندمـاج مـع الوضـع السـياسي الجديـد الـذي أعقـب الفتـح الإسـلامي، وظلـت تسـعى مـن أجـل إرجـاع الوحـدة القوميـة الفارسـية، اعتقـادا منهـا بـأن الفاتحـين العـرب والحكومـات التـي أعقبـت الفتـح، وعـلى رأسـها حكومـة بنـي أميـة لم تنفـذ الشـعارات والمبـادئ الإسـلامية السـمحاء التـي أطلقـت في بدايـة الفتـح، والتـي كانـت تنـادي بعـدم التفرقـة بـين الشـعوب والقوميـات. وكان التيـار الشـعوبي يـرى بـأن الشـعوب حديثـة الإسـلام أوالأراضي المنضويـة تحـت لـواء الحكـم الإسـلامي أصبحـت تمثـل طبقـة تابعـة وثانويـة في المنظومـة الإسـلامية، ولم تحفـظ لهـا حقوقهـا أسـوة بباقـي المسـلمين العـرب، لا في العطـاء و لا في دائـرة الوظائـف الحكوميـة ولا مـن حيـث ميـزان دفعهـا للخـراج و الضرائـب.[6]**

---

(3) للتفصيـل راجـع: مرتضـى مطهـري: خدمـات متقابـل إسـلام في إيـران، انتشـارات صـدرا، تهـران، 1418 هــ جـاب 39. و د. عبـد الحسـين زريـن كـوب دو قـرن سـكوت، كتابخانـه درفـش كاويانـى، تهـران، 1378 هــ جـاب نهم.

(4) د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج 3 ص 3 وص 12.

(5) راجر سيورى وآخرون: صفويان، ترجمه و تدوين د. يعقوب أجند، انتشارات مولى، تهران، 1390 هـ چاپ دوم، ص 65.

(6) د. عبـد العزيـز الـدوري: الجـذور التاريخيـة للشـعوبية، دار الطليعـة للطباعـة والنـشر، بـيروت، الطبعـة الثالثـة، 1981م، ص 14. * يذكـر إن الكثـير مـن باحثـي الشـعوبية دعـوا إلى تمحيـص ونقـد مـا ورد في الدراسـات السـابقة حـول علاقـة السـلطة الأمويـة مـع الشـعب الإيـراني مـع الاحتفـاظ بوجـود كثـير مـن الشـواهد التاريخيـة التـي تؤكـد وجـود حـالات تمييـز في أزمنـة محـددة وحـالات محـدودة، منهـا فـترة ولايـة

لقد كان التيار الشعوبي في بدايته قد استند إلى شعار «التسوية»، ولذلك يطلق عليهم أيضا (أهل التسوية). وتتلخص فكرة التسوية في مساواة جميع المسلمين من العرب وغيرهم بناءً على الآية القرآنية: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ))[7]، والآية: ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ))[8]، والآية: ((مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ))[9]. و بناءً على الأحاديث الصادرة عن رسول الإسلام ومنها (إنّ ربكم واحد، وأباكم واحد، و لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)[10].

بيد أن النوايا الحقيقية للتيار الشعوبي كانت محط شك، فهل هدفت حقاً إلى الإصلاح وإحقاق حقوق القومية الفارسية وحسب، ضمن الإطار الإسلامي العام؟ أوكانت حركة مناوئة للعرب تهدف إلى ضرب الديانة الإسلامية؟[11]، وما يجدر ذكره بأن بعض الكتاب الإيرانيين من التيار القومي الفارسي قد ساعدوا على تكريس هذه الفكرة، حيث اعتبر بعضهم الشعوبية أول حزب سياسي قومي إيراني بعد الفتح الإسلامي، وتم تأسيسه من قبل النخبة المثقفة وطبقة الأشراف ورجال الدين الزرادشتي، وكان يهدف إلى إسقاط الحكم العربي الإسلامي من منطلق تحقير القومية العربية وتشويه صورة الإسلام، في محاولة لإرجاع الإمبراطورية الفارسية .[12]

ويعتقد المشككون بنوايا الشعوبيين أن هذا التيار كان تياراً منظماً، وله أساليبه في العمل والتنظيم من خلال الاتصال بالناس وتثقيفهم على كراهية العرب والإسلام، وكان عمله ينقسم إلى قسمين: الشعوبية الدينية والشعوبية العنصرية.

وكانت الفئة الأولى تهدف إلى تشويه مبادئ الإسلام وهدمه من الداخل من خلال إدخال أفكار الغلو

الحجاج الثقفي والي الأمويين على العراق وإيران. أنظر: المصدر نفسه: ص 15 وص 16 و د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج 1 ص 159 وص161 وص 162. * « ومما يستند إليه الباحثون القوميون الإيرانيون في التمييز بين الموالي و العرب هي الحكاية التي يرويها صاحب كتاب الأغاني تحت عنوان يفرق بين العربية و الموالي (قدم أعراب من بني سليم أقحمتهم السنة إلى الروحاء فخطب إلى بعضهم رجل من الموالي من أهل الروحاء، فزوجه، فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة، وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة، فاستعداه الخارجي على الموالي فأرسل إبراهيم إليه وإلى النفر السلميين، وفرق بين المولى وزوجته، و ضربه مائتي سوط، وحلق رأسه ولحيته و حاجبيه. فقال محمد بن بشير في ذلك:

وفي المائتين للمولى نكال.. وفي سلب الحواجب والخدود

إذا كافأتهم ببنات كسرى، فهل يجد الموالي من مزيد

فأي الحق أنصف للموالي.. من أصهار العبيد إلى العبيد)

أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 2008 م، الطبعة الثالثة ج16، ص 71 - 72. جلال همايى: شعوبية، مجله مهر، تهران، 1313 هـ سال دوم، شماره ج 1، ص 49.

(7) سورة الحجرات: أية 13.

(8) سورة الحجرات آية 10.

(9) سورة الأحزاب آية 40.

(10) المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق: طارق بن عوض وعبد المحسن إبراهيم، دار الحرمين الطباعة والنشر - القاهرة. ج 5 ص 76.

(11) د. عبد العزيز الدوري: مصدر سابق، ص11 وص 12. و د. عبد الله سلوم السامرائي: مصدر سابق، ص 7.

(12) غلام رضا إنصاف بور: روند نهضتهاي ملي وإسلامي در إيران، انتشارات فرانكلين، تهران، 1359 هـ ص51 وص52 وص53 وص54.

والزندقة إليه، والفئة الثانية كانت تعمل في الجانب السياسي لإسقاط الحكم الأموي، والتغلغل في الحكومات اللاحقة بهدف السيطرة على مركز القرار وإحياء الإمبراطورية الفارسية.[13]

وقد واجه هذا التشكيك رفضاً من الباحثين الإسلاميين الإيرانيين، الذين اعترضوا على هذا التعميم واعتبروه إجحافاً بحق الشعب الإيراني المسلم، فالتيار الشعوبي وهم أهل التسوية لم يكن لديهم إلا نوايا إصلاحية، وكانت أهدافهم إسلامية بحتة. من دون إنكار حقيقة أن بعض القوميين الإيرانيين، لاسيما ممن ضربت مصالحهم في العهد الجديد من الأشراف و رجال الدين الزرادشتي، قد استغل هذه الحركة، بيد أن هؤلاء كان تم فرز حركتهم فيما بعد، و لقبوا بأهل التفضيل، ويقصد بهم أولئك الذين يفضلون العنصر الفارسي على سائر الشعوب ولاسيما العرب، وقد عرفوا باحتقارهم للإسلام بدعوى أنه دين عربي و ليس عالمياً [14].

ويستدل المطهري على الرأي السابق بأن الشعب الإيراني لم يدخل الإسلام عن طريق الإكراه بل دخله طوعاً وعن رغبة، وأخلص للدين الإسلامي الذي اعتبره منقذًا له من السلطة الساسانية الجائرة ورجال الدين الزرادشتي، ولذلك لم يرتد عن الإسلام بعد مرور زمن طويل وحصوله على الاستقلال السياسي. ولا يمكن لأحد أن ينكر الخدمات التي قدمها العلماء الإيرانيون في مجالات اللغة والحديث والفقه خلال القرون المتتالية ما بعد الإسلام .[15]

وينفي رسول جعفريان وجود علاقة مباشرة بين الغلاة والزنادقة وبين المسلمين الإيرانيين، حيث يشير في دراسة له إلى أن أقطاب الغلاة لم يكونوا فرساً، وكانوا من العرب المعارضين للسلطة الأموية وأعدادهم ضئيلة جداً، ووجود عدد من الفرس كأنصار لهؤلاء الأقطاب لايعني تبني الغلو من قبل جميع الإيرانيين، وأن الأبحاث التاريخية تؤكد بأن المبالغة ترافق كثيراً من التهم المنسوبة إلى بعض الأشخاص من الذين لم يكونوا أصحاب فرق أصلاً، بل استهدفوا لأغراض سياسية بحتة .[16]

ثانياً: مشاركة الموالي في الثورات المعارضة لبني أمية:

شارك الموالي [17] الفرس في الكثير من الثورات المعارضة لحكم بني أمية، بمختلف عقائدها واتجاهاتها السياسية. وكان لهم الدور الأساسي من حيث العدد في البعض منها[18]. إن مصادر التاريخ الإسلامي تشير إلى أن سياسات بني أمية العنصرية تجاه الشعوب غيرالعربية، فضلاً عن أسلوبها في قمع المعارضين السياسيين العرب، كان السبب الرئيس في نشوب حركات وثورات مسلحة تهدف إلى إسقاط الحكم الأموي[19]، إضافة

(13) د. عبد الله سلوم السامرائي: مصدر مسابق، ص 7.

(14) مرتضى مطهري مصدر مسابق، ص 67.

(15) المصدر نفسه: من ص93 وص 94 وص95.

(16) للتفصيل راجع: رسول جعفريان: الشيعة في إيران دراسة تاريخية، تعريب د. علي هاشم الأسدي، مؤسسة الطبع والنشر التابع للأستانة الرضوية المقدسة، الطبعة الثانية، مشهد، 1388 هـ ص120...110.

(17) أطلق لفظ الموالي في بادئ الأمر على أربعة آلاف من الفرس الذين التحقوا بالجيش العربي الإسلامي في معركة القادسية أثناء فتح إيران وتحالفوا مع القبائل العربية فأطلق عليهم الموالي أي موالي تلك القبائل ولكن عمم فيما بعد هذه التسمية على جميع الشعوب غير العربية المنضوية تحت الحكم الإسلامي، المصدر نفسه: ص 61.

(18) هاشم معروف الحسني: الانتفاضات الشيعية عبر التأريخ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت،1990م، ص 148

(19) أنظر المصدر نفسه: ص148، ص150

إلى ما ذكر آنفا عن نشوء التيار الشعوبي الذي كان يمثل جانباً فكرياً معارضاً لحكم بني أمية بين الإيرانيين. وكانت أهم هذه الثورات هي:

أ: ثورة المختار الثقفي:

لعل مشاركة الموالي في ثورة المختار الثقفي[20] هي الأبرز من ناحية العدد والتأثير، حيث انضم أكثر من (20) ألفاً من الموالي في الثورة التي قادها المختار في مدينة الكوفة ضد الحكم الأموي، وتحت شعار الاقتصاص من قتلة الإمام الحسين بن علي «ع». وبالفعل كُتب النجاح للثورة التي أفضت إلى وصول المختار إلى سدة الحكم في الكوفة، واندحر الجيش الأموي فيما قتل أبرز رموز معركة كربلاء، لكنها لم تنجح في استمراريتها حيث لم تتعد مدة حكم المختار (16) شهراً .[21]

ويمكن إدراج عدة أسباب تقف وراء انضمام الموالي الفرس، وبهذا الكم الكبير إلى ثورة المختار، ومن أهمها[22]:

- كره هؤلاء الموالي لبني أمية وسياساتها العنصرية، وطموحهم في رد الاعتبار.
- وجود نزعة شيعية [23] لاعلى المستوى العقائدي بل على المستوى السياسي، بين هؤلاء الموالي الذين كانوا يقطنون مدينة الكوفة، وهي من أهم معاقل التشيع آنذاك. وعدم مشاركة هؤلاء الموالي في معركة كربلاء، ووجود حس الانتقام لديهم من أشراف الكوفة المنضوين تحت لواء الأمويين في حربهم على الإمام الحسين(ع). وسيرة المختار في الموالي، حيث تمكن من استمالة قلوبهم واستثمار طاقاتهم القتالية من خلال تقسيم الغنائم والأموال بين الجنود الفرس، والإجازة لهم بركوب الخيل في الحروب وهو أمر كان محظوراً عليهم في زمن بني أمية، وأيضا توليهم مناصب رفيعة في حكومته حيث كان يخاطبهم بأنكم مني وأنا منكم.

واسترداد حرية الموالي حيث أطلق المختار شعاراً بأن من جاءنا عبداً فهو حر.

إن وجود هذا الكم من الموالي في جيش يقوده عربي كالمختار الثقفي شكل سيفاً ذا حدين، حيث أعطى ثماره الآنية في نجاح الثورة، وكان سبباً رئيسياً في إسقاطها في الوقت نفسه، حيث تمكن خصوم المختار من تأليب العشائر العربية وأشراف الكوفة بالضد من ثورته، بغية استعادة التميز العربي المفقود في حكومة المختار. ولذلك أجهز على حكومته و أبيد الموالي الذين كانوا برفقته، وتم تحجيم نشاط الآخرين من الموالي في المدن وأرجعوا إلى أعمالهم الشاقة في المجالات الخدمية والزراعية وغيرها [24]

---

(20) المختار: ابن أبا عبيدة المسعود الثقفي أحد قادة الفتح الإسلامي، ولد في السنة الأولى من الهجرة بمدينة طائف وقتل سنة 67 للهجرة في مدينة الكوفة، المصدر نفسه: ص 332.

(21) د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج 1 ص 173 وص 174.

(22) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص 73 ص82 وص 83. عبد الرفيع حقيقت: تاريخ جنبشهاي مذهبي در إيران، انتشارات كومش، تهران، جاب دوم، 1385 ه، ج 1 ص 201،

(23) يوجد هناك رأي يشكك في وجود هذه النزعة الشيعية ويعتقد بأن الموالي لم يكونوا من أنصار أهل البيت لا في زمن الإمام علي ولا في زمن الإمام الحسن ولا هم من مناصري الإمام الحسين في معركته مع الجيش الأموي، وهم أيضا لم يشاركوا في ثورة التوابين التي قادها زعماء الشيعة العرب بل كانت دوافعهم في الانضمام إلى المختار دوافع قومية وسياسية، ولذلك شاركوا في أغلب الثورات التي انطلقت بالضد من الأمويين بمختلف اتجاهاتها. وكلا الرأيين محل نقاش وتأمل وله شواهد تاريخية. غلام رضا إنصاف پور: مصدر سابق، ص 178.

(24) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص83 وص84 وص85.

ب: ثورات الخوارج

كان الخـوارج [25] يمثلـون التيـار الأكـثر تطرفـاً في معارضتـه المسـلحة ضـد السـلطة الأمويـة، وكانـوا يكفـرون حكامهـا علانيـة، وقامـوا بثـورات متتاليـة في مناطـق إسـلامية مختلفـة، وكانـت أهـم هـذه الثـورات:

- ثـورة النافـع بـن الأزرق الحنظـلي[26] الـذي تمكـن مـن الاسـتيلاء عـلى مناطـق إسـلامية واسـعة في جنـوب إيـران، ومنهـا مـدن الأحـواز وفـارس وكرمـان وأصفهـان بمسـاندة أهـالي هـذه المـدن مـن الإيرانيـين، وكان يجبـي الخـراج منهـم وقـد قتـل في البـصرة بعـد أن أراد الاسـتيلاء عليهـا. ولكـن لم تنتـه ثـورة الأزارقـة بمـوت مؤسسـها بـل اسـتمرت مـن بعـده (19) عامـا. [27]

- ثـورة عبـد الرحمـن بـن الأشـعث [28] الـذي اسـتولى عـلى أراض شاسـعة في شرق إيـران ومنهـا مـدن سيسـتان و زابـل، و كان غالبيـة أنصـاره مـن الإيرانيـين الذيـن قـدر عددهـم بسـتين ألـف مقاتـل واسـتمرت حكومتـه وثورتـه ضـد الأمويـين خمسـة أعـوام، وكان يلقـب نفسـه بنـاصر المؤمنيـن.[29]

إن مـن أهـم أسـباب نفـوذ الخـوارج في أوسـاط المـوالي، وتمكنهـم مـن إقنـاع هـذه الطبقـات بالثـورة ضـد السـلطة الأمويـة، تكمـن في النقـاط التاليـة:

- كانـت السـمة الغالبـة عـلى الخـوارج ميلهـم إلى الزهـد والعبـادة وقـراءة القـرآن وابتعادهـم عـن مسـألة الحكـم، وكانـوا يثقفـون النـاس عـلى أنهـم يثـورون لإحقـاق الحـق والاقتصـاص مـن الظالمـين، وليـس هدفهـم اسـتلام سـلطة. مـما كان يحببهـم لـدى المـوالي وعامـة النـاس.

- الخـوارج كانـوا ينتمـون إلى الطبقـات الوسـطى والمسـحوقة في المجتمـع، مـما جعلهـم عـلى مسـاس مبـاشر مـع غالبيـة الشـعب الإيـراني، الـذي كان آنـذاك ينتمـي إلى هـذه الطبقـات.

- منـاداة الخـوارج بالشـعارات الإسـلامية الأولى، مـن حيـث مسـاواة المسـلمين في الحقـوق والواجبـات ومعارضتهـم لأي تبعيـض عنـصري وقومـي.

- عقيـدة الخـوارج في الخلافـة حيـث كانـوا يعتقـدون بـأن لـكل مسـلم الحـق في الوصـول إلى الخلافـة وإن لم يكـن عربيـاً وقرشـياً، بـل يجـوز للعبيـد والمـوالي تسـلمها إن كانـوا عـدولاً ومـن أهـل الصـلاح والجهـاد، وهـي عقيـدة حفـزت المـوالي عـلى مناصرتهـم وفسـح المجـال لبنـي جلدتهـم في الوصـول إلى المراتـب العليـا مـن الحكـم والمجتمـع.

---

(25) الخـوارج فرقـة تخلـت وكفـرت الإمـام عـلي عقـب قبولـه التحكيـم في معركـة صفـين وتخليـه عـن الخلافـة لصالـح معاويـة وكانـت ترفـع شـعار لاحكـم إلا للـه وتكفـر رمـوز الصحابـة وتدعـو إلى قتالهـم وتفويـض أمـر الخلافـة العامـة للمسـلمين وكانـوا يسـتندون في قتالهـم إلى آيـات قرآنيـة أبرزهـا (ومـن النـاس مـن يـشري نفسـه ابتغـاء مرضـاة اللـه) البقـرة آيـة 207، وكانـوا يلقبـون أنفسـهم بالـشراة أي بائعـي الأرواح في سـبيل الحـق ولقبـوا بالخـوارج مـن قبـل عامـة الصحابـة والمسـلمين. غـلام رضـا إنصـاف بـور: مصـدر سـابق، ص 169. ومحمـد بـن عبـد الكريـم الشهرسـتاني: الملـل والنحـل، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، الطبعـة الثامنـة 2009 م، ج 1، ص 106 - ص 109.

(26) وهـو مؤسـس فرقـة الخـوارج الأزارقـة وكانـوا مـن أقـوى فـرق الخـوارج عسـكريا وتصلبـا في معتقداتهـم وقتـل سـنة 65 ه في مدينـة البـصرة عـلى يـد جيـش عبـد اللـه بـن زبـير. محمـد بـن عبـد الكريـم الشهرسـتاني: مصـدر سـابق، ج 1 ص 111. ومحمـد بـن جريـر الطـبري: مصـدر سـابق، ج 5 ص 613

(27) إبن اثير: مصدر سابق، ج 4 ص 86، والشهرستاني: مصدر سابق: ج 1 ص 113، وغلام رضا إنصاف بور: مصدر سابق، ص 188 ص 189.

(28) كان أمـيرا عـلى جيـش والي العـراق الحجـاج الثقفـي في حربـه مـع بـلاد رتبيـل في شرق إيـران وتمـرد عليـه و جـرت حـروب بينهـم حتـى قتـل أبـن الأشـعث. ابـن الأثـير: ج 4 ص 231.

(29) غلام رضا انصاف بور: مصدر سابق، ص 197 ص 198.

- كان الخوارج يعتقدون بأن السلطة والقوة من حقوق الأمة، ومنبعثة من إرادتها، ولذلك فإن لها الحق في الخروج على من تنتخبه إذا تبين فيما بعد بأنه لم يكن أهلا لها.
- كان الخوارج يكفرون خلفاء بني أمية ويعتبرون حكومتهم ملكاً عضوضاً، وسلطة غير شرعية اغتصبت الحكم، ولم ينتخبوا بإجماع المسلمين، فكانوا يعارضون نهجهاl العنصري والاستعلائي في الحكم. وبما أن الموالي كانوا ساخطين على الأمويين وجدوا بأن هؤلاء الخوارج منقذون لهم وأهل للمناصرة .[30]

إن ثورات الخوارج المتتالية وإن لم تنجح في تحقيق أهدافها الرئيسية، لكنها تمكنت من ضعضعة الحكم الأموي وإضعافه بشكل كبير، و كانت تعتبر هاجسًا دائمًا يقلق مضاجع السلطات، كما أن هذه الثورات تمكنت من إيقاظ الآمال لدى الموالي عموماً، ولدى الأحزاب المعارضة الأخرى خصوصاً، حيث أعطت لهم جرأة أكبر في الإقدام على ثورات أخرى.[31]

ج: الثورات الشيعية الزيدية

- ثورة الإمام زيد بن علي[32]: كانت الكوفة منطلقًا لثورة الإمام زيد بن علي، و توجد شواهد بأنه لم يكن راغبًا في الخروج في بادئ الأمر، لولا طلب أعداد كبيرة من المسلمين وصل تعدادهم إلى (100) ألف بحسب بعض الروايات، وكان من بينهم خمسة عشر ألفا من أهل الكوفة يمثلون اتجاهات فكرية مختلفة، من الشيعة والخوارج والموالي، فضلاً عن مدن أخرى كالبصرة وخراسان، وقد تمكن الأمويون مع ذلك من إجهاض الثورة في نهاية المطاف، من خلال إلقاء شبهات عقائدية أدت إلى تفريق كلمة مناصري زيد، مما مكنهم من قتله [33] وإخماد ثورته الفتية .[34]

إن مكانة زيد الاجتماعية والعلمية، وما رفعه من شعارات إسلامية من وجوب العودة إلى الكتاب والسنة وجهاد الظلمة وإحقاق حقوق المظلومين، قد مكنه من جذب قلوب عامة المسلمين والموالي على وجه الخصوص، والذين بايعوه بكثافة، فكان لمقتله الوقع الكبير في قلوبهم، ولذا تم احتضان نجله يحيي فيما بعد من قبل الموالي الذين شاركوا في ثورته، ولكن هذه المرة على الأراضي الإيرانية و ليس في الكوفة .[35]

- ثورة يحيى بن زيد بن علي: خرج بعد مقتل أبيه متخفيا إلى خراسان بدعوة من أهلها وقام بثورة كبيرة ضد الأمويين وبمساعدة من الموالي، ولكن لم يكتب النجاح لثورته أيضا وقتل وله من العمر (18) عاما وصلبت جثته لعدة أعوام في خراسان، التي أعلن أهلوها الحداد على يحيى سبعة أيام، ولم يولد لهم ذكر في تلك السنة إلا وأسموه زيدا أو يحيى. [36]

---

(30) المصدر نفسه ص 169، 170، 171، 172.

(31) د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج 1 ص 175.

(32) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد عام 80 للهجرة وقتل عام 122 للهجرة في الكوفة، عند ثورته ضد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك> محمد أبو زهرة: الإمام زيد حياته عصره آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، 2005م، ص 25 ص 26.

(33) لتفاصيل مقتل الإمام زيد راجع: أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق الشيخ أحمد صقر، دار الشريف الرضى، قم، الطبعة الثانية، 1416 هـ ص 136-134.

(34) إبن اثير: مصدر سابق، ج 5 ص 114 م 115. و رسول جعفريان: مصدر سابق، ص 138 ص و139.

(35) غلام رضا إنصاف بور: مصدر سابق، ص 213 ص 214.

(36) المصدر نفسه ص 214.

وقد عد المؤرخون ثورات زيد ويحيى ومقتلهما بأنهما من أعنف الضربات التي وجهت لبنيان الحكم الأموي، وساعدت على سقوطه فيما بعد على يد العباسيين بمساندة رئيسية من الموالي.[37]

د. ثورة العباسيين وممهدات وصولها للحكم:

كان بنو هاشم كيانا واحدا حتى عام (100هـ)، ولم يكن هناك فارق كبير بين العباسيين و العلويين، إذ كان الناس ينظرون إليهم ككيان واحد و يجمعهم موقف واحد هو دعم خلافة الإمام علي وأولاده العلويين من بعده، ولذلك كانوا يصنفون ككتلة واحدة معارضة لحكم بني أمية. وكانت ظلامة العلويين السلاح الرئيس في هذه المعارضة. حيث أعطى مقتل الإمام الحسين والإمام زيد ونجله يحيي وما جرى على بني هاشم من سجن وتعذيب وتشريد، الأسرة مكانة كبيرة في نفوس المسلمين. فضلًا عن النسب المتصل بالرسول والمكانة العلمية والاجتماعية لزعماء الأسرة الهاشمية، كل ذلك أدى إلى زيادة شعبيتهم في أوساط المسلمين الداعمين لمشروعهم السياسي.[38]

وكان للموالي صلة وثيقة بالأحداث التي مرت على البيت الهاشمي، حيث شارك الموالي كما سبق ذكره في الثورات الشيعية مع المختار والإمام زيد و يحيى، وكانوا يرون في البيت الهاشمي مشروعاً لإعادة الخلافة العلوية، وما كانوا يتوقون إليه من حكم علوي راشد يساوي بينهم وبين العرب، الذي دافع عنهم في زمن الخلفاء الذين سبقوا خلافة الإمام [39]، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الموالي الذين كانوا يودون بني هاشم لم يكونوا شيعة بالمصطلح العقائدي، بل كان تشيعهم تشيعا سياسيا وعاطفيا، ولذلك لم يتمكنوا من فرز الحركات الهاشمية من بعضها البعض فرزاً عقائدياً دقيقاً، وهو ما تبين لهم فيما بعد، عقب السيطرة العباسية على الحكم[40].

ولمعرفة الاتجاهات الرئيسة في البيت الهاشمي يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام رئيسة:

- **التيار الشيعي الزيدي:** وهو التيار الذي كان يعتقد بإمامة الإمام زيد بن علي وعدم حصر الإمامة في ذرية الإمام الحسن أوالإمام الحسين ابني السيدة فاطمة بنت الرسول محمد (ص)، بل كانوا يعتقدون بإمامة أي من السادة العلويين القائمين بالسيف، وكانوا يميلون في عقائدهم إلى المعتزلة وفي الفقه إلى فقه الإمام أبي حنيفة. وكانوا يعتقدون بشرعية خلافة الخلفاء الذين سبقوا خلافة الإمام علي (ع) مع احتفاظهم بأفضليته عليهم، وهم بذلك أقرب التيارات الشيعية لأهل السنة والجماعة. وكان أبرز وجوه الزيدية الإمام زيد ونجله يحيى، ومن بعدهما محمد وإبراهيم من السادة الحسنيين، الذين ثاروا فيما بعد في زمن المنصور العباسي وقتلوا على يده.

وتشعبت من التيار الزيدي فرق مختلفة، وبعقائد متفاوتة. وقد كان التيار الزيدي مدعوماً من الموالي الإيرانيين بقوة كما مر الحديث على ثورات الإمام زيد في الكوفة ونجله يحيى في خراسان، وصولاً إلى إقامة حكومة

(37) المصدر نفسه ص 214.

(38) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص 137، ص 138.

(39) غلام رضا إنصاف بور: مصدر سابق، ص 212.

(40) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص 142، ص 143.

طبرستان الزيدية المستقلة في شمال إيران على يد ناصر الأطروش [41] الزيدي وأبنائه على التوالي.[42]

- **التيار الحسني العلوي:** وهو التيار الذي كان يعتقد بعدم حصر الإمامة في ولد الإمام الحسين(ع)، بل كان يميل إلى أفضلية أبناء الإمام الحسن (ع) في الخلافة لكونه الأكبر[43] وكان أبرز وجوه هذا التيار عبد الله بن الحسن[44] وأبناؤه محمد وإبراهيم، وكان عبد الله يثقف الناس على أن ابنه محمداً هو المهدي المذكور في روايات الرسول (ص)، وكانوا ينادونه منذ صغره بالمهدي[45]، وقد أجمع عليه بنو هاشم و بايعوه بالخلافة أيام بني أمية في اجتماع أسري سري سمي باجتماع أبواء [46]، حيث بويع من قبل العباسيين والعلويين، فيما تحفظ على بيعته الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) في ذلك الاجتماع. وجرت بين عبد الله الحسن و الإمام الصادق (ع) عدة مناقشات كلامية حادة ، حول أحقية أولاد الحسن أو الحسين بالإمامة و حول بيعة محمد وثورتهما، وحول اختلاف الرؤى في التحرك السياسي.[47]

ولم تفلح الثورات الحسنية بقيادة أبناء عبد الله الحسن في زمن بني العباس، حيث قتل محمد ذو النفس الزكية في المدينة، وقتل أخوه إبراهيم في البصرة، وتم اعتقال أعداد كبيرة من الأسرة توفي غالبيتهم في سجون العباسيين. ولكن لم تتوقف الثورات الحسنية، واستمرت بين الحين والآخر وتمكن أحد الحسنيين وهو إدريس بن عبد الله من الفرار إلى المغرب وإعلان نفسه أميرًا للمؤمنين، وتأسيس دولة الأدارسة التي دامت حوالي قرنين من الزمن من (172 هـ إلى 375 هـ). [48]

- **التيار الشيعي الإمامي:** وهو التيار الذي كان يعتقد بالأئمة المنصوص عليهم إلهياً من ولد الإمام الحسين (ع) وكان متوجهاً نحو التثقيف بهذا المبدأ، ولم يتخذ مواقف سياسية حادة أوثورية، بل توجه أئمة هذا التيار نحو التعليم والتدريس وتنشئة علماء يمكنهم الاستمرار في هذا الخط.

- **التيار العباسي الهاشمي:** كان الفكر السياسي الشيعي متوجهاً نحو أحقية أبناء الإمام علي(ع) من ذرية

---

(41) ناصر الأطروش: هو الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين وكان يلقب بناصر وقد استولى على طبرستان سنة 301 م وأقام فيها 13 سنة يدعو أهلها للإسلام، فأسلم خلق كبير منهم. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: مصدر سابق، ج 1 ص 156.

(42) المصدر نفسه ج 1، ص 153 - 156.

(43) أحمد الكاتب: التشيع السياسي والتشيع الديني، انتشارات العربي، بيروت، 2009م، ص 94.

(44) عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب وكان شيخ بني هاشم وكان يقول ولدني رسول الله مرتين، توفي وهو ابن 75 سنة عام 142 هـ في سجن الهاشمية أيام خلافة أبي جعفر المنصور. ابن عنبة جمال الدين الحسيني: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، دار أنصاريان، قم، الطبعة الثالثة، 2006م، ص93، ص94.

(45) كان لمحمد قدسية كبيرة في قلوب بني هاشم وكان يلقب بصريح قريش حيث لم يكن من أمهاته أمة وكانت بني هاشم تناديه بمحمد ذي النفس الزكية ومن كثرة علمه وزهده كان لا يشك بانه المهدى لدى عامة الناس، أبو الفرج الأصفهاني: مصدر سابق، ص 206، ص 207.

(46) اجتماع أبواء: تم في منطقة الأبواء وهي إحدى طرق مكة واجتمع فيه أركان البيت العباسي والعلوي وذلك بعد مقتل الخليفة الأموي وليد بن يزيد، ودعا فيه عبد الله بن الحسن بني هاشم لبيعة ولده محمد و عرّفه بانه مهدى آل محمد و قد بايعه في ذلك الاجتماع السفاح و المنصور العباسي اللذين أصبحا فيما بعد أوائل الخلفاء العباسيين، وامتنع عن البيعة الإمام الصادق الذي كان يرى بأن الخلافة سوف لا تنتقل لأبناء عبد الله و هما مقتولان، و قال للمجتمعين بان الوقت غير مناسب للبيعة، وأن الخلافة ستكون للعباسيين دون غيرهم و يقال بان المنصور لقب الإمام جعفر صادقا لصدق رؤياه في خلافته. المصدر نفسه، ص224 و225 و226 و227.

(47) أحمد الكاتب: مصدر سابق، ص94 ص 95 ص 126.

(48) المصدر نفسه ص 340.

السيدة فاطمة بنت الرسول (ص) في الخلافة، حتى تأسست الفرقة الكيسانية[49]، والتي ذهب أتباعها إلى إمامة محمد الحنفية أحد أبناء الإمام علي (ع) من زوجة أخرى له، وقالوا بغيبته وأنه المهدي [50]، وبايعوا من بعده نجله عبد الله المعروف بأبي هاشم ولم يكن له عقب ذكر، فقيل إنه سلم الإمامة إلى محمد بن علي العباسي[51]، و وجه أتباعه باتباعه ونصرته. [52]

وكان العباسيون يتشيعون الكيسانية حتى زمن الخليفة العباسي المهدي، الذي أرجع تشيع العائلة إلى الاعتقاد بإمامة العباس بن عبد المطلب عم النبي (ص)، والذي اعتبره أولى الناس وأقربهم إليه (ص) وأحقهم بالخلافة، ومن ثم أبناء العباس: عبد الله بن العباس، وعلي بن عبد الله، ومحمد بن علي، وإبراهيم بن محمد، ومن ثم إلى أبناء إبراهيم: أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور[53]. ولذلك يشك بعض الباحثين في صحة تنازل أبي هاشم بن محمد الحنفية عن الإمامة، لصالح العباسيين في وصيته، فالأقرب أن قصة التنازل هي من صنيعة العباسيين أنفسهم، لتثبيت إمامتهم من خلال أحد أبناء الإمام علي(ع) في بداية دعوتهم[54].

وبما أن التيارين العلوي الزيدي والحسني كانا يتمتعان بشعبية كبيرة في أوساط الشيعة، لم يستقل العباسيون في حركتهم عنهم، وبقوا إلى جانبهم في حركة المعارضة للأمويين، بل كما مر في البحث سابقاً فقد بايع البيت العباسي محمد بن عبد الله بن الحسن في اجتماع أبواء السري للإمامة، وكانوا ينادون بوجوب إسقاط الحكم الأموي وتولي أحد العلويين الخلافة[55] .

بدأ التيار العباسي بالتحرك السياسي الجدي على يد إمامه الأول محمد بن علي في سنة (97هـ) أوفي رواية أشهر سنة (100هـ)، على صورة دعوة وتثقيف الأتباع بشكل سري في مناطق الكوفة وخراسان في شرق إيران، وكان أهل الدعوة يسمون بالكفية[56] وهم أوائل المنضمين إلى الحركة العباسية، ولهم تنظيم هرمي

---

(49) الكيسانية: أصحاب أبي عمرة كيسان وهو رئيس شرطة المختار الثقفي وقيل إنه كان مولى للإمام على وتلميذا لدى نجله محمد الحنفية، وكانوا يعتقدون بإمامة محمد حصرا عقب الإمام علي ومن ثم نجله أبي هاشم الذي سلم الإمامة فيما بعد للعباسيين وتعتبر الكيسانية أول فرق الشيعة عقب مقتل الإمام الحسين علي آقا نوري: خاستگاه تشيع وپيدايش فرقه هاي شيعي در عصر إمامان، پژوهشگاه علوم وفرهنگ اسلامى، قم، چاپ دوم، 1386 هـ ص 245.

(50) ويعتقد أحد الباحثين بأن إدعاء مهدوية محمد الحنفية كان بسبب الظلم الذي تعرض إليه الشيعة وكانوا يأملون بظهور منقذ لهم من أبناء الإمام علي وبما أن المختار كان قد ربط بين ثورته ومحمد ويخاطبه في رسائله بالمهدي فقد شاعت مهدوية محمد بن حنفية في أوساط الناس. المصدر نفسه: ص251.

(51) هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب والعباس هو عم النبي (ص)، وكان محمد بن على أول ائمة العباسيين. ابن نطاح (مؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري): أخبار الدولة العباسية، تحقيق د. عبد العزيز الدوري ود. عبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت، 1971م، ج1 ص 196.

(52) المصدر نفسه: ج1 ص 177 ص196.

(53) المصدر نفسه: ج1 ص 195.

(54) د. سميرة مختار الليثي: جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول، تحقيق الأستاذ سامي الغراوي، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم، 2007م، ص 52.

(55) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص 137.

(56) سموا بالكفية حيث أمرهم محمد بن علي العباسي بعدم إشهار السلاح والكف عن مقابلة الأعداء حتى وصول الإذن لهم من الإمام. ابن نطاح: مصدر سابق، ج1 ص 204.

أنشأه الإمام العباسي محمد بن علي حيث قسم الدعاة إلى (12) نقيبا و(58) آخرين كانوا يسمون نظراء النقباء، وكان هؤلاء بمثابة قادة الحركة العباسية وجميعهم من سكان مدن فارسية.

وكانت الحركة تدعو الناس إلى إمام من بني هاشم دون تسميته، رافعة شعار الرضا من آل محمد والثأر من قتلة العلويين، وهذا الأمر كان من دواعي انضمام أعداد كبيرة من الموالي وأنصار العلويين لهم، علماً بأن العباسيين لم يشاركوا في ثورات زيد بن علي ولا نجله يحيى، بل هناك شواهد تاريخية بأنهم اعتزلوا القتال وخرجوا من الكوفة أثناء ثورة زيد بأمر من محمد بن علي، وكان يوصي الأخير أبناءه وخواص أتباعه بعدم نصرة زيد ومن بعده يحيى وعدم تعريض أنفسهم للقتل. حيث كان يعتقد بأن زمن الثورات لم يحن وخروج العلويين يعتبر انتحاراً من دون فائدة، ومن ناحية أخرى كان العباسيون يريدون الخلافة لأنفسهم فلم يكن انتصار العلويين يصب في صالحهم في حال وقوعه[57]. ولذا لم يكتفوا بعدم مناصرة الحسنيين، بل قام أبو مسلم الخراساني[58] قائد جيوش العباسيين في خراسان بقتل أحد العلويين وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، الذي خرج على الأمويين في الكوفة.

ولكن العباسيين استثمروا مقاتل العلويين في تأليب الناس بالضد من بني أمية، وتوسعة أنصارهم ونشاطاتهم تحت شعار ظلامة العلويين[59]. وركزوا بصورة واضحة على الموالي ومنطقة خراسان في شرق إيران لبث دعوتهم والقيام بثورتهم المنشودة، حيث مثلت خراسان بالنسبة إليهم مكاناً مناسباً ومفضلاً، وقد عبر عن ذلك الإمام العباسي محمد بن علي حيث كان أول من أرسل دعاته إلى خراسان قائلا لهم: (أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده، والبصرة فعثمانية، والجزيرة فحرورية مارقة، والشام فليس يعرفون إلا آل أمية، وأما مكة والمدينة فغلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بأهل خراسان! فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم يقدم عليهم فساد)[60]. وهذا ما يدعم القول إن الموالي لم يفرزوا بعد بين التيارات الهاشمية، وكانوا يدعمونهم لإرجاع حقهم من بني أمية.

وقد مارس العباسيون أيضاً منهجاً سياسياً آخر لجذب قلوب الموالي، وهو المنهج التفضيلي لهم على العرب، حيث ورد في بعض الكتب التاريخية بأن أحد الدعاة العباسيين خاطب الموالي في خراسان قائلًا لهم: (يا أهل خراسان، هذه البلاد بلادكم، وكانت لآبائكم فكانوا ينتصرون على عدوهم بعدلهم وحسن سيرتهم، فلما غيروا وبدلوا وضلوا سخط الله عليهم وانتزعها منهم، وسلط عليهم أذل أمة {يقصد العرب» كانت عندهم، فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا نساءهم، واستعبدوا أولادهم، وكانوا يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم، فلما غيروا وبدلوا وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة الرسول (ص) سلطكم عليهم لينتقم منهم بكم، وينالوا جزاء ما جنته أيديهم بسيوفكم

(57) المصدر نفسه: ج1، ص 130، ص 231.

(58) عبد الرحمن بن مسلم من مواليد إصبهان وكان اهله من الدهاقين وكان يعمل سراجا في بدايته في مدينة الكوفة وتعرف على الدعوة العباسية وبايع إبراهيم الإمام الذي جعله من خواصه وكان ينقل رسائل الإمام إلى النقباء ويأتي منهم بالمال ومن ثم أجهر بالدعوة بأمر من الإمام وأوكلت له مهام ولاية خراسان وسجستان وكرمان وجرجان والري وهمدان وإصبهان وأصبح قائد جيوش العباسيين والشخص الأول من بعهدهم. المصدر نفسه: ج1. ص 224، ص 248، ص 253، ص 254، ص262، ص 269.

(59) رسول جعفريان، مصدر سابق، ص 139.

(60) المصدر نفسه: ص 140ص141.

ورماحكم)[61]. وهـذه الكلمـة دليـل ذو أهميـة حيـث تشـير إلى محاولـة العباسـيين في تحريـك المشـاعر الفارسـية لـدى المـوالي والشـعوبيين الذيـن مـر ذكرهـم، بشـقيهم الإسـلامي والقومـي، واسـتغلال تشـيعهم العاطفـي لآل البيـت(ع)، ويمكـن اعتبـار هذيـن العاملـين الأسـاس في انتصـار الدعـوة العباسـية.

ويمكـن اعتبـار الخطبـة التـي ألقيـت بمناسـبة تنصيـب أبي العبـاس السـفاح في الكوفـة خلاصـة مـا كان يعتقـد بـه العباسـيون، فجـاء في فقـرات هـذه الخطبـة: (.. وإنمـا أخرجنـا الأنفـة مـن ابتزازهـم أي (بنـي أميـة) حقنـا، والغضـب لبنـي عمنـا.. لكـم ذمـة اللـه تبـارك وتعـالى، وذمـة رسـوله صـلى اللـه عليـه وآلـه، وذمـة العبـاس رحمـه اللـه، أن نحكـم فيكـم بمـا أنـزل اللـه، ونعمـل فيكـم بكتـاب اللـه، يـا أهـل الكوفـة، إنـا واللـه مازلنـا مظلومـين مقهوريـن عـن حقنـا، حتـى أتـاح اللـه لنـا شـيعتنا أهـل خراسـان، فأحيـا بهـم حقنـا، وأفلـج بهـم حجتنـا، وأظهـر بهـم دولتنـا، وأراكـم مـا كنتـم تنتظـرون، وإليـه تتشـوقون، فأظهـر فيكـم الخليفـة مـن هاشـم.. فاعلمـوا أن هـذا الأمـر فينـا ليـس بخـارج منـا حتـى نسـلمه إلى عيسـى بـن مريـم صـلى اللـه عليـه)[62]. ويفهـم مـن فقـرات الخطبـة أهـم مرتكـزات العباسـيين وهـي:

1) الدعـوة لم تكـن تشـمل جميـع بنـي هاشـم، بـل قـصر حـق الخلافـة في بنـي العبـاس وهـم مـن انتـصروا لدمـاء أبنـاء عمومتهـم مـن العلويـين.

2) إن البرنامـج السـياسي للعباسـيين يسـتند إلى رفـع الظلـم، وإحقـاق حقـوق المسـلمين كافـة مـن خـلال العمـل بالكتـاب والسـنة.

3) تأكيـد العباسـيين عـلى اشـتراكهم في المظلوميـة والحرمـان كحـال العلويـين في زمـن بنـي أميـة، ومـا مـن أحـد يزايـد عليهـم في ذلـك مـن بنـي هاشـم، وهـي رسـالة واضحـة لأهـل الكوفـة معقـل التشـيع العلـوي.

4) التركيز على أهل خراسان ودور الموالي في انتصار الثورة العباسية.

5) الاعتقـاد العبـاسي بمهدويـة أحـد خلفائهـا واتصـال الحكـم العبـاسي بظهـور عيسـى بـن مريـم، وهـو الاعتقـاد التقليـدي الشـائع في أغلـب فـرق الشـيعة.

إن انتصـار العباسـيين الحاسـم وبقـوة دعـم المـوالي في خراسـان، ومـن خـلال قـادة فارسـيين بارزيـن، وعـلى رأسـهم أبـو مسـلم الخراسـاني، قـد أعطـى زخـماً كبـيراً للعنـصر الفـارسي في الثـورة العباسـية وفي نجاحهـا لتسـلم السـلطة. مـما دفـع الكثـير مـن المؤرخـين إلى اعتبـار الدعـوة العباسـية كدعـوة خراسـانية أوفارسـية أوانتصـاراً نهائيـاً للقوميـة الفارسـية عـلى السـلطة العربيـة. ومـن أمثـال هـؤلاء المؤرخـين يمكـن ذكـر الجاحـظ الـذي عبر عـن دولـة بنـي العبـاس بأنهـا (أعجميـة خراسـانية)، أوالبـيروني الـذي قـال: (دولـة بنـي العبـاس دولـة خراسـانية شرقيـة)، ويقـول المقريـزي إن بنـي العبـاس أخـذوا الخلافـة بالغلبـة، بأيـدي عجـم أهـل خراسـان ونالوهـا بالقـوة حتـى أزال عجـم أهـل خراسـان دولـة بنـي أميـة، بـل اسـتحالت الخلافـة إلى كسرويـة وقيصريـة.[63]

ومـع كل هـذا الزخـم الكبـير مـن الدعـم المتبـادل لم تبـق العلاقـة العباسـية بقادتهـا الأوائـل مـن المـوالي حسـنة، حيـث تـم تصفيـة أبي سـلمة الخـلال الـذي كانـت لـه ميـول علويـة عـلى أيـدي أبي مسـلم، وقتـل

---

(61) هاشم معروف الحسني: مصدر سابق، ص 382 ص 383.

(62) المصدر نفسه: ج7 ص 426 ص 427 ص 428.

(63) د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج1 ص 178 ص 179.

الأخير على يد أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس. مما أثار نقمة كبيرة في خراسان، وتسبب في ثورات قومية بقيادة شعوبية كبيرة على أيدي أنصار أبي مسلم من الإيرانيين، الذين اعتبروه بطلاً قومياً تمكن من إسقاط الحكم الأموي العربي والمجيء بحكومة من آل البيت (ع) كما كانوا يعتقدون في البداية، وأنه كان يخطط لاستقلال بلاد فارس نهائياً من حكم العرب في نهاية المطاف[64].

وكانت أهم هذه الثورات القومية المطالبة بدم أبي مسلم والتي غالى البعض منها فيه حتى أوصلته إلى مرتبة النبوة، حركات تسمت بأسماء زعمائها وهم سنباذ [65]واستاذسيس[66] والمقنع[67] وبابك الخرمي[68] ومازيار[69]، ومع كل الجهد الذي بذلته هذه الحركات، لكنها لم توفق في إسقاط الحكم العباسي الذي كان في ذروة قوته وصلابته.[70]

وتكمن أهمية هذه الحركات القومية المسلحة زمن العباسيين في تصديق ما ذهب إليه البحث الحالي في وجود تيارين إيرانيين، تحركا منذ الفتح الإسلامي لإيران باتجاه إعادة استقلال البلاد وإرجاع الهوية الفارسية لشعبها. وإن لم تكن أهداف التيارين منسجمة في العقيدة ولكنها كانت منسجمة في الهدف، وهو الاستقلال. ولذا نرى أن التيار الشعوبي الإصلاحي الإسلامي قد شارك في أغلب الثورات الإسلامية ضد حكم الأمويين، ومال إلى العلويين في اعتقاده بأحقيتهم في السلطة. وشارك التيار الشعوبي القومي في جميع الحركات المسلحة القومية المناوئة لحكم الأمويين والعباسيين. وقد تغلغل التيار الشعوبي القومي الإيراني في جهاز السلطة العباسية بقوة من خلال أسر إيرانية بارزة، أهمها البرامكة وآل سهل، وكانوا من النفوذ على مستوى عالٍ جداً، حيث لقبت الفترة العباسية الأولى بأنها فترة الحكم الفارسي. وإن تم استئصالهم وإبادتهم فيما بعد على أيدي العباسيين الذين تعرفوا على نوايا هذه الأسر في نهاية المطاف.[71]

---

(64) غلام رضا إنصاف بور: مصدر سابق، ص 245 ص 254.

(65) سنباذ كان أحد قواد أبي مسلم ومن المقربين منه وعندما قتل أبو مسلم خرج بالثأر له وكان ذا نفوذ واسع بين الفلاحين وأهل القرى والأرياف في منطقة نيسابور وكان يدين بالزرادشتية ولكن حركته قمعت بعنف في زمن المنصور. د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج 1 ص 202.

(66) ظهر استاذسيس في خراسان وتزعم حركة فلاحية مسلحة قوامها 300 ألف مقاتل وتمكن من دحر جيوش العباسية أرسل إلى بغداد وقتل فيها وتمكنت الجيوش العباسية من قتل 70 ألف من أنصاره وأسر 30 ألف آخرين. المصدر نفسه: ج 1 ص 203 ص204.

(67) خرج المقنع وهو من أهالي مرو إحدى أهم معاقل العباسيين في بداية دعوتهم في حركة سميت باسمه وكانوا يلبسون الثياب البيض مخالفة للسواد شعار العباسيين في زمن خلافة المهدي، ثالث خلفاء العباسيين والذي تمكن من قمع حركة المقنع في مدن بخارى وسمرقند الإيرانيتين. المصدر نفسه: ج1 ص 204.

(68) يرى بعض المؤرخين بأن بابك الخرمي يرجع إلى سلالة أبي مسلم ولذا خرج انتقاما لدمه من العباسيين وقد شاعت ثورته بصورة كبيرة حيث استمرت 22 سنة في زمن 3 من خلفاء العباسيين وهم المهدي وهارون والمأمون، المصدر نفسه: ج1 ص 206 ص 207 ص 208.

(69) مازيار أحد دهاقين طبرستان وخرج عقب مقتل بابك الخرمي في زمن حكم المعتصم العباسي وكان يدين بالزرادشتية وقد تم أسره وقتل تحت التعذيب. المصدر نفسه: ج1 ص 208 وص 209.

(70) المصدر نفسه: ج 1 ص 180.

(71) عواطف العربي شنقارو: فتنة السلطة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2001م، الطبعة الثانية، ص208 ص 209.

المطلب الثالث
التشيع في إيران قبل الصفوية

لم يكن التشيع فكراً دخيلاً أو غريباً على الإيرانيين بعد ظهور الدولة الصفوية، بل كانت له جذور تاريخية منذ دخول الإسلام إليها، وصولا للصفويين. وما يجدر ذكره هو أن التشيع بكل تياراته وفرقه كان حاضرا في الساحة الإيرانية، وما تم إعلانه رسميا في زمن الصفويين هو التشيع الإمامي الاثني عشري، كما سيأتي ذكره.

ولذلك سنبحث بإيجاز أهم مواطن التشيع في إيران وأهم الحكومات الشيعية التي حكمت مناطق كبيرة وشاسعة من إيران قبل ظهور الدولة الصفوية، وأهمها الحكومات الزيدية في شمال البلاد وحكومة البويهيين الشاملة لأكثر المناطق الإيرانية والعراق أجمعه.

أولا: الحكومات الشيعية الزيدية في شمال إيران:

كما مر في الصفحات الماضية من البحث، كان للتيار الشيعي الزيدي نشاط مستمر ومتصاعد، رغم القمع الأموي والعباسي العنيف الذي تعرض له. وكان العراق والحجاز الساحة الأبرز لنشاطات العلويين الزيديين، ولكن فشل هذه الثورات وتعرض الأئمة الزيدية لعمليات القمع والسجن أجبرتهم على الهجرة إلى مناطق إسلامية بعيدة عن مركز الخلافة في بغداد، ولذلك توجه شخوص منهم إلى المغرب العربي وتمكنوا من إقامة دولة علوية زيدية فيها دامت لأكثر من (140) عاماً، وسميت بدولة الأدارسة [72]، والتي انقرضت على يد علوي آخر من الفرع الحسيني، على أثر تأسيسه للدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية التي قامت على أنقاض دولة الأدارسة الحسنية، والتي دامت لأكثر من (270) عاما وبمساحة جغرافية شاسعة شملت المغرب والشام ومصر.[73]

كما ذهب عدد من العلويين الزيديين إلى اليمن وتمكنوا فيما بعد من تأسيس دولة زيدية هناك في سنة (290) هـ[74]، وما يهمنا في البحث هو هجرة أعداد كبيرة من العلويين الزيديين إلى إيران، وتحديدا إلى المناطق الشمالية منها، وتمكنهم من تأسيس دولة علوية زيدية مقتدرة في تلك المناطق. إن المناطق الشمالية في إيران ووفقا للتقسيمات التاريخية تتشكل من ثلاث ولايات، وهي ولاية طبرستان (مازندران) والديلم (جيلان) وولاية جرجان، وهي ولايات يحدها من الشمال بحر قزوين ومن الجنوب سلسلة جبال البرز صعبة العبور، ولذلك بقيت عصية على الفتح الإسلامي لعشرات

(72) مؤسس دولة الأدارسة هو إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو أخو الثائرين محمد ذي النفس الزكية وإبراهيم، اللذين قتلا في عهد أبي جعفر المنصور العباسي، شارك في ثورة حسين الفخ التي فشلت ونجا من المعركة وهاجر متخفيا إلى مصر ومن ثم إلى المغرب وتم مبايعته أميرا للمؤمنين من قبل القبائل البربرية وتوفي عام 177 م على أثر سم أحد جواسيس الخليفة هارون الرشيد العباسي ولكن استمرت دولته على أيدي أبنائه وأحفاده. محمد جواد مغنية: الشيعة والتشيع، منشورات شريف، قم، الطبعة الثانية، 1405 ش، ص 138 ص 139 ص 143.

(73) تاسست الدولة الفاطمية على يد عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق سادس أئمة الشيعة الاثني عشرية في عام 296 ه، والشيعة الإسماعيلية هم من يعتقدون بإمامة إسماعيل بن الإمام الصادق خلافا للشيعة الإمامية الذين يسوقون الإمامة إلى الإمام موسى بن جعفر الأخ الأصغر لإسماعيل والذي توفي في زمن أبيه الصادق - المصدر نفسه ص 160ص 173.

(74) عواطف العربي شنقارو: مصدر سابق، ص 95.

السنوات، وعرف قاطنوها بالقوة والشراسة وعدم الخضوع للجيوش الإسلامية، حتى بات يضرب بكفرهم وشدتهم المثل عند العرب[75] . وبقي أكثر أهالي هذه المناطق على دينهم الزرادشتي القديم، ولم يدينوا بالإسلام فكانوا دوما في صراع مع أجهزة السلطات الأموية والعباسية، باحثين عن استقلال وحكم ذاتي لمناطقهم الجبلية المنعزلة.[76]

أ: أول اتصال علوي زيدي:

إن أول اتصال علوي بأهالي هذه المناطق تم من خلال الثائر العلوي الزيدي يحيى بن عبد الله[77] الذي هاجر إليهم سنة (175هـ)، بتوصية من الوزير الإيراني العباسي الفضل بن يحيى البرمكي، وتم احتضانه من قبل أهالي طبرستان والديلم. ولكنه هاجر مرة أخرى إلى بغداد بسبب أمان كتب له من قبل الرشيد».[78]

ب: هجرة علوية واسعة إلى إيران:

إن الثورات العلوية المستمرة على الخلفاء العباسيين، وأيضا تغلغل العناصر الإيرانية في مركز القرار الحكومي، جعل من الخليفة المأمون العباسي[79] يلجأ إلى سياسة مهادنة للشيعة والعلويين، وأن ينصب الإمام علي بن موسى الرضا [80] في سنة (201هـ) ولياً بعده.. رغم فارق السن بينه وبين الإمام، حيث كان يكبره بتسعة عشر عاما. وقد جرى هذا التنصيب بمشورة من الوزير الإيراني فضل بن سهل، إخمادا للثورات العلوية و إرضاء للشيعة[81] .

كان مجيء الإمام الرضا (ع) إلى خراسان وتقرب المأمون من الشيعة سببا رئيسيا في هجرة أعداد كبيرة من العلويين إلى إيران، وإلى خراسان على وجه التحديد. ولكن تراجع المأمون عن خطته السياسية التي انتهت بوفاة الإمام الرضا (ع) مسموما وبمقتل الوزير الإيراني فضل بن سهل، وما أعقب ذلك من سياسات عنيفة وقمعية بالضد من العلويين من قبل الخلفاء العباسيين المتعاقبين، جعل هذا التمركز ينتهي بانتشار العلويين في مناطق نائية من إيران، ومنها المناطق الشمالية في طبرستان

---

(75) د. على الله بداشتي: ريشه هاى پيدايش وگسترش تشيع در مازندران فصلنامه تخصصى شيعه شناسى سال پنجم، شماره 19، پاييز 1386 ش، قم، ص 103 ص 105.

(76) غلام رضا إنصاف بور: مصدر سابق، ص 218.

(77) هو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب، شقيق محمد ذي النفس الزكية وإبراهيم المقتولين بمدينة والبصرة وشقيق إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب. كان قد تربى في بيت الإمام الصادق وكان يسميه حبيبي من شدة علاقته بالإمام، خرج في ثورة ابن عمه حسين الفخ في الحجاز وتمكن من الهجرة إلى شمال إيران عقب فشل الثورة ولكنه استدرج من قبل هارون الرشيد العباسي وتوفي في سجنه. أبو الفرج الأصفهاني: مصدر سابق: ص 388 ص 389 ص 390 ص 404.

(78) المصدر نفسه ص 393.

(79) هو أبو جعفر عبد الله المامون سابع الخلفاء العباسيين وكانت أمه جارية إيرانية، تقلد منصب حكومة خراسان في زمن والده الرشيد وتمكن من السيطرة على بغداد مركز الخلافة بعد حرب دارت بينه وبين أخيه الأمين الذي قتل فيها بدعم إيراني خراساني في سنة 198 ه، وعلى أثر هذا الدعم نقل مركز الخلافة إلى مرو في خراسان. وكان معروف بميوله المعتزلية والعلوية وذكائه المفرط في إدارة أمور الدولة.. سميرة مختار الليثي: مصدر سابق، ص 423 ص 425 ص 426.

(80) هو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ثامن أئمة الشيعة الإمامية). أبو الفرج الأصفهاني: مصدر سابق، ص 453.

(81) غلام رضا إنصاف بور: مصدر سابق، ص 216.

والديلم. وقام هؤلاء العلويون بنشر أفكار وعقائد الشيعة في تلك المناطق التي كانوا يقطنون فيها، وأصبحوا ملاذا فكريا لأغلب معارضي الدولة العباسية[82].

ج: الحكومة العلوية الزيدية الأولى

إن اتساع وتيرة القمع بالضد من أهالي طبرستان، ووجود انشقاقات في صفوف الأهالي جعلهم يلجؤون إلى أحد السادة العلويين من أبناء الإمام الحسن(ع) [83]، وأن يطلبوا منه مبايعته لتولي أمورهم السياسية، لكنه اعتذر عن ذلك لظروفه العلمية ونصحهم ببيعة صهره حسن بن زيد[84]، القاطن في ري. وبالفعل تم اللقاء بالأخير وقبل بيعتهم وانتقل إلى طبرستان ليؤسس أول دولة علوية زيدية فيها سنة (250هـ)، ولقب بداعي الخلق إلى الحق أو الداعي الكبير. وتمكن الداعي من السيطرة على جميع مناطق طبرستان عبر حروب كثيرة قام بها بمساندة أهالي المنطقة، وإخراج عمال العباسيين منها. ولم يكتف الداعي بطبرستان بل توسع في حروبه وتمكن من ضم أغلب الأقاليم الشمالية من الديلم وجرجان إلى حكومته وتنصيب سادة علويين كحكام على تلك المناطق، وانهزمت جميع الجيوش التي بعثها الخليفة العباسي لاسترجاع هذه المناطق من أيدي العلويين [85].

وعقب استيلاء الداعي الكبير على المناطق الشمالية في إيران بدأ بتنظيم أمور حكومته ودعا الناس إلى المذهب الزيدي، وقد اشتهر بعدالته وتواضعه وصرامته في تطبيق الشريعة الإسلامية. واستحكم الأساس العلمي للفقه والعقائد الشيعية في طبرستان من خلال كتب الحسن بن زيد[86] . ومن جهة أخرى فإن حكومة العلويين في طبرستان شجعت كثيراً من السادة العلويين على التجمع فيها، وإرساء دعائم التشيع هناك. يقول المرعشي (لما كان الداعي رؤوفا بالسادة عطوفا عليهم، التف حوله كثير منهم. فكان إذا ركب، ركب معه ثلاثمائة سيد مقاتل وهم يحملون سيوفهم)[87]. استمرت حكومة الداعي الكبير من عام (250هـ) إلى عام (270هـ) حيث توفي على إثر مرض عضال وخلفه في حكمه أخوه أبو عبد الله محمد بن زيد العلوي[88]. وقد استمر حكم محمد بن زيد العلوي (17) عاما تخللها عدد من الحروب التي شنت عليه من قبل جيوش العباسيين، حتى انتهت بمقتله عام (287هـ) وانتهاء الحكم العلوي الزيدي الأول[89].

د. الحكومة العلوية الزيدية الثانية:

أعقب مقتل محمد بن زيد خروج السلطة من أيدي العلويين ولكنهم لم يتركوا الساحة السياسية في شمال إيران، بل بدأ أحد العلماء والسادة العلويين وهو أبو محمد حسن بن علي، من أحفاد

---

(82) د. على الله بداشتي: ريشه هاى پيدايش وگسترش تشيع در مازندران، مصدر سابق، ص 113 ص 118 ص 119.

(83) هو محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب وكان من علماء الزيدية والمهاجرين إلى طبرستان. عبد الرفيع حقيقت: جنبش زيدية در إيران، انتشارات كومش، تهران، 1383 ش، ص 119.

(84) هو حسن بن زيد بن إسماعيل بن حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب، المصدر نفسه، ص 120.

(85) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص171 ص172.

(86) المصدر نفسه: ص173 ص174 ص175.

(87) المصدر نفسه ص175 نقلا عن سيد ظهير الدين المرعشي: تاريخ طبرستان ورويان ومازندران، ص290.

(88) عبد الرفيع حقيقت: مصدر سابق، ص 176 ص 177.

(89) المصدر نفسه: ص194.

الإمام علي بن الحسين(ع)، بالثورة بغية إرجاع الحكم العلوي. واشتهر هذا الثائر بالأطروش وناصر الحق والناصر الكبير، وبالفعل تمكن من السيطرة على بلاد الديلم إحدى الولايات الثلاث الشمالية خلال سنة واحدة من ثورته، واستمر في عمله المسلح لأكثر من أربعة عشر عاما، دحر خلالها الجيش الساماني التابع للخلافة العباسية وفرض السيطرة على المناطق الشمالية بالكامل سنة (301هـ)، وإرجاع الحكم العلوي كما كان في زمن داعي الحق. توفي الأطروش سنة (304هـ)، مخلفا ابن عمه أبا محمد حسن بن القاسم في الحكم العلوي[90].

هـ. مناطق نفوذ الشيعة الزيدية في إيران:

رغم سقوط الدولة العلوية في شمال إيران، استمر النفوذ العلوي فيها وقام عدد كبير من السادة العلويين بنشاط سياسي لإرجاع الحكم الزيدي مرة أخرى، وامتد هذا النشاط منذ عام (316هـ) إلى (350هـ)، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل. وقد ذكر أن عدد هؤلاء السادة الثائرين فاق الـ (25) إماما وداعية [91]، ولم تقتصر مناطق نفوذ العلويين على شمال إيران بولاياتها الثلاث، بل امتد إلى خراسان في شرق إيران والمدن المركزية فيها، ومنها ري وقزوين وسنان، ويدل وجود أعداد كبيرة من مقابر هؤلاء السادة في هذه المناطق على انتشارهم الواسع ونفوذهم الاجتماعي في أوساط أهالي تلك المناطق.[92]

لقد كانت ذروة نجاح الفكر الزيدي وتأثيره في المجتمع الإيراني قد تبلورت في حركة سلالة إيرانية سميت بآل (بويه)، حيث كانوا من الشيعة الزيدية، وتمكنوا فيما بعد من السيطرة على حكم إيران والعراق مركز الخلافة، لأكثر من قرن كما سيأتي ذكره.

ثانيا: حكم سلالة آل بويه الشيعية

سميت سلالة آل بويه على اسم والد الأسرة (بويه) المتشكلة من ثلاثة إخوة، هم علي وحسن وأحمد. وقد كان البويهيون شيعة زيديين ومن سكان ولاية الديلم في شمال إيران، وكانوا من المقربين للثائر الديلمي الشهير مرد أويج، وقد كان زيديا بيد أنه يتبع الخليفة العباسي في بغداد ولم يستقل عنه. وتمكن مرد آويج من خلال دعم الخليفة تأسيس دولة كبيرة ومستقلة في المناطق المركزية من إيران. ولكنه لم يتمكن من الاستمرار في الحكم فقتل عام (332هـ) في إحدى حروبه مع خصومه السامانيين، من دون أن يترك وصيا على حكومته.

وتمكن الإخوة البويهيون من استغلال الفراغ السياسي وتقسيم مناطق حكم مرد أويج بين أنفسهم. فسيطر الأخ الأكبر علي على إقليم فارس في مركز إيران، وفرض حسن سيطرته على الولايات الشمالية، فيما تمكن أحمد من السيطرة على كرمان و خوزستان في جنوب إيران المحاذية للحدود العراقية[93].

كانت الخلافة العباسية في أسوأ مراحل ضعفها عند وصول البويهيين إلى السلطة في أغلب مناطق

(90) المصدر نفسه: ص197 ص205 ص213.

(91) المصدر نفسه: ص229 ص240.

(92) المصدر نفسه ص232.

(93) كلود كاهن: بويهيان، ترجمة د. يعقوب آژند، انتشارات مولى، تهران، 1426 ق، ص 9 ص 10.

إيـران، وكانـت ثمـة أسر متعـددة تحكـم العـالم الإسـلامي[94] في حينهـا، ولم تكـن سـلطة الخليفـة تتعـدى بغـداد وسـوادها، وهـذا الأمـر حفـز أحمـد البويهـي أصغـر الإخـوة عـلى احتـلال العـراق والسـيطرة عـلى مركـز الخلافـة، وكان شـابا جسـورا وشـجاعا، فدخـل مـع الخليفـة العبـاسي المسـتكفي باللـه في مفاوضـات واحتـل بغـداد مـن دون عنـف في سـنة (334هــ) [95]. وقـام الخليفـة مـن جانبـه بتلقيـب الأخـوة البويهيـين أحمـد وحسـن وعـلي بمعـز الدولـة وركـن الدولـة وعـماد الدولـة، اعترافـا منـه برضـوخ الخلافـة لسـلطتهم منعـا لاندثارهـا كليـا بأيـدي الحـكام الجـدد، كـما أمـر بـضرب السـكوك باسـم معـز الدولـة أحمـد والدعـاء لـه عقـب خطـب الجمعـة. ولكـن الخليفـة لم يكـن راغبـا باسـتمرار سـلطته السياسـية الشـكلية وكان ينـوي إرجـاع هيبـة الخلافـة مـن خـلال اغتيـال معـز الدولـة، بيـد أن الأخـير اطلـع عـلى خطـة الخليفـة وأمـر بقتلـه أمـام أنظـار النـاس، ثـم أمـر بإحضـار ابـن الخليفـة الصغـير وتمـت مبايعتـه وسـماه المطيـع للـه في عـام (334هــ)[96]. وتذكـر بعـض كتـب التاريـخ بـأن معـز الدولـة أحمـد كان ينـوي في بدايـة احتلالـه للعـراق مبايعـة أحـد السـادة العلويـين وهـو أبـو الحسـن محمـد بـن يحيـى الزيـدي العلـوي وإنهـاء الحكـم العبـاسي لصالـح العلويـين، لكـن الظـروف السياسـية في العـالم الإسـلامي وكـون الشـيعة لم يكونـوا إلا أقليـة فيـه مـن جهـة، وميـول البويهيـين إلى حفـظ هيبـة الخلافـة والتسـتر خلفهـا كممثـل شرعـي لـكل المسـلمين، وإبقـاء العلاقـات الخارجيـة مـع الـدول السـنية المجـاورة بأفضـل وضـع مـن جهـة أخـرى، جعلتـه يتراجـع عـن فكرتـه ويحافـظ عـلى اسـتمرارية الخلافـة العباسـية[97]. وقـد كان مـن أهـم مميـزات البويهيـين تسـامحهم المذهبـي وتكريمهـم للعلـماء وفسـح المجـال أمـام الحريـات الفكريـة والعقديـة. وكانـوا لايميـزون بـين السـنة والشـيعة في الوظائـف الحكوميـة والعسـكرية، وتمكنـوا مـن إيجـاد تـوازن في حكمهـم الشـيعي-العبـاسي ليسـتمر لأكـثر مـن قـرن. وقـد رافـق ذلـك جهودهـم في إضفـاء شرعيـة عـلى المذهـب الشـيعي وإدخالـه كمذهـب خامـس إلى جانـب باقـي المذاهـب الأربعـة الإسـلامية. وفسـحوا المجـال أمـام إقامـة طقـوس عاشـوراء الشـيعية وأعلنـوا عيـد الغديـر الشـيعي عيـدا رسـميا في البـلاد، وعمـروا أغلـب المشـاهد الشـيعية في كربـلاء والنجـف وسـامراء والكاظميـة وجعلـوا لهـا موقوفـات ماليـة لاسـتمرارية عملهـا، وأقامـوا مـدارس علميـة كثـيرة في مختلـف أنحـاء حكمهـم[98]. كـما كان للحكـم البويهـي أثـره الواضـح والكبـير في اتسـاع رقعـة التشـيع في داخـل إيـران وتـم دعـم علـماء الشـيعة بقـوة، بغيـة نـشر المذهـب في المناطـق الإيرانيـة المختلفـة. وتزامـن الحكـم البويهـي مـع بدايـة الغيبـة الكـبرى للإمـام الثـاني عـشر لـدى الشـيعة الإماميـة، وظهـور كبـار علـماء الشـيعة مـن أمثـال الشـيخ المفيـد والشـيخ الصـدوق وغيرهـم. وكان لهـؤلاء العلـماء الفضـل الأكـبر في تدويـن علـوم الشريعـة والعقيـدة الشـيعية. واسـتفاد هـؤلاء الأعـلام مـن أجـواء الحريـة العلميـة والفكريـة المهيـأة مـن قبـل البويهيـين لهـم، وهنـاك شـواهد تاريخيـة كبـيرة تـدل عـلى

(94) حيـث كانـت إيـران مقسـمة بـين البويهيـين والسـامانيين المسـيطرين عـلى المناطـق الشرقيـة في إيـران وكانـت موصـل وديـار بكـر تحكـم مـن قبـل الحمدانيـين الشـيعة ومـصر والشـام تحكـم مـن قبـل الفاطميـين والأندلـس تحكـم مـن قبـل بقايـا الأمويـين. عبـد الرفيـع حقيقـت: مصـدر سـابق، ص 291.

(95) المصدر نفسه: ص 291.

(96) المصدر نفسه ص 293.

(97) كلود كاهن: مصدر سابق، ص 12 ص 13.

(98) المصدر نفسه: ص 15.

أن انتقال البويهيين من المذهب الزيدي إلى المذهب الإمامي الاثني عشري تم بتأثير تعاليم هؤلاء العلماء.[99]

كانت المناطق الشرقية في إيران خارج سيطرة البويهيين وظلت تتداول بين السامانيين والغزنويين السنة، حتى تمكن السلطان محمود الغزنوي من دحر السامانيين والاستيلاء على شرق إيران بكاملها، ومن جهة أخرى كان للخليفة العباسي مراسلات مع السلطان محمود المتعصب مذهبيا لأجل تحريضه على محاربة البويهيين وإضعافهم، بغية إنقاذ الخلافة السنية من طوق الحكم البويهي الشيعي، وبالفعل تمكن السلطان محمود من احتلال ري إحدى العواصم الثلاث للبويهيين، و من أهم معاقل التشيع في مركز إيران، وقتل الآلاف من الشيعة والمعتزلة وحرق مكتباتهم العامة عام (420هـ) [100]، ولكن في أواخر القرن الرابع الهجري برزت قوة سنية أخرى وهم الأتراك السلاجقة المنحدرون من شمالي آسيا الوسطى إلى بلاد ما وراء النهر، ومن ثم إلى شرق إيران. وقد تمكن السلاجقة من سحق الجيش الغزنوي عام (429هـ) والسيطرة التامة على خراسان في عام (431هـ) بقيادة ملكها الأول طغرل بك السلجوقي. وطالب طغرل من الخليفة العباسي أن يعترف بشرعية دولته الفتية، واستغل الخليفة ذلك فطلب من طغرل القضاء على دولة البويهيين الشيعة واحتلال بغداد لإنقاذ الخلافة، وهذا ما حصل في عام (447هـ) وبهذا الاحتلال انتهت الدولة البويهية الشيعية بعد سيطرتها التامة على أغلب الأراضي الإيرانية والعراق [101]، إن انتهاء الدولة البويهية الشيعية كان له الأثر الأكبر في أتباع المذهب الشيعي بفرقه المختلفة، حيث كان السلاجقة يحملون تعصبا مذهبيا سنيا ويرون أنفسهم ملزمين بالقضاء على التشيع، وكانوا يرون أن مكانتهم عند الحكام العباسيين رهينة بمحاربتهم للفرق الشيعية التي لم تعترف بالحكومة العباسية. واستمرت الدولة السلجوقية من (429هـ) إلى (590هـ)[102].

ثالثا: الحكومات الشيعية الأخرى في إيران

إن سقوط الدولة البويهية على يد السلاجقة الترك، وتعاقب حكام بينهم المتشدد مذهبيا والمتساهل في أحيان أخرى، كان قد أبعد الشيعة بفرقها المختلفة من الواجهة السياسية، ومن إمكانية تأسيس دول شيعية جديدة وانحصر نشاطهم السياسي بالعمل المتستر في بلاط بعض السلاطين وتحت ستار إخفاء العقيدة. ولكن احتفظت المناطق الشيعية التقليدية في شمال إيران وشرقها وبعض المدن المركزية بنشاط الشيعة الفكري والعقدي[103]. ولكن سقوط إيران على يد المغول واحتلالها الكامل من قبلهم وما تلاه من سقوط بغداد والخلافة العباسية عام (656هـ) على يد هولاكو، أدخل تاريخ إيران والمسلمين عموما في مرحلة جديدة، زادت فيها الانقسامات وتشتت أوصال الأراضي الإسلامية[104].

---

(99) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص 195 ص 196 ص 197.

(100) المصدر نفسه: ص 198.

(101) د. محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق، دار النفائس، بيروت 2010م، ص 5 ص 6.

(102) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص 201 ص 307.

(103) المصدر نفسه: 307 ص 308 ص 309.

(104) د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج 2 ص250 ص 273.

وعومل المسلمون بكل فرقهم في بداية هجوم المغول معاملة قاسية وأحرقت المدن الإسلامية والمرافق العامة و تعرض الناس إلى القتل والتعذيب بسبب همجية القائد المغولي الفاتح، الذي لم يكن يحتل الأراضي لأسباب دينية بل لأغراض توسعية بهدف السيطرة على أكبر مساحة جغرافية ممكنة، ولكن ما إن تمركز أبناء الفاتحين واستقروا في المدن حتى بدؤوا يميلون للإسلام وينتمون إليه، وهذا ما أفسح المجال للحراك العقدي والفكري بحرية كبيرة، وأسقط كفة رجحان مذهب على مذاهب أخرى، كما كان في العهد العباسي، ولذلك شهد التأريخ انتماء بعض السلاطين المغول إلى المذهب السني، وآخرين منهم إلى المذهب الشيعي، وكان الطابع العام لهؤلاء السلاطين طابع التسامح والتساهل مع عموم الفرق الإسلامية[105].

ولكن في أواخر العهد المغولي ولأسباب سياسية واقتصادية عدة، أهمها الخلافات الداخلية بين السلاطين وفرض الضرائب الباهظة وجور الولاة على الناس، نشبت انتفاضات شعبية واسعة في إيران، كان من أهمها ثورتان شيعيتان في شرقها وجنوبها، أفضتا إلى تأسيس دولتين شيعيتين هما الدولة السربدارية الفارسية، والدولة المشعشعية العربية.

أ: الدولة السربدارية:

في سنة (735هـ) ظهرت انتفاضة شعبية شيعية في خراسان شرق إيران ضد حكومة المغول، باسم السربدارية أي «الثوار الفدائيون»، أصحاب الرؤوس المستعدة للذهاب إلى المشانق، بقيادة شيخ خليفة من أهالي طبرستان. وكان أنصار الانتفاضة ينتمون إلى التشيع الاثنى عشري وتمكنوا من دحر الجيوش المغولية وطرد ولاتها من خراسان وتأسيس دولتهم الشيعية على أنقاضها، وجعلوا مدينة نيسابور عاصمة لدولتهم[106]. واستمرت الدولة السربدارية من عام (737هـ) حتى عام (788هـ) مسيطرة على أغلب أجزاء خراسان. [107]

ب: الدولة المشعشعية

تأسست الدولة المشعشعية على يد السيد محمد بن فلاح المشعشعي [108] في جنوب إيران والعراق عام (840 هـ). واستمرت إلى ما بعد الدولة الصفوية والحكومات المتعاقبة من بعدها. جعل السيد محمد من مدينة الحويزة عاصمة لدولته وكان من أتباع المذهب الشيعي الاثني عشري ومتهما بالغلو[109] وادعاء المهدوية، وهذا ما لم يثبت حيث أن لديه كتابا وحيدا هو كتاب كلام المهدي

---

(105) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص391 ص474.

(106) د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج 2 ص 337.

(107) المصدر نفسه: ج2 ص 343.

(108) هو السيد محمد بن فلاح بن هبة الله ويصل نسبه إلى السيد محمد بن إبراهيم المجاب بن محمد العابد من أبناء الإمام موسى بن جعفر الكاظم سابع الأئمة الاثني عشرية، ولد عام 804هـ في مدينة واسط جنوب العراق وانتقل في بداية شبابه إلى مدينة الحلة وتتلمذ على يد الفقيه الشيعي الإمامي الشيخ أحمد بن فهد الحلي وتوفي عام 870 هـ وهو أميرا على إمارة المشعشعيين. وجاءت تسمية المشعشع لجمال وجه السيد محمد وكان يقال يشع النور من وجهه. د. محمد حسين الزبيدي: إمارة المشعشعيين، مركز دراسات عيلام، دار الحرية، بغداد، 1982م، ص 7 ص 12 وعباس العزاوي: تأريخ العراق بين الإحتلالين، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2004م، ج3 ص 111.

(109) عباس العزاوي: المصدر نفسه، ج3 ص 120.

ويدعـي فيـه بأنـه نائـب الإمـام الغائـب[110].

يعتقـد الباحـث الإيـراني د. رنجـبر بـأن الدولـة المشعشـعية تعتـبر السـباقة في نـشر المذهـب الشـيعي الإمامـي مـن نظيرتهـا الصفويـة وأن دورهـا في نـشر التشـيع والتمهيـد لاعتبـاره المذهـب الرسـمي لإيـران مهـم جـدا، وإن مـا تمثلـه الدولـة المشعشـعية في الجانـب الشـيعي هـو الإسـلام الشـعبي الميـال للتصـوف أكـثر مـما هـو تشـيع في إطـار العقيـدة والشريعـة الشـيعية التقليديـة، وهـذا مـا اتسـم بـه الصفويـون في بدايتهـم. ويمكـن إرجـاع جـذور هـذه العقيـدة إلى تتلمـذ السـيد محمـد فـلاح عـلى يـد الفقيـه الشـيعي الصـوفي ابـن فهـد الحـلي، ولـذا تركـت ممارسـات وطقـوس المشعشـعيين انطباعـا بأنهـم مغالـون وخارجـون عـن الاعتقـاد السـليم[111].

لقـد توسـعت الدولـة المشعشـعية في زمـن أبنـاء السـيد محمـد، عـلي ومحسـن حتـى شـملت أراضي شاسـعة مـن العـراق، منهـا البـصرة و واسـط والنجـف والحلـة و مناطـق شرق الحجـاز، أي الأحسـاء والقطيـف، فضـلا عـن أغلـب مناطـق إيـران الجنوبيـة، مـما جعلهـم عرضـة لأطـماع الدولتـين العثمانيـة والصفويـة وبالفعـل تـم اسـترداد الأراضي العراقيـة منهـم مـن قبـل العثمانيـين، واحتـل شـاه إسـماعيل عـام (914هــ) الدولـة المشعشـعية في جنـوب إيـران وعـين أمـيرا مـن جانبـه، ولكـن ثـورة العشـائر العربيـة جعلتـه يرضـخ إلى إرجـاع الأمـير المشعشـعي وإعطـاء الإمـارة حكـما ذاتيـا في ظـل الحكـم الصفـوي. [112]

المطلب الرابع

الخارطة المذهبية لإيران في القرن الثامن الهجري

إن الخارطـة المذهبيـة في إيـران مـا قبـل الصفويـة تشـير إلى أن الغلبـة العدديـة للمذهـب السـني كان واضحـا فيهـا، ولم تكـن إيـران شـيعية بالمصطلـح العقائـدي التقليـدي، ولكـن لهـذا التسـنن الغالـب والمعتدل خصوصيـات سـاعدت ومهـدت لظهـور المذهـب الشـيعي إلى السـطح، وانتشـاره بسرعـة كبـيرة في ظـل الدولـة الصفويـة كـما سـيأتي ذكـره[113]. إن مـن أفضـل الكتـب التـي بينـت الخارطـة المذهبيـة في إيـران كتـاب نزهـة القلـوب لحمـد اللـه المسـتوفي، وهـو مصنـف في علـم الجغرافيـا، ويبـين فيـه مذهـب كل مـن المـدن الكبـيرة في إيـران.

يوضح الجدول الآتي الخارطة المذهبية لإيران في القرن الثامن الهجري : [114]

---

(110) د. محمد على رنجبر: نهضت شيعي مشعشعيان، گفتگو با روزنامه همشهری، شنبه 20 دی 1382شماره 3278.

(111) المصدر نفسه.

(112) د. محمد حسين الزبيدي: مصدر سابق، ص14 ص16.

(113) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص489.

(114) المصدر نفسه ص485 ص456.

المدينة	المذهب	الصفحات
أصفهان	سنة شافعية	49
الري	سنة حنفيون وأكثر ضواحيها من الشيعة الإمامية	45
قزوين	سنة شافعية وفيهم أقلية حنفية وشيعية	57
طهران	شيعة اثنا عشرية	55
ديلم	شيعة وباطنية	60
زنجان	سنة شافعية	62
ساوة	سنة شافعية وقراها كلها شيعة اثنا عشرية	62-63
سجاس	سنة حنفية	64
سهرورد	سنة حنفية	64
الطالقان	يزعمون أنهم سنة ولكنهم أقرب للباطنية	65
كاغذ كنان	سنة شافعية	65
مزدقان	سنة شافعية	65
قم	شيعة اثنا عشرية	67
كاشان	شيعة اثنا عشرية وقراها سنية	68
تفرش	شيعة اثنا عشرية	68
جربادقان (كلبايكان)	سنة شافعية	68
فراهان	شيعة اثنا عشرية	69
همدان	سنة معتزلة ومشبهة	71
نهاوند (أكراد)	شيعة اثنا عشرية	74
يزد	سنة شافعية	74
تبريز	سنة شافعية وأعداد كبيرة من المذاهب الأخرى	77
اوجان	سنة شافعية	80
أردبيل	سنة شافعية يحبون الشيخ صفي الدين (جد مؤسس الدولة الصفوية)	81
شاهرود	سنة شافعية	82
مشكين	سنة شافعية وفيهم شيعة وحنفية	83
أهر	سنة شافعية	83
سلماس	سنة	85
مراغة	سنة حنفية	87
نخجوان	سنة شافعية	89
تستر	سنة حنفية	110
شيراز	سنة شافعية وفيهم حنفية وشيعة	115
كازرون	سنة شافعية	126
بيهق	شيعة اثناعشرية	150
جوين	سنة شافعية	150
جرجان	شيعة	159

المطلب الخامس
التصوف والتشيع في إيران

كما مر في المطلب الرابع فإن من أهم أسباب انتشار وتوسع المذهب الشيعي وصولا إلى اعتباره المذهب الرسمي للدولة الصفوية كان هو شيوع الاعتدال السني المنحاز إلى التصوف، والمبتعد عن الخلافات المذهبية والمتمايل نحو التوحد والاقتراب من الأفكار الدينية المختلفة. ولذلك فمن الأهمية دراسة تطور التصوف في إيران وأسباب هذا التطور الذي تمكن في نهاية المطاف من إيصال إحدى فرقه وهي الطريقة الصفوية إلى سدة الحكم. لكلمة التصوف تعاريف مختلفة وكثيرة ولكن يمكن اختصاره في أن الباحثين ذكروا بأن التصوف مشتق من كلمة صفة، وهو مسكن فقراء المدينة وزهادها في زمن الرسول (ص)، وكانت زاوية من زوايا المسجد النبوي. وقيل بأنها مشتقة من كلمة الصوف وهو لباس خشن كان يعتاد الزهاد المتنسكون على ارتدائه، وقيل إنها معربة لكلمة سوفيا اليونانية و تعني العلم والوصول إلى الحقيقة[115]. وعلى كل حال فإن المنتسبين إلى التصوف عرفوا منذ بدايات العهد الإسلامي، على أنهم مجموعة من المسلمين زهدوا في الحياة الدنيا وتفرغوا للعبادة والرياضات النفسية بغية الوصول إلى الحق والقرب من الله، واعتزلوا أمور الناس السياسية والاقتصادية[116]. ويذكر المؤرخون الإيرانيون بأن دخول التصوف إلى إيران كان مع بدايات القرن الرابع الهجري، وبدأ بالظهور كفرقة ومذهب من المذاهب الإسلامية ممزوجا بثقافات فارسية وهندية ويونانية قديمة كانت تتفق مع تقاليد المتصوفة في التأكيد على الانعزال، والعبادة والتفرغ من أمور الدنيا، ولكنها جوبهت بمعارضة كبيرة من قبل العلماء وفقهاء الشريعة من مختلف المذاهب من الذين اعتبروا التصوف انحرافا عقائديا، يجب محاربته. وكانت ذروة هذه المحاربة في القرن الخامس الهجري عند سيطرة الأتراك السلاجقة على إيران وبسبب تعصبهم المذهبي الكبير لمذاهب التسنن[117]. لكن ضعف الدولة السلجوقية واجتياح المغول لإيران وفر مساحة حرية كبيرة للمتصوفة والمذاهب الأخرى في نشر عقائدها، وبدأ التصوف يمتاز باستقلاليته عن المدارس السنية التقليدية وبدأت ببناء مراكز تثقيفية خاصة لها سميت بالخانقاه [118]، وأخذت هذه الخانقاهات مكان المدارس، وهكذا بدأوا بجعل الطريقة في قبالة الشريعة المتبناة من الفقهاء و العلماء التقليديين، وبما أن أفكارهم كانت مرنة ومقبولة من عوام الناس لامتزاجها بالشعر والنثر والقصص تمكنوا من السيطرة على مساحات كبيرة في داخل الشعب الإيراني، بعد أن كانوا مشردين خارج المدن في الجبال والصحاري، وأصبحت لديهم سلسلة مراتب وتنظيم محكم.[119]

---

(115) غلام رضا إنصاف بور: مصدر سابق، ص 148.

(116) المصدر نفسه: ص149.

(117) المصدر نفسه ص149، و د. إحسان إشراقي و د. ناصر جديدى، تصوف إيراني قرن هفتم تا دهم هجرى بسترى براى تكوين نهفت صفويان، مجلة مسكويه، تهران، بهار 1385 هـ ش، پيش شماره 2 ص36.

(118) كلمة خانقاه معربة من كلمة خانكاه أو الخانكه الفارسية وهو مكان استقرار المتصوفة ومدرستهم التعليمية ومكان عبادتهم. د. محسن كياني: تاريخ خانقاه در ايران، انتشارات طهورى، تهران، 1389 هـ ش، چاپ سوم، ص55 ص63.

(119) د. إحسان إشراقي و د. ناصر جديدي: مصدر سابق، ص 37.

هناك أسباب كثيرة لشيوع التصوف في إيران، ولعل أهمها [120]ما يأتي:

1) المشاكل السياسية والاقتصادية في المجتمع الإيراني بسبب فوضى الحكم الذي تسبب به الاجتياح المغولي للبلاد، وتعطيل أكثر المرافق الاقتصادية فيها وشيوع الفقر بين الناس.

2) أمن الخانقاهات، حيث كان من أهم أسباب لجوء الناس إليها وإلى شيوخ الطرق الصوفية، فقد نظرت الحكومات إليهم بإجلال وتقدير لاعتزالهم السياسية والتفرغ للعبادة ومساعدة الناس.

3) شعار المساواة والأخوة الذي رفعه الصوفية.

4) تأمين الحاجات الاقتصادية للناس، حيث كانت الخانقاهات تستلم مبالغ وهدايا كبيرة من الحكومات في الطبقات الغنية، تقوم بتوزيعها بين الناس وكانت تضم مراكز لعلاج المرضى وكبار السن.

5) الهدوء النفسي، إذ كان الشعب الإيراني يعاني من أزمات نفسية حادة بسبب كثرة الحروب والمعاناة الاقتصادية، وكان الخانقاه يوفر لهم ملاذا آمنا وهادئا، يخفف من أزماتهم الروحية.

6) المطالبة بحقوق الناس وتظلماتهم، حيث استغل شيوخ الصوفية مكانتهم لدى الحكام في حل مشاكل الناس الحكومية، وإنقاذهم من العقوبات والضرائب الباهظة.

7) انتشار الخرافات بين الناس بسبب ثقافة المغول غير الإسلامية، والذين كانوا ينشرون أفكارهم الخرافية بين الناس.

8) كان لمقتل الكثير من العلماء وحرق المكتبات الإسلامية على يد المغول أن تسبب في فراغ علمي تمكن الصوفية من ملئه.

9) تزلزل عقائد الناس اتجاه شرعية حكومة الخلافة العباسية والمذهب السني الحكومي بسبب سقوطه على يد المغول.

10) النزاعات المذهبية الحادة بين المذاهب السنية في إيران مما تسبب في ردود أفعال لدى الشارع الإيراني، جعله يتقرب من الفكر الصوفي المتسامح والمرن.

ومن ناحية أخرى حصل تقارب كبير بين الطرق الصوفية والمذهب الشيعي، حيث كانت أغلب الطرق الصوفية تنسب طريقتها إلى أحد أئمة الشيعة الاثني عشرية، ومن خلالهم إلى الإمام الأول، الإمام علي بن أبي طالب(ع). وكان للأئمة مقام كبير في نفوس المتصوفة وحرص بعض شيوخهم على الانتساب إلى أحد الأئمة نسبيا، مما كان يزيد من إقبال الناس عليهم. ومن جهة أخرى كانت هناك مرتكزات عقائدية متشابه بين المتصوفة والشيعة، من أمثال العقيدة بولاية شيخ الطريقة وعصمته ونظام الوصية وعقيدة المهدي المنتظر والشفاعة والكرامات مما كان له الأثر الكبير في هذا التقارب.[121]

وجدير بالذكر بأن هذا التقارب لا يعني تشيع أصحاب الطرق الصوفية، بل كما هو مذكور في تراجم شيوخ هذه الطرق كان أغلبهم من أهل السنة والجماعة، ولم يكونوا متشيعين[122]. يعتبر الباحث الإيراني رسول جعفريان القرون التي مهدت لظهور الدولة الصفوية من حيث المذهب في إيران بأنها قرون سنية ممزوجة بالتشيع، ويعنونها بـ (التسنن الإمامي الإثني عشري)، ويعتقد بأن التصوف هو المسبب والركيزة الأساسية لمثل

---

(120) المصدر نفسه، ص 37 ص 38 ص 39.

(121) د. كامل مصطفى الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، منشورات الجمل، بيروت، 2011 م، ج2، ص 62 وص 63.

(122) السيد هاشم معروف الحسني: بين التصوف والتشيع، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2006م، ص 116.

هـذا الاعتـدال السـني والتقـارب مـع التشـيع[123]. ويـورد جعفريـان قائمـة كبـيرة مـن المؤلفـات ودواويـن الشـعر والآثـار المعماريـة والنقـوش التـي تؤكـد شـيوع التسـنن الإمامـي والميـل الإيـراني نحـو حـب آل البيـت في إطـاره الشـيعي العاطفـي والسـني الصـوفي منـذ بدايـة القـرن السـادس الهجـري، وحتـى القـرون الثامنـة والتاسـعة[124]. ولم ينحـصر النشـاط الصـوفي بفرقـه المتعـددة بالنشـاط العبـادي والفكـري لمـدة طويلـة، بـل كلـما اتسـع نطـاق أتباعـه وانتشـاره عـلى الأرض بـدأ الميـل نحـو العمـل السـياسي يظهـر فيـه. ويمكـن تسـمية الدولتـين الشـيعيتين السربداريـة والمشعشـعية التـي بـدأت مـن التصـوف في رحلتهـا إلى التشـيع نموذجـين بارزيـن لهـذا العمـل.

ومـن جهـة أخـرى هنـاك عـدة حـركات صوفيـة سياسـية مهمـة كان لهـا الأثـر الكبـير في ظهـور الدولـة الصفويـة، مـن المهـم الإشـارة إليهـا باختصـار، هـي:

أ: الحركـة الحروفيـة الصوفيـة: أسسـها فضـل اللـه الاسـترابادي [125] وكان يقـرن نفسـه في بدايـة أمـره بالنبـي محمـد (ص) وبالمسـيح (ع)، وكان يحـاول أن يقـود أمـة الفـرس عـن طريـق دينـي ضـد حكـم المتغلبـين المغـول. واسـتطاع أن يجمـع حولـه عـددا كبـيرا مـن الأنصـار والمريديـن، وبعـد اتسـاع نطـاق حركتـه مـزج بـين فكـرتي المهديـة الشـيعية والقطبيـة الصوفيـة، معلنـا عـن نفسـه بأنـه المهـدي المنتظـر بصـورة سريـة في عـام (786هــ) وتلقـى البيعـة مـن أنصاره الخاصـين، الذيـن لبسـوا الأبيـض عـلى رؤوسـهم وأبدانهـم في إشـارة إلى الكفـن واسـتعدادهم للتضحيـة، وتنقـل في المـدن الإيرانيـة المختلفـة للدعـوة إلى نفسـه ولكنـه قتـل بأمـر مـن السـلطان المغـولي تيمـور عـام (804هــ)، مـن دون تحقيـق ثورتـه. ولكـن الحركـة الحروفيـة لم تنتـه واسـتمرت إلى عـشرات السـنوات بعـد مقتـل زعيمهـا، واتسـع نطـاق أنصارهـا مـن الذيـن مزجـوا الفكـر الصـوفي بالفكـر الشـيعي المغـالي، واسـتخدموه سياسـيا للثـورة عـلى المغـول. ولم يقتـصر نطـاق عمـل الحروفيـة في إيـران بـل توسـع إلى العـراق والـروم والشـام، حيـث حصلـت الحركـة عـلى أتبـاع كـثر فيهـا. والمهـم في الحركـة الحروفيـة هـو امتدادهـا في الفـترة الأولى مـن الدولـة الصفويـة تحـت مسـميات أخـرى، مـما يؤكـد مدى انتشـار الحركـة وتأثيرهـا في الشـارع الإيـراني مـن الناحيتـين القوميـة والدينيـة [126].

ب) حركـة النعمـة الإلهيـة الصوفيـة: أسسـها السـيد نعمـة اللـه الـولي[127] في عـام (762هــ) وفي ظـل حكومة السـلطان المغـولي تيمـور، واتسـع نطـاق أتباعـه بشـكل كبـير حتـى دخـل الكثـير مـن المغـول في طريقتـه، مـما تسـبب في قلـق لتيمـور الـذي قـال فيـه: لا يمكـن اجتـماع ملكـين في بلـد واحـد، مـما يـدل عـلى مكانـة الرجـل وكـثرة أتباعـه. وقـد أجـبرت المضايقـات السياسـية السـيد نعمـة اللـه عـلى الانتقـال المسـتمر بـين المدن الإيرانيـة. ومـن الناحيـة المذهبيـة كان نعمـة اللـه سـنيا و كـما ورد في ديـوان أشـعاره (لسـت رافضيـا)، أي ليـس معتقـدا بالعقائـد الشـيعية التقليديـة، ولكنـه بحسـب تعبـير الدكتـور الشـيبي شـيعي عـلى الاصطـلاح الشـامي، أي محـب لآل عـلي ومبغـض لأعدائهـم خاصـة مـن بنـي أميـة ويجـوّز لعـن أعـداء عـلي[128].

---

(123) رسول جعفريان: مصدر سابق، ص 487 ص 489.

(124) المصدر نفسه: صص 488..496.

(125) هو فضل الله بن عبد الرحمن الحسيني، ولد في أستراباد عام 740 هـ من اسرة صوفية. د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص 155.

(126) المصدر نفسـه: ج2 ص 156..159. وعبـد الرفيـع حقيقـت: مصـدر سـابق، ج3 ص 1118 ص او9111، ولمراجعـة عقائـد الحركـة الحروفيـة وتأثيرهـا القومـي في الإيرانيـين راجـع: كلمنـت هـوارت سر: مجموعـه رسـائل حروفيـة، انتشـارات مولـى، تهـران، 1360 ش.

(127) نعمـة اللـه صـوفي علـوي يتصـل نسـبه بالإمـام عـلي بـن ابي طالـب عـن طريـق إسـماعيل بـن الإمـام الصـادق، ولـد في حلـب بسـوريا ونـزح إلى إيـران حيـث كانـت أمـه فارسـية سـنة 731م. د. كامـل مصطفـى الشـيبي: مصـدر سـابق، ج 2 ص215 ص216

(128) المصدر نفسه: ج2 ص 219.

توفي السيد نعمة الله عام (834هـ) عن عمر يناهز الـ (100) عام. واستمرت حركته من خلال تلامذته وأبنائه الذين تحولوا فيما بعد إلى التشيع الاثني عشري في زمن الدولة الصفوية[129].

ويعتقد بأن الطريقة الصفوية التي أفضت إلى تأسيس الدولة الصفوية هي وريثة الطريقة النعمة الإلهية، وقد حملت في طياتها الكثير من الاعتقادات والأعراف وتقاليد هذه الطريقة وذكر أصحاب الطريقة النعمة الإلهية في كتبهم بأن السيد نعمة الله تنبأ بظهور إسماعيل الصفوي وتأسيسه لدولته [130].

نتائج الفصل الأول

للانتقال من الفصل الأول وهو طبيعة الهوية المذهبية في إيران ما قبل الصفوية إلى الفصل الثاني في تأسيس الدولة وتغير الهوية المذهبية إلى المذهب الشيعي الاثني عشري، يستحسن ذكر نقاط هامة هي:

1) الشعب الإيراني منذ إسلامه عقب الفتح الإسلامي لم يكن غريبا على المفاهيم والمعتقدات الشيعية بتياراته المختلفة وكما مر بنا فإن الإيرانيين شاركوا في عدد كبير من الثورات الشيعية بقيادة الشيعة العرب وزعماء العلويين في زمن بني أمية وبني العباس ولذلك يفند هذا السير التاريخي الأقوال التي اعتبرت التشيع في زمن الصفويين مذهبا دخيلا وغريبا عن الشعب الإيراني.

2) التيار الشعوبي الإيراني بشقيه الإسلامي الإصلاحي والقومي الفارسي كان لهم الأثر الكبير في الثورات الشيعية وغيرها كثورات الخوارج على اعتبارها ثورات إصلاحية بالنسبة للإسلاميين منهم وثورات قومية بالنسبة للقوميين منهم، بغية استقلال إيران وإعادة أمجاد الشعب الإيراني تحت لواء الإسلام أورجوعا إلى الديانة الزرادشتية القديمة، مع ملاحظة أن الأخيرة لم توفق في أهدافها وكتب التوفيق للإيرانيين المسلمين. وهذه المساعي الوطنية يجب ألا تستبعد تأثيراته في التقارب الإيراني من المذاهب المعارضة للحكومات الإسلامية المضطهِدة للشعب الإيراني كبني أمية، وعلى رأس هذه المذاهب هو المذهب الشيعي.

3) المذهب العام في إيران قبل الصفوية هو المذهب السني الممزوج بالأفكار الصوفية المقاربة للعقائد الشيعية، وإن تشيع الإيرانيين لم يكن تشيعا تقليديا بل تشيعا عاطفيا مما يستبعد الأقوال التي اعتبرت السبب الرئيس للتحول المذهبي في إيران هو تأثير حملات الشاه إسماعيل الصفوي الدامية التي أجبرت الإيرانيين في كل مناطق إيران على اعتناق المذهب الشيعي، بل إن من أهم أسباب انتشار وتوسع المذهب الشيعي وصولا إلى اعتباره المذهب الرسمي للدولة الصفوية كان هو شيوع الاعتدال السني المنحاز إلى التصوف.

4) إن الشيعة كانوا متواجدين في إيران، وموزعين في عدد من المدن الإيرانية في القرن الثامن الهجري قبيل ظهورالدولة الصفوية، فكان لهم تواجدهم في الري وقزوين وطهران وديلم وساوة وقم وكاشان وفراهان ونهاوند وتبريز ومشكين وشيراز. هذا إلى جانب المذاهب السنية المعتدلة كالشافعية والحنفية فضلا عن الباطنية.

---

(129) المصدر نفسه: ج2 ص 220.

(130) عبد الرفيع حقيقت: مصدر سابق، ج3 ص1115.

الفصل الثاني

طبيعة الهوية المذهبية في إيران ما بعد الصفوية

المطلب الأول

الأسرة الصفوية

تأسست الدولة الصفوية في عام (907هـ / 1501م) على يد الشاه إسماعيل الصفوي أول ملوكها، في مدينة تبريز الإيرانية، والتي أعلن فيها عن المذهب الشيعي الإمامي الاثني عشري مذهبا رسميا للدولة، والصفوية نسبة إلى إحدى الأسر ذات المكانة الكبيرة في الوسط الشعبي الإيراني، والتي تمكنت بعد صراع طويل وجهود جبارة اشترك فيها الأبناء خلفا للآباء، من تأسيس أول دولة مركزية إيرانية بعد ثمانية قرون من الفتح الإسلامي، وتثبيت دعامة حكم سلالة حكمت إيران لأكثر من قرنين من الزمن.

أولا: الشيخ صفي مؤسس الطريقة الصفوية:

أ) نسب الأسرة:

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي (650هـ - 736هـ / 1252م - 1334م) الجد الخامس للشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة، ومن هذا الاسم صفي الدين، أخذت السلالة اسمها السلالة الصفوية، ويصل مؤرخو عصره نسبه إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) سابع الأئمة الإمامية من ناحية الأب، في حين يشكك بعض المؤرخين في صحة هذا النسب ويعتقدون باختلاقه من قبل أحد مريدي الشيخ صفي، وهو مؤلف كتاب (صفوة الصفا) ابن بزاز الأردبيلي المعاصر للشيخ، فثمة اعتقاد بأن الشيخ أو ابنه صدر الدين[1] هو من كلف ابن بزاز بوصل نسبه إلى آل البيت (ع)، مقتديا بشيخه تاج الدين إبراهيم الجيلاني ولرواج ظاهرة الانتساب في زمن الإيلخانيين المغول، نظرا لارتفاع نجم العلويين في زمانهم.[2]

وما يلفت الانتباه أن مسألة نسب الصفويين من أبرز النقاط المثارة من قبل المؤرخين والباحثين في شؤون هذه الأسرة، ولكل من المؤيدين والمعارضين لمسألة انتساب الصفويين إلى آل البيت (ع) أدلة وحجج، ولكن ما يهمنا في البحث هو النقطة المثارة بأن هذا الانتساب إن صح أو اختلف، كان سببه إضفاء الشرعية لحكم الصفويين استنادا إلى أحقية الخلافة وحصرها في قريش، وفي اعتقاد الباحث بأن رأي الطرفين في هذه النقطة بالذات بعيد عن الصواب على اعتبار أن المذهب الشيعي الإمامي المتبنى من قبل الصفويين لا يعتقد بحصر الخلافة في قريش كعشيرة بل يذهب إلى إمامة وشرعية خلافة الأئمة المنصوص عليهم من بني هاشم إحدى فروع قريش، وفي عدد محدود منهم وليس جميع بني هاشم. ولذا مسألة الانتساب إلى قريش أو كون النسب علويا أو هاشميا لا يضفي أية شرعية دينية في الخلافة لصاحبها. وإن الاجتهادات الفقهية في صفات الإمام الشرعي هي محل جدال بين المذاهب السنية، حيث يذهب البعض إلى وجوب النسب القرشي و ينفي البعض الآخر وجوب هذا الشرط [3].

---

(1) يذهب الدكتور محمد طقوش إلى إمكانية اختلاق النسب العلوي للصفويين بأمر من الشيخ صفي ويخالفه في ذلك المؤرخ الإيراني أحمد كسروي الذي ذهب بالقول إلى اختلاق النسب بأمر من نجل الشيخ صفي الشيخ صدر الدين. قارن أ. د. محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس، بيروت، 2009 م، ص 35 واحمد كسروي: شيخ صفي وتبارش، انتشارات مهر، تهران، 1996م، ص 60 .

(2) ا. د. محمد سهيل طقوش: المصدر نفسه، ص35.

(3) راجع: أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي السني نحو خلافة ديمقراطية، مؤسسة الانتشار العربي بيروت، 2008م، ص 141 ص 142 ص 143.

وما يمكن إضافته في مسألة النسب هو إمكانية الاستفادة منه في حال صح الاختلاق، بأن المجتمع الإيراني عموما كان يحترم المنتسبين إلى الأئمة على اعتبارهم ذرية رسول الله (ص) ويجلّون العلويين ويحتضنون هؤلاء المنتسبين باحترام وتقدير كبيرين [4].

ب) أصول الأسرة العرقية

وأما المسألة الثانية التي أثيرت حول الصفويين فهي مسألة أصولهم العرقية، فهل كانوا أتراكا أو من أصول كردية آرية؟ وإذا صح الأخير فهذا ينفي عنهم صحة الانتساب إلى آل البيت(ع). وعلى كل حال فإن المصادر القديمة تؤيد الأصل التركي للصفويين، ويستدل على ذلك بوجود أشعار تركية نقلت في دواوين الشيوخ الصفوية، ولكن تظهر الدراسات الحديثة بأن أصول الأسرة ترجع إلى كردستان إيران وانتقلت منها إلى أذربيجان في القرن الخامس الهجري واندمجوا مع المجتمع التركي في مدينة أردبيل التي كانوا يسكنون فيها[5]. ويعتقد الأستاذ محمد طقوش بأن الذين أرجعوا أصول الصفويين إلى الآريين الكرد إنما هدفوا إلى تأكيد دور الصفويين في بعث القومية الإيرانية التي ظهرت على أيديهم[6].

ويمكن إضافة الملاحظات الآتية: وهي أن تلك الدراسات المتعلقة بأصل الأسرة الصفوية بحثت جذور الأسرة من القرن الخامس الهجري فصاعدا، وذلك إن دل على صحة أي من نسبة الأصلين فإنه لا يتنافي مع احتمالية سيادة الأسرة الصفوية وانتسابهم العلوي، حيث كما مر ذكره في الفصل الأول فإن الهجرة العلوية إلى إيران بدأت منذ أواخر القرن الأول الهجري، تصاعدت في أواسط القرن الثاني بشكل لافت للنظر، وطبيعة المناطق الكردية والتركية في إيران من حيث إنها مناطق جبلية منعزلة، لا تتنافى مع كون احتمالية انتقال أجداد الأسرة من المناطق العربية إلى داخل إيران، للابتعاد عن القمع الأموي والعباسي الذي مورس بحقهم. والملاحظة الثانية هي أن الدراسات التاريخية تشير إلى اندماج الأسر والعشائر العربية في المجتمع الإيراني وتخليها عن الرجوع إلى مناطقها الأصلية بعد انتفاء الخطر وتقبل المجتمع الإيراني لهذه الأسر، واعتبارها أسرا إيرانية منصهرة في المجتمع، وتعتقد بصحة انتسابها إلى البلاد بعد انقضاء مدة طويلة على إقامتها [7]-[8].

ج) مذهب الأسرة وطريقتها:

المسألة الثالثة التي أثيرت حول الشيخ صفي الدين هو انتماؤه المذهبي، هل كان شيعيا أو سنيا؟ وإذا لم يكن شيعيا فمنذ متى بدأت الأسرة تميل نحو التشيع وتدين به؟ وما هي خصائص الطريقة الصفوية

(4) لمقارنة الآراء المؤيدة والمعارضة لصحة انتساب الصفويين إلى آل البيت قارن بين طالب محيبس الوائلي: رسالة دكتوراه إيران في عهد الشاه إسماعيل، جامعة بغداد، كلية الآداب، 2007م بإشراف أ. د. كمال مظهر أحمد صص 13-27 وأحمد كسروي: مصدر سابق، صص 63-70.

(5) أنظر: راجر سيوري وآخرون: مصدر سابق، ص 66 ص 67. و د. حسن كريم الجاف : مصدر سابق، ج3 ص 14.

(6) أ. د. محمد سهيل طقوش: مصدر مسابق، ص 36.

(7) نظر: رسول جعفريان؛ مصدر سابق، ص 156، ص 163.

(8) ويمكن إضافة ملاحظة بأن إيران إلى يومنا هذا تعتبر السادة العلويين القاطنين في إيران لمدة طويلة جزءا من الشعب الإيراني ويحق لهم ما يحق لغيرهم، ولذلك نرى أن مؤسس الجمهورية الإسلامية هو السيد روح الله الموسوي الخميني وقائد الثورة هو السيد علي الحسيني الخامنائى الذي تولى رئاسة الجمهورية قبل توليه منصب القيادة وينص الدستور الإيراني في المادة 115 في شروط المرشح للرئاسة أن يكون إيراني الأصل ويحمل الجنسية الإيرانية .ونرى إن هذه الأصالة الإيرانية المذكورة في الدستور لا تتنافى مع كون الشخص علويا من جذور عربية. النص الكامل الدستور الجمهورية الإسلامية: ومؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، طهران،1431هـ ق، ص 65.

الصوفية التي أسسها الشيخ صفي وتوارثها أبناؤه؟ إن المصادر التاريخية تشير إلى أن الشيخ صفي ولد في أسرة صوفية عريقة، كانت تمتهن الزراعة والدهقنة، وكانت تعتبر من الأسر الثرية. ولكنها لم تتبع طريقة بذاتها بل كان آباء[9] الشيخ صفي يتنقلون بين الفينة والأخرى، وخاصة عند نشوب نزاعات دينية أو سياسية وبسبب الظروف الأمنية الصعبة، بين المدن الإيرانية المختلفة وينضوون تحت لواء إحدى الطرق الصوفية. وعند زوال الخطر يرجعون إلى محل سكناهم في أردبيل ويزاولون أعمالهم الزراعية.[10]

وتذكر المصادر بأن الشيخ صفي وعقب وفاة والده الذي خلف وراءه ثروة كبيرة ووجاهة اجتماعية، آثر على نفسه وفي سنوات الشباب السفر لتلقي العلوم الصوفية، وتنقل بين المدن الإيرانية، باحثا عن أستاذ يتتلمذ على يده. وبعد رحلة طويلة تمكن من الوصول إلى أحد أشهر شيوخ الصوفية في زمانه وهو الشيخ زاهد الكيلاني[11]، المقيم في مدينة كيلان شمال إيران. وقبل الشيخ زاهد صفي الدين تلميذا له ولم يمض الكثير من الوقت حتى أصبح الشيخ صفي اليد اليمنى للشيخ زاهد، الذي زوجه ابنته فاطمة وتنبأ له بشأن كبير في المستقبل. وقد تسلم صفي الدين مشيخة الكيلاني سنة (700هـ/1301م) عقب وفاة الأخير عن عمر يناهز الـ (85 سنة)، لفضله ومكانته المشهورة لدى الشيخ.[12]

ويعتقد الباحث العراقي الدكتور كامل الشيبي أن تزويج الكيلاني ابنته للشيخ صفي على اعتباره شابا تركيا وتوريث مشيخته له مع ما يحمله صفي الدين من وجاهة وثروة تعتبر إيذانا ببداية طراز جديد من التصوف القائم على الأرستقراطية والثروة[13]

ورث الشيخ صفي من شيخه الكيلاني (100) ألف من الأنصار والمريدين في كيلان ولكنه قرر أن ينتقل إلى مدينته أردبيل لتأسيس مشيخته الخاصة به والمسماة بالطريقة الصفوية، وحصل على مكانة كبيرة في تلك المدينة وبين سكان القرى التركية المجاورة، وكان يحاول دوما أن يكسب حب السكان وإنقاذهم من عسف السلاطين حتى نصبه الترك زعيما روحيا لهم ولقبوه بالملك الأخروي (بادشاه أخروي). وكانت له مكانة كبيرة لدى السلاطين حتى أرسل بعضهم أبناءه للتتلمذ على يد الشيخ صفي وكانت له كلمة على الناس يستطيع من خلالها فض المنازعات التي تثور بين سكان القرى. وكان يستثمر ثروته الكبيرة في جمع الأنصار والمريدين حتى باتت أعدادهم تخيف الحكام وتهيبهم منه[14].

---

(9) لمعرفة نبذة عن آباء الشيخ صفي ومكانتهم الاجتماعية أنظر: أ.د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 38 ص 39 ص 40.

(10) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 28 ص 29 ص 30.

(11) الشيخ زاهد: تاج الدين إبراهيم بن روشن أمير بن بابل بن الشيخ بندار الكردي السنجاني الگيلانى الحنفي، ذكر ابن بزاز نسبه وقال انه يصل الى الشيخ جنيد البغدادي، ولد في قرية سيا ورود گيلان سنة 615هـ/ 1219م، تتلمذ على يد الشيخ جمال الدين الكيلاني (حفيد جنيد البغدادي)، كان يعيش من كد يده بزراعة الرز، على الرغم من أنه كان أبرز زعماء التصوف في زمنه، اكتسب ثقة غازان شاه خان المغول (703-694هـ/ 1295 - 4-1303م) وسلب لبه حتى اشتهر بين الناس بتقبيل قدمي الشيخ، لقب بتاج العلماء والزاهد، تتلمذ عليه كل من صفي الدين وتاج الدين التبريزي. توفي في رجب 700هـ/ آذار 1301م. المصدر نفسه: نقلا عن صفوة الصفا لابن بزاز الأردبيلي.
(1) انظر الملحق رقم (1) لرؤية مقبرة الشيخ زاهد الجيلاني في قرية شيخانه ور في مدينة لاهيجان شمال إيران.

(12) المصدر نفسه: ص 33 ص34.

(13) د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج 2 ص 348.

(14) المصدر نفسه: ج2 ص 348 ص 350 ص 351.

أما من الناحية المذهبية فتذكر الدراسات التاريخية بأن الشيخ صفي كان يتبع المذهب الشافعي السني، علما بأن أستاذه الشيخ زاهد الكيلاني كان يتبع المذهب الحنفي السني. و مع ذلك لا توجد إشارات في كتب و أشعار و سيرة الشيخ صفي تدل على تشيعه أو الدعوة إليه [15]

ولكن يشير البحث المعد من جامعة كمبريدج حول الصفويين بأن الشيخ صفي لم يكن شيعيا ولكنه لم يكن أيضا مقيدا بالعقائد السنية التقليدية، ومنشأ الشكوك في مذهبه يرجع إلى التقارب الكبير بين العقائد الشافعية والشيعية من جهة وبين التصوف نفسه والتشيع من جهة أخرى، وهذا ما لا يروق للعلماء السنة التقليديين بحسب الدراسة. وتذكر الجامعة في بحثها بأن شيوع التصوف، أو ما تسميه بالإسلام الشعبي، كان من أهم معالم الطريقة الصفوية وكان لها الأثر الكبير في نشأة خلفاء الشيخ صفي من أبنائه الذين تدرجوا في هذا التقارب وصولا إلى إسماعيل الذي أظهر التطرف في ولائه للتشيع عند تأسيس الدولة وإعلان المذهب الشيعي مذهبا رسميا.[16]

وتذكر المصادر أن الشيخ صفي كان على علم جيد بتقسيمات الجغرافيا المذهبية في إيران حيث كانت تنقسم بين السنة الأحناف والسنة الشافعية والشيعة[17] و لذا لم يشأ أن يخرج بالفكر الصوفي الذي تبناه عن مجمل الاتجاهات الصوفية المتسامحة والمنفتحة على معظم العقائد المذهبية المعروفة، فقد تبنى عقيدة إسلامية تحررت نسبيا من قيود علم الكلام والفقه والاختلافات والتمايزات المذهبية، تتضمن العديد من المشتركات التي تجمع بين التسنن والتشيع، إلى جانب مصادر التصوف المعروفة التي تتضمن الكثير من مجالات العرفان الشيعية، مثل اعتقاد الشيعة بقدسية الأئمة من آل البيت وتقديس الأولياء عند الصوفية، واعتقاد الشيعة بامتلاك الأئمة علوما خص بها النبي عليا وأبناءه، ويعتقد الصوفية أنها انتقلت عنهم إلى الأولياء، وربما كان انفتاح الشيخ صفي على عقائد أتباعه سببا في بداية تغلغل العقائد الشيعية إلى طريقته الصفوية، ورسوخها رغم مذهبه السني.[18]

ويمكن اعتبار تنظيم الشيخ صفي لطريقته الصفوية أهم عامل لانتشار الطريقة وترسيخها لأكثر من قرنين من الزمن حتى وصول حفيده إسماعيل للحكم، فأوامر الشيخ لأتباعه بعدم الثورة ضد الحكام والتزامهم العبادة والرياضة والاهتمام بالآخرة قد أحكمت مكانته بين الحكام من جهة، ومن جهة أخرى فإن توزيعه للهدايا والمساعدات على فقراء الناس وأتباعه كانت قد رسخت مكانته في قلوبهم حتى عدا أتباعه مئات الألوف. والناحية الأهم في نجاح الشيخ صفي كان في القوانين التي وضعها لأتباعه وكيفية تنظيمهم على مستويات مختلفة وتوزيع الأدوار بينهم:

أولا/ جعل المشيخة وراثية يحصل الولد على سجادة والده المرشد وفقا لوصية الوالد، حتى ولو كان صبيا ويوجد من هو أسن منه بين إخوته أو عمومته.

ثانيا/ أوجد نظام الخلفاء الذين يمثلون الواسطة بين الشيخ المرشد وجموع المريدين في مواطنهم المختلفة، وهؤلاء يبذلون قصارى جهودهم لإيصال أفكار الشيخ وأصول طريقته.

---

(15) أ. د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 36 ص 37.

(16) پژوهش دانشگاه كمبريج: تاريخ ايران دوره صفويان، مترجم د. يعقوب آزندجاب چهارم، نشر گلشن، تهران، 1388 هـ ش، ص 13 ص 15.

(17) للمزيد راجع جدول جغرافيا المذهبية في إيران في القرن الثامن الهجري من كتاب نزهة القلوب للمستوفي، في الفصل الثاني من البحث الحالي.

(18) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 36 ص 37.

ثالثا/ يتولى عدد من الخلفاء المقربين من الشيخ إدارة شؤون دار الإرشاد التي سميت البقعة، وقد ارتبط الخلفاء في وقت لاحق برئيس القبيلة الذي أطلق عليه في زمن إسماعيل بخليفة الخلفاء.[19]

كان من أهم نتائج هذا التنظيم المحكم انتشار طريقة الشيخ صفي في داخل إيران وخارجها، حتى شملت بلاد آسيا الصغرى في تركيا وديار بكر في شمال العراق وبلاد الشام في سوريا الحالية. وكان خلفاء الشيخ ينتشرون في هذه المناطق ويبثون أصول طريقته وكرامات الشيخ ويجمعون من المريدين الهدايا والنذورات. ووصلت شهرة الشيخ صفي إلى بلاط الدولة العثمانية التي كانت بدورها ترسل سنويا هدايا وأموالا طائلة للشيخ تحت مسمى (چراغ آقچه سى) أي نذورات إضاءة الخانقاه ويسعون إلى تقوية مكانته الدينية[20].

تذكر المصادر بأن ثروة الشيخ صفي في نهاية حياته وصلت إلى (20) قرية من قرى أردبيل أوقفها لمقره في المدينة التي أصبحت فيما بعد مقبرته التي دفن فيها و صارت تزار من مريديه وأتباع طريقته[21].

لقي الشيخ صفي الدين اسحاق ربه في منتصف يوم الاثنين (12محرم 735هـ)، الموافق أيلول (1334م)، عن عمر ناهز الخامسة والثمانين، قضى منها ربع قرن في صحبة الشيخ زاهد، وخمسة وثلاثين عاما على رأس الطريقة التي أخذت اسمه، وأوصى أن يبقي ابنه صدر الدين موسى الذي كان الثاني بين أبنائه، على رأس الطريقة دون أن يفكر باختيار أحد تلاميذه أو مريديه الذين يكاد «صفوة الصفا» يمتلئ بأسمائهم وكراماتهم ومؤهلاتهم، والتي لا تقل عن مؤهلات نجله، وهذه هي المرة الأولى التي يقف فيها الابن على رأس الطريقة بعد أبيه في سلسلة الخرقة الصوفية، مما يدل ربما على أن المشروع السياسي الصفوي كان في حسابات صفي قبل أن يموت[22].

ثانيا: ترسيخ الطريقة الصفوية في عهد الأبناء

كان من شأن أبناء الشيخ صفي أن يحافظوا على ما أنجزه والدهم، وأن يسعوا إلى نشر طريقته وترسيخها في القلوب والاستفادة منها لتوسيع دائرة نفوذهم الاجتماعي.

أ: الشيخ صدر الدين:

أول ما قام به صدر الدين موسى خليفة الشيخ صفي هو أن شيد على قبر والده بناء كبيرا ليصبح مقرا لأتباعه، وكانت هذه البناية من السعة بحيث استغرق الفراغ منها عشر سنوات. فأصبحت ملاذا للأتباع ومزارا مشهورا يزوره السلاطين والأمراء، مما أكسب صدر الدين سعة في النفوذ الاجتماعي وحتى السياسي، مما أخاف منه الحكومات وتم نفيه لبرهة من الزمن من مدينة أردبيل، حتى عاد إليها وتوفي فيها عن عمر ناهز التسعين عاما في سنة (794هـ/1392-1391م) ودفن إلى جوار والده الشيخ صفي[23].

تكمن أهمية الشيخ صدر الدين الذي دامت مدة صدارته في الطريقة الصفوية (59) عاما في تمكنه من

---

(19) المصدر نفسه ص 38 ص 40.

(20) عبدالرفيع حقيقت: تاريخ جنبش هاي مذهبي در إيران، مصدر سابق، ج3 ص 1207.

(21) د. منوچهر پارسادوست: شاه اسماعيل اول، شركت سهامى انتشار، تهران، چاپ سوم،1387 هـ . ش، ص 121. أنظر ملحق رقم (2) لرؤية صور مقبرة الشيخ مني في مدينة اردبيل

(22) طالب محبيس الوائلي: مصدر سابق، ص 42 ص 43.

(23) د، كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص 352 ص353.

الأرتقاء بأسرته إلى مكانة رفيعة بين الأوساط الحاكمة، وتوسيع دائرة اتباع أبيه من خلال استمراره في نهج الشيخ صفي في إرسال خلفاء إلى مناطق بعيدة في الأناضول والشام ودياربكر، مستفيدا من الإمكانات المالية الهائلة التي كان قد ورثها وأضاف عليها في مدة صدارته. ومن ناحية أخرى تعتبر فترة صدر الدين فاتحة التطلعات السياسية للأسرة الصفوية[24].

ب: علي سياه بوش

تسلم منصب الإرشاد الصفوي، عقب وفاة الشيخ صدر الدين، نجله علاء الدين علي الملقب بـ (سياه بوش)، أي: (المسود) بسبب استمراره في لبس السواد. وكانت لعلي حظوة كبيرة لدى الأمير المغولي (تيمورلنك) بسبب الكرامات التي اشتهرت عنه، و قيل إنه شرب السم في لقائه بتيمور دون أن يتأثر به.[25]

وروي بأنه نبه تيمور أيضا إلى وجود اليزيدية وحرضه على تأديبهم لاعتقادهم في معاوية مما أثار شكوك بعض المؤرخين بتشيعه، وذكروا له مواقف وكرامات تدل على تحوله للتشيع بحسبهم، منها رؤيته الإمام الجواد تاسع الأئمة الإمامية في المنام وطلب الإمام منه دعوة أهل دزفول في جنوب إيران إلى التشيع، ولبس السواد لظلامة الأئمة وبثه الدعاة لنشر التشيع، وما قيل من أنه كان مجازا بالأربعينية [26] من الإمام الجواد (ع) عيانا، خاصة إذا عدنا بالذاكرة إلى أن الصوفية أخذت الخرقة بالتسلسل من أبيه الرضا عن آبائه عن علي بن أبي طالب (ع) أدركنا سبب هذه الشكوك، ولكن مؤرخي الصفوية ردوا جميع هذه المزاعم ونسبوها إلى تواريخ متأخرة، نسجت وفقا للتغير المذهبي الحاصل لدى الأسرة ما بعد وصولها للحكم. وما هو ثابت بأن علي سياه بوش لم يكن شيعيا بل كان سنيا متصوفا على طريقة آبائه، وكل ما يمكن قوله هو وجود تقارب بينه وبين الشيعة بسبب تقربه من الأمير تيمور ذي الميول الشيعية [27].

ولعل أهم ما ذكر عن علي سياه بوش هي أحد لقاءاته بتيمورلنك عقب هزيمة السلطان العثماني بايزيد الأول عام (804هـ/ 1402م)، حيث أسر تيمور (30) ألفا من الأتراك وجاء بهم إلى أردبيل. وقد طلب علي سياه بوش من تيمور أن يهبهم له ففعل. وأقام بهم في أطراف آرامگاه كنجه في كول قرب مدافن آبائه بأردبيل، وسماهم الصوفية الروملو، لقدومهم من الأناضول في بلاد الروم، وهم أجداد طائفة روملو القزلباشية التي كانت من أشد أنصار الشاه إسماعيل الأول إخلاصا في الدفاع عن مبادئه المذهبية ضد مواطنيهم الأتراك من السنة فيما بعد. وحرر علي سياه بوش جماعة من هؤلاء الأسرى وأرسلهم إلى الأناضول ليكونوا دعاة له وفدائيين ومساعدين للصفوية عند الحاجة وعيونا لتيمور لنك في آسيا الصغرى. والجدير بالذكر أنه أشير لأول مرة في تاريخ الصفويين إلى ظهور الفدائيين من بين مريدي شيوخ الصفوية، وتلك ظاهرة تبين التطور التدريجي نحو التنظيم العسكري[28].

(24) د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 41.

(25) د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص 353.

(26) الأربعينية: طريقة من الرياضة الصوفية، يضبط فيها المريد احواله بالاعتزال من الناس، ويقلل من المنام والطعام، والمداولة على الذكر لمدة أربعين يوما، طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 51 نقلا عن كنز العمال، تحقيق: بكري الحياني وصفوة السقا، الجزء الثالث، بيروت، بلا - تاريخ، ص 24.

(27) د. منوچهر پارادوست مصدر سابق، ص 129.

(28) أ.د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 42.

يذكر بأن هذا الحدث التاريخي قوبل بجرح وتعديل المؤرخين، واختلف في صحة وقوعه عن عدمة[29]، ولكن ما يهمنا هنا وجود مؤشرات كثيرة على اتساع دائرة أتباع الطريقة الصفوية خارج نطاق مدينة أردبيل، وظهور بوادر لتأسيس حركة عسكرية تمهيدا لدور سياسي أكبر للأسرة في هذه المرحلة.

إن المهم في مرحلة صدارة علي سياه بوش هي الأوامر التي صدرت من قبل تيمور بخصوصه، فقد سهلت عملية انتشار الطريقة و كانت أهم هذه الأوامر[30] هي:

أولا: عدم جواز تعرض أي من الحكام أو الأمراء لعلي سياه بوش وأتباعه.

ثانيا: إعفاء خانقاه الصفوية وأتباع الطريقة من الضرائب والحسابات الديوانية.

ثالثا: شراء القرى والأراضي المجاورة لمدينة أردبيل من قبل تيمور ووقفها لصالح الخانقاه الصفوي.

رابعا: جعل خراج مدينة أردبيل لصالح علي وأبنائه ومرقد الشيخ صفي. وتعتبر هذه الأوامر من أهم عوامل اتساع أتباع الطريقة الصفوية حيث أصبحت ملاذا آمنا للناس والضعفاء غير القادرين على دفع الضرائب الباهظة أوالمشردين من ظلم الحكام، وزادت من جهة أخرى هيبة علي سياه بوش ومكانته الاجتماعية والسياسية بين الناس.

توفي علي سياه بوش في عام (830هـ / 1427م)، في مدينة القدس أثناء عودته من رحلة الحج ودفن فيها وأقيم له مزار كبير يعرف حاليا بضريح الشيخ علي العجمي، بعد (38) سنة من الزعامة الروحية للطريقة الصفوية[31].

ج: إبراهيم:

تسلم إبراهيم مشيخة الطريقة من أبيه علي، ولكن بسبب قلة نشاطه لكثرة المرض لم تذكر المصادر التاريخية له الكثير، حتى عمد بعضهم إلى حذفه من السلسلة واتصال ابنه جنيد بعلي سياه بوش مباشرة[32].

ولكن أهم ما أنجز في زمن إبراهيم هو فتحه مقرات لطريقته في أنحاء العالم الإسلامي سماها «الدواوين الصفوية» تمول منه مباشرة، وأشرف عليها عدد من الخلفاء الذين أرسلهم إلى تلك المناطق، وتوليه إدارة مدينة أردبيل بأمر من شاه رخ بن تيمور حاكم أذربيجان مما تسبب في شهرته بلقب (الشيخ الملك) وزاد من نفوذ الأسرة بصورة أكبر في قلوب الناس والحكام واستمرت الهدايا والنذورات تتوالي من البلاط العثماني على مقر المشيخة، و قيل إن هذا الاهتمام كان بسبب توصيات من الأسرى الذين رجعوا إلى ديارهم عقب الإفراج عنهم من قبل علي سياه بوش[33].

توفي الشيخ إبراهيم بن علي في سنة (851هـ /1248-1247م) عقب (21) سنة من زعامة الطريقة الصفوية، ليخلف ستة أولاد كان أجدرهم بالزعامة أصغرهم جنيد الذي أوصى والده بتسلمه المشيخة[34].

(29) قارن بين: د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص 354 و ا. د. محمد سهيل طقوش: المصدر نفسه، ص 42 وبين د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق، ص 129 ص 130 وپژوهش دانشگاه كمبريج مصدر سابق، ص 23.

(30) د، منوچهر پارسا دوست : مصدر سابق، ص 130.

(31) ا.د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 43.

(32) المصدر نفسه: ص 43.

(33) طالب محيبس الوائلي: مصدر مسابق، ص 52.

(34) د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابقه ج2 ص 356.

ثالثا: بدء النشاط السياسي والعسكري للأسرة

أ) جنيد:

تزامن استلام الشيخ جنيد لمشيخة والده مع متغيرات سياسية كانت أهمها وفاة شاه رخ بن تيمور أحد أهم داعمي المشيخة الصفوية، و وصول جهانشاه قراقويونلو[35] المنتمي إلى المذهب الشيعي لسدة الحكم، تواصل دعم جهانشاه للمشيخة الصفوية و لكن بتقبل شيخ جعفر بن علي سياه بوش عم جنيد رأسا للمشيخة بدلا منه، وذلك لخوف جهانشاه من طموحات جنيد الشاب الذي كان قد بدأ فعلا بنشاط سياسي وعسكري من خلال تدريب الأتباع وتجهيزهم عسكريا للقيام بأمر ما كان يخفى على الحاكم جهانشاه. لكن الحاكم لم يمل إلى قتل جنيد لمكانته في نفوس الناس ومريديه بل أمره بالخروج مع أتباعه من أردبيل والهجرة منها، منعا لاقتحام المدينة و تدمير معالمها، مما أجبر جنيد على ترك المشيخة إلى عمه والهجرة إلى الأناضول، حيث كان للطريقة الصفوية أعوان كثر هناك[36] .

إن النقطة المهمة الأخرى في حياة جنيد هي تحوله المذهبي إلى التشيع المغالي الممزوج بالطموح السياسي، مما تسبب في مشاحنات بينه وبين عمه جعفر المتمسك بمذهب الطريقة وأعرافها التقليدية في الزهد والابتعاد من العمل السياسي المباشر، مما جعله مقربا من الحاكم جهانشاه وعاملا مقيدا لتحركات جنيد. والجدير بالذكر هو أن جهانشاه بسبب انتمائه إلى التشيع كان يريد فرض هيمنته ورئاسته للشيعة، وهو أمر يتضارب مع وجود جنيد الشيعي الصفوي ذي الميول السياسية لزعامة الشيعة، وصاحب الأتباع والفدائيين الكثر. وما كان تقارب جهانشاه وجعفر عم جنيد إلا عامل ضغط إضافيا لتركه الديار والهجرة منها [37].

هاجر الشيخ جنيد إلى الأناضول وراسل السلطان العثماني مراد الثاني، مرسلا إليه هدية تمثلت بمسبحة وقرآن وسجادة صلاة، بما ترمز إليه من السلم والعمل العبادي، مطالبا إياه باحتضانه ومنحه مقراً له ولأتباعه، ولكن السلطان العثماني أجاب الشيخ بمبلغ كبير من المال دون الإذن في الإقامة، مما أجبر جنيد على الانتقال من الأراضي العثمانية والإقامة في مدينة حلب التي كانت تُحكم من قبل المماليك ومركزهم في مصر، وبدأ بدعوته الصفوية الشيعية - السياسية وتحريض أتباعه على الجهاد و إسقاط حكم المماليك، مما تسبب في إصدار فتوى من فقهاء البلاط المملوكي بكفره وخروجه من الملة، فترك حلب وفر منها خوفا على حياته متوجها إلى منطقة ديار بكر التي كانت تحكم من قبل أوزون حسن الآق قويونلوي[38] المنتمي إلى المذهب السني وعدو

---

(35) قراقويونلو: من قبائل أوغوز التركمانية وقد شاع عليهم إسمهم قراقويونلو ومعناه الخروف الأسود بسبب إقتنائهم الى هذا النوع من الشاة وقيل أن علمهم الرسمي كان يحمل صورة شاة أسود، ودام حكمهم 95 عاما بين التوسع والتقلص، حيث أحكمت القبيلة سيطرتها على مناطق شاسعة من العراق وغرب ايران وبالأخص منطقه آذربايجان موطن الصفويين. عزيز قادر الصمانجي: التاريخ السياسي لتركمان العراق، دار الساقي، بيروت، 1999م، ص 56.

(36) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص132.

(37) المصدر نفسه: ص 133.

(38) آق قويونلو: من قبائل اوغوز التركمانية وقد شاع عليهم تسمية الخروف الأبيض بسبب اقتناء القبيلة للشياه البيض ووجود صورة لهذا النوع من الشاة في علمهم الرسمي. أهم حكام القبيلة أوزون حسن أي حسن الطويل وقد حكمت القبيلة أراضي شاسعة شملت العراق

جهانشاه القراقويونلي التقليدي، واللجوء عنده[39].

استقبل الأمير أوزون حسن الشيخ جنيد برحابة كبيرة، و زوّجه شقيقته «خديجة بكم» بهدف كسب الشيعة إلى جانبه في صراعه مع القراقوينلو، ومن جهة أخرى أعطى هذا الزواج جنيد قوة دفع جديدة، فعزم على العودة إلى أردبيل، وقد طلب من أوزون حسن أن يمده بالمساعدة ففعل، ثم غادر ديار بكر متجها إلى أردبيل.[40] استقر جنيد مرة أخرى في مدينته أردبيل مستندا إلى تحالفه مع أوزون حسن، ولكن هذه الإقامة لم تدم كثيرا حيث إن جهانشاه لم يتمكن من تحمل وجود جنيد، عدوه وصهر عدوه الآق قويونلي على مقربته، ولذا صمم على إبادته وإبادة أتباعه، مما أجبر جنيد مرة أخرى على الهجرة ولكنه عزم على احتلال شروان أقرب المناطق من أردبيل، والتي كانت تحكم من قبل خليل شروان شاه أضعف حكام المنطقة، ونوى جنيد أن يستقر بها بحجة نيته محاربة الكفار الشركس المجاورين لمنطقة شروان، وتوفير موارد مادية حافزة لأتباعه الذين بلغوا العشرة آلاف مقاتل من الشيعة العلويين، سكان الأناضول. وقد راسل جنيد خليل مطالبا إياه بمنحه قطعة أرض حدودية لاستقرار جيشه القاصد غزو الشركس ومحاربة الكفار وكان رد خليل بالنفي، مطالبا جنيد بالتفرغ للعبادة و السير على نهج آبائه وترك الطموحات السياسية لتعرفه على نوايا جنيد من خلال مراسلات تمت بين خليل وجعفر عم جنيد الغاضب من رجوعه إلى أردبيل[41].

ويمكن اعتبار الرسالة التي أرسلها خليل شروان شاه إلى جنيد من أهم الوثائق التي تدل على معرفة الحكام بنواياه وما كان يخطط له، وابتعاد مشيخته عن نهج آبائه، فورد في الرسالة: (أنت الآن في ريعان الشباب، ومقارعة الحكومات ليس من اختصاص الدراويش، فواجبك محاربة النفس الطامحة للسيادة، قبل محاربة الكفار، توجه إلى إرشاد الناس وتعليمهم العقيدة الإسلامية، هذا هو واجبك وليس قتال الحكومات والدول، إن الله سبحانه وتعالى وهب لكل قبيلة مكانا خاصا بها، ولكل دولة حكومة وجيشا وحدودا لا يمكن التجاوز عليها، لذا أرجو أن تخلع عن جسدك عباءة الدم والقتال، وارتداء عباءة الزهد والتقوى لأنها الأفضل والأصلح)[42].

ومن ناحية أخرى كان جنيد يخوض صراعا للبقاء بين ضغوط الحاكم من جهة وبين منافسة عمه لمشيخته من جهة أخرى، حيث كان يكبره سنا ويتفوق عليه علما ولذا كان على جنيد أن يثبت أحقيته في خلافة والده بناءً على الوصية، ولجأ في ذلك إلى مزج الأفكار الشيعية بالتصوف بغية إثبات تقدمه على عمه، فما كان منه إلا أن أشاع بين أتباعه بأنه نائب الإمام المهدي المنتظر، وأن دولة العلويين قريبة من القيام وهو يقوم بالتحضيرات اللازمة لظهور الإمام من خلال محاربة الكفار والقيام بواجب الغزو الشرعي مما أثار حماسة اتباعه وزاد من تمسكهم به، ولقب من قبلهم بسلطان جنيد، حتى

وديار بكر ومدينة تبريز في إيران ودام حكمهم 40 عاما. عزيز قادر الصمانجي: مصدر سابق، ص 59.

(39) د. منوچهر پاريادوست: مصدر سابق، ص 136 ص 137.

(40) أ.د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 45.

(41) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص 138 ص 139.

(42) طالب محييس الوائلي: مصدر سابق، ص 63.

كان مـن شـدة تقديسـهم لـه بـان أسـموه الإلـه الحـي[43]، مـما زاد في إثـارة غضـب أعدائـه و منافسـيه[44].
وتقـدم مـن جنيـد في عـام (864هــ / 1460م) لمحاربـة خليـل شـيروان شـاه فقتـل أثنـاء المعركـة وتكبـد جيشـه خسـارة فادحـة، مخلفـا ابنـه الرضيـع حيـدر لزعامـة الطريقـة[45].

إن أهم النقاط التي يجب ذكرها حول جنيد والمتغيرات التي حصلت في زمانه يتمثل بالآتي [46]:

أولا: تحـول جنيـد مـن المذهـب السـني إلى المذهـب الشـيعي، علـما بـأن تشـيع جنيـد لم يكـن مـن النمـط العقائـدي التقليـدي، بـل كان تشـيعا مغاليـا، فقـد وصـف في بعـض المصـادر بأنـه كان يؤمـن بعبـادة الإمـام عـلي ويغلـو فيـه[47]. ويعتـبر جنيـد أول المتشـيعين مـن أبنـاء الشـيخ صفـي.

ثانيـا: تغيـير مسـار الطريقـة الصفويـة مـن منهجهـا المحصـور في العبـادة والزهـد والعزلـة ومهادنـة الحـكام إلى منهـج الطمـوح السـياسي، وتأسـيس الجنـاح العسـكري للطريقـة وحـث الأتبـاع عـلى الجهـاد والغـزو وعـدم الاكتفـاء بالعبـادة والرياضـة الصوفيـة.

ثالثـا: تلقـب جنيـد بالسـلطان بـدلا مـن الشـيخ، وهـو أول مـن لُقـب بهـذا اللقـب في الأسرة الصفويـة وكانـت أهـم دلالـة عـلى دخـول الطريقـة في العمـل السـياسي بقـوة.

رابعـا: يعتـبر جنيـد أول أفـراد الأسرة ممـن مـزج بـين التصـوف والتشـيع والسياسـة، واعتـبر مـا يقـوم بـه واجبـا مقدسـا وحروبـه حروبـا مقدسـة تهـدف إلى التحضـير لقيـام دولـة علويـة بقيـادة الإمـام المنتظـر جاعـلا مـن نفسـه نائبـا لـه.

خامسـا: كان جنيـد أول أفـراد الأسرة ممـن هاجـر مـن مدينـة أردبيـل وظـل مـشردا لأكـثر مـن أحـد عـشر عاما، يسـعى للوصـول إلى أهدافـه السياسـية وبذلـك تمكـن مـن التأثـير في جميـع الـدول التـي مـر بهـا، وهـم دولـة قرامـان الشـيعية في جنـوب الأناضـول ومدينـة حلـب السـورية التابعـة للدولـة المملوكيـة، وحـدود طرابـازون في أجـزاء مـن السـلطنة العثمانيـة وحصـن كيـف المحكومـة مـن قبـل أحـد أحفـاد صـلاح الديـن الأيـوبي، واسـتقرارا في ديـار بكـر الآق قويونـلي، رجوعـا إلى أردبيـل القراقويونـلي، إلى مقتلـه في دولـة شروان الصغـيرة في شـمال أردبيـل. وتمكـن جنيـد في جميـع هـذه الـدول مـن جـذب أتبـاع ومريديـن، سـيكونون في المسـتقبل دعامـة الجيـش الصفـوي في إقامـة الدولـة عـلى يـد حفيـده الشـاه إسـماعيل الأول.

ولذلـك يعتـبر البعـض أن جنيـد هـو المؤسـس الأول للدولـة الصفويـة، فلـولا طموحـه السـياسي ونشـاطه العسـكري، وتربيـة أتباعـه عـلى النهـج الثـوري و الإطاعـة العميـاء، لمـا تمكـن أبنـاؤه فيـما بعـد مـن تأسـيس الدولـة بهـذا الفـارق الزمنـي البسـيط و لبقـي حلـم الدولـة يـراود الأبنـاء لمـدة أطـول[48].

---

(43) ينقـل الدكتـور منوجهـر بارسـا دوسـت عـن المـؤرخ فضـل اللـه بـن روزبهـان خنجـي ويعرفـه بأنـه مـورخ متعصـب للتسـنن قـول اتبـاع جنيـد في الوهيتـه وتسـمية نجلـه حيـدر بابـن اللـه، مـما يثـير الشـك في صحـة القـول حيـث صـادر مـن جهـة غـير محايـدة، ومـن المعقـول قبـول ادعـاء جنيـد بنيابتـه عـن الإمـام، بغـرض إثـارة الأتبـاع، أمـا ادعـاء الألوهيـة فتتضـارب مـع فكـرة النيابـة ومـن الممكـن حمـل القـول بالألوهيـة بانـه جـاء مـن بـاب المغـالاة في تقديـس جنيـد لا مـن بـاب صحـة الدعـوى. د. منوچهـر پارسـا دوسـت: مصـدر سـابق، ص 140.

(44) د. مصطفى كمال الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص 356.

(45) أ.د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 45.

(46) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص 142.

(47) پژوهش دانشگاه كمبريج: مصدر سابق، ص 22.

(48) د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق ،142.

ب) حيدر:

ولد حيدر في آمد مركز ديار بكر بعد مقتل والده جنيد بحوالي شهر، في كنف خاله (اوزون) حسن حاكم الدولة الآق قويونلي، وحرص خاله على تربيته وتعليمه مختلف العلوم وفنون الصناعة، إلى جانب شروط الجندية ولوازمها من قتال وتنظيم وأسلحة، وظل في بلاطه حتى بلغ التاسعة من عمره، حينذاك انطلق في صفوف جيش الآق قويونلو المتوجه لمنازلة جهانشاه في أذربيجان، فشهد حسم هذا النزاع سنة (872هـ/ 1467-1468م) لصالح خاله الذي تمكن من قتل خصمه ودخول عاصمته تبريز التي صيرها عاصمة لملكه. كما شهد انتصارات أخرى أفضت إلى سيطرة أوزون حسن على العراق وأذربيجان بكامله. حينها صحبه خاله إلى موطن أجداده في أردبيل وأجلسه على سجادة الإرشاد في احتفال كبير في ذي الحجة (874 هـ) حزيران (1470م) وذلك على الرغم من صغر سنه. وهنا قرر أوزون حسن أن يعفو عن الشيخ جعفر عم جنيد نظرا لكثرة أتباعه وانتسابه إلى الصفويين، وبعد تعهده بتربية حيدر دينيا وتلقينه أسرار الطريقة وعلم التنجيم، وهكذا عادت الطريقة الصفوية في أردبيل إلى سابق عهدها، وعاد الصوفية يتلقون الدروس ويمارسون الطقوس، بعد توقف دام أكثر من عقدين، ولما سمع أتباع الصفويّة في جيلان وتالش وآسيا الصغرى والشام وغيرها بذلك تداعوا إليه، للاستفادة من الرعاية التي يحظى بها شيخهم من خاله أوزون حسن.[49]

كانت شخصية حيدر القلقة والطموحة تشبه الى حد كبير شخصية والده جنيد، فاتخذ كأبيه لقب السلطان، ولكنه لم يبدأ بالتحرك السياسي العلني قبل وفاة عم والده الشيخ جعفر، وبدأت بوادر حركته السياسية في ظل حماية ودعم خاله أوزون حسن الذي استحسن خطواته وأضفى عليها الشرعية. فكان مما قام به حيدر هو توحيد صفوف أتباعه من خلال تصميم عمامة موحدة لهم عرفت بالعمامة «الحيدرية» التي وصفها شاهد عيان، كان ضمن الحملة التي قادها الشاه إسماعيل سنة (915هـ/ 1509م) نحو شيروان، بقوله:

كان القزلباش يلبسون في رؤوسهم طاقية حمراء فيها اثنا عشر خطا بعرض إصبع واحدة ولها قمة مخروطية، يمثل كل خط اسم إمام من أئمة الشيعة، وكانوا لا يحلقون اللحى والشاربين[50]، ويرتدي كل فرد منهم جوشنا (درعا) مصنوعا من أفخر أنواع الفولاذ الإيراني، وعلى رؤوسهم قلنسوة فولاذية يضعها تحت الطاقية، ولدى كل منهم حصان، وبعضهم مشاة مسلحون بالرماح والقسي والفؤوس». كما وصف أتباع حيدر شاهد عيان آخر فقال:

أمر (حيدر) أتباعه أن ترتفع من وسط عمامتهم ذات الأكوار العديدة قطعة مدببة على هيأة هرم مقسمة من قمتها حتى أطرافها إلى اثنتي عشرة شقة تذكر بعلي وأبنائه[51].

وقد سمى العثمانيون استهزاء هذه العمامة «القزلباش»، وهي كلمة تركية من مقطعين معناها بالفارسية سرخسر» وبالعربية أحمر الرأس»، وأطلقوها على كل أتباع الصفويين. فأصبحت جزءا من

---

(49) طالب محيبس الوائلي : مصدر سابق، ص 65 .

(50) يذكر الدكتور منوجهر بارسا دوست بأن القزلباش في زمن حيدر كانوا يحلقون اللحى ويطيلون الشارب. د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق، ص 150. أنظر الملحق رقم (3) صورة جندي قزلباش في زمن حيدر الصفوي.

(51) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 67.

التعبئة الإعلامية لمشروع حيدر السياسي[52].

حتى إن أوزون حسن خال حيدر طلب منه أن يرسل إليه شعار طريقته ليعممها على أتباعه ويرتديها هو و أبناؤه[53]، مما ينم عن الدعم الكامل لخطوات حيدر في زمن خاله.

ويروي الدكتور الشيبي بأن التاج الحيدري الاثنا عشري عمم عقب رؤيا شاهدها حيدر، حيث أمره الإمام علي بن أبي طالب بجعلها شعارا للطريقة الصفوية، وهي من تصميمه، وإن كانت ثمة شكوك حول صحة هذه الرواية[54].

ومهما تكن أسباب لجوء حيدر لهذا التصميم الجديد فإنه ينم عن بدء تحوله نحو التشيع حيث إنه تربى في بداية نشوئه على يد خاله السني في ديار بكر، وعقب رجوعه إلى أردبيل كان يأخذ تعاليم الطريقة من عم والده جعفر المشهور بتمسكه الشديد بمذهب الأسرة ما قبل جنيد، ولكن وفاة جعفر والتفاف أنصار جنيد من شيعة الشام والأناضول وأذربيجان حول حيدر، تسبب في تحوله إلى التشيع الصوفي أو ما يسميه المؤرخون بالإسلام الشعبي والتشيع العاطفي السياسي أوالتسنن الاثني عشري، ولكن لم يبق حيدر على هذا النوع من التشيع أو التسنن المعتدل بل اتجه وخاصة عقب وفاة خاله أوزون حسن نحو التشيع الغالي الشديد، وكان يربي أتباعه على تكفير السنة و قتلهم حتى سميت أتباعه بالشيعة الحيدرية وكان من معتقداتهم (إن ثواب قتل السني «الكلب» وهكذا كانوا يسمونهم، يعادل ثواب قتل خمسة من الكفار الحربيين، وإن نكاح السني غير جائز، ودمه وماله حلال على الأتباع، وعليهم قتل نساء السنة وبقر بطونهن وإسقاط أطفالهن، ويجوز البيع والشراء من السني كجوازه من غير المسلمين، وأن الصيام والصلاة والحج والزكاة غير واجبة لأن الله سبحانه سيجعل ثواب صيام وصلاة وحج وزكاة السنة في حساب الحيدرية، وهذه العقائد الخطيرة بالتأكيد كانت سببا في انحراف أتباع الطريقة الصفوية من موروثهم المعتدل، وينم عن انحرافهم الشديد عن مذهبي السنة والشيعة[55].

واصل حيدر في زمان خاله العمل على تأسيس جيش موحد و مركزي من أتباعه، تحكمهم أنظمة وقوانين كان أهمها قانون الأخوة بين الأتباع وقانون التقية الملزمة بعدم إفشاء أسرار الطريقة للغرباء، مع حثهم على الطاعة العمياء لشيخ الطريقة وتقديس حيدر إلى حد الربوبية، وكانوا يعتقدون بأنه من أولياء الله وفيه جزء إلهي، ولذلك هو مالك الرقاب والمسيطر على أرواح وأموال وأعراض وأبناء اتباعه[56]. ويعتقد الدكتور (منوچهر پارسادوست) بأن هذه العقائد من ترك الواجبات وإباحة المحرمات، من موروثات بعض الديانات الفارسية القديمة وتسللت إلى أتباع حيدر، وتم العمل بها [57].

بعد أن أبدى أوزون حسن رغبته في ارتداء العمامة الحيدرية، طلب من ابن أخته حيدر المجيء إلى

(52) المصدر نفسه: ص 67 ص 68.

(53) أ. د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 46.

(54) د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص 360.

(55) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص 145 ص 146.

(56) المصدر نفسه: ص 145 ص 151 .

(57) المصدر نفسه: ص 146.

ديار بكر حيث زوجه من إحدى بناته كانت تسمى (مارتا) وكانت أمها (دسبينا خاتون) بنت كالو آيوانس، آخر الأباطرة المسيحيين في طرابزون وسليلة أسرة يونانية نبيلة. ويبدو أن حسن أراد أن يبني ملكا حقيقيا لحيدر صهره وابن أخته وكان يعد العدة لمد يد العون له في هذه المسألة، غير أنه توفي في عام (882هـ / 1468م)، ليخلفه ولي عهده خليل الذي تآمر عليه يعقوب أخوه الأصغر وقتله بعد أشهر من موت والده وتوج نفسه سنة (883هـ / 1469م) وله من العمر ستة عشر عاما[58].

ولكن لم تبق العلاقات بين يعقوب و حيدر كما كانت في زمن أوزون حسن، بل كان ينظر إلى تحركات حيدر بعين الريبة وعدم الاطمئنان، وأول ما قام به هو منع أبنائه وبلاطه من ارتدائهم العمامة الحيدرية مع حفظ التواصل والاحترام مع الشيخ حيدر، وكان يزور أردبيل أحيانا[59].

وأدرك حيدر بأن المواجهة لا بد آتية لذلك راح يقوي نفسه، ومع كل رغبته في الانتقام من خليل شروان شاه قاتل أبيه جنيد، بيد أنه لم ير مصلحة من فتح جبهة حرب معه، ولذا أعلن عن نيته حرب الكفار وغزوهم وراسل يعقوب شاه الآق قيونولي وأطلعه عن نيته في الغزو، كاتبا إليه بأنه وأتباعه تمكنوا من الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس من خلال رياضاتهم الصوفية ويتهيؤون الآن للجهاد الأصغر وهو جهاد الكفار، في إشارة إلى رسالة خليل لوالده جنيد، وطلب من يعقوب مراسلة خليل لفسح المجال للجيوش الغازية للمرور من شروان وتم الإذن له، فغزا حيدر وجيشه، المسيح الشركس مرتين، وكتب له النصر فيهما ورجع إلى أردبيل حاملا معه الغنائم والأسرى الذين بلغوا الستة آلاف نساء ورجالا[60]. عقب الانتصارات التي حققها حيدر، ومع ازدياد قوته العسكرية وتعداد أتباعه المتصاعد صدرت أوامر من يعقوب لحيدر بوقف الغزوات والبقاء في أردبيل، وعدم التحرك من دون إذن الحاكم الآق قيونولي، ولكن حيدرا كان قد عزم الاستيلاء على شروان نفسها والانتقام من حاكمها لأبيه، لذلك وسّط والدته خديجة بيكم عمة يعقوب لأخذ إذن جهاد الكفار للمرة الثالثة ومع صدور الإذن جهز جيشه متوجها إلى شروان الذي كانت تتوقع نواياه وكانت متهيئة للقتال ونشبت بينهما معركة شرسة كتب لحيدر و جيشه النجاح في بدايتها، ولكن مع وصول إمدادات من يعقوب الفرخ يسار نجل خليل شاه المتوفى والذي كانت بينه و بين يعقوب مصاهرة، انهزم الجيش الصفوي وقتل حيدر في المعركة، وكان مقتله سنة (893هـ /1488م)، مخلفا ثلاثة أبناء هم علي يار وإبراهيم وإسماعيل [61].

أهم النقاط التي يجب ذكرها حول حيدر والمتغيرات التي حصلت في زمانه هي:[62]

أولا: تصاعد رغبات الأسرة الصفوية في الحصول على دور سياسي مهم، والتركيز على هذا الدور أكثر من الرغبة في استمرار وتطوير المشيخة الصفوية الدينية. ونمت هذه الرغبة في ظل نشأة حيدر بين أحضان خاله، وتربيته السياسية التي زادت من رغبة حيدر في تحقيق الملك الديني والدنيوي معا،

---

(58) د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص 359.

(59) طالب محييس الوائلي: مصدر سابق، ص 68.

(60) د. منوچهر پارسا دوست : مصدر سابق، ص 147 ص 148 .

(61) المصدر نفسه: ص 151 ص 152 ص 153.

(62) المصدر نفسه : ص 144 م 145 ص 155 ص 156 .

وهـو أول أبنـاء الأسرة الصفويـة ممـن اسـتمتع منـذ طفولتـه بمزايـا السـلطنة والمشـيخة. وكان عـلى مسـاس مبـاشر بمغريـات الملـك والقـوة الاجتماعيـة والدينيـة النافـذة بـين عمـوم النـاس.

ثانيـا: تأسيسـه لأول جيـش موحـد ونظامـي، كان ولاؤه الأول والأخـير للمشـيخة الصفويـة، مـن خـلال توحيـد الـزي ووضـع القوانـين ومـزج النشـأة الدينيـة بالتعاليـم العسـكرية الصارمة.

ثالثـا: التحـول الخطـير في مسـار الفكـر الدينـي والمذهبـي لـلأسرة، حيـث تحولـت مـن مذهـب سـني صـوفي معتـدل إلى مذهـب مغـال، يتلبـس بلبـوس التشـيع وينحـى منحـى التطـرف الشـديد.

رابعـا: الاسـتمرار في إرسـال الخلفـاء إلى المناطـق البعيـدة مـن أردبيـل، وتحديـدا إلى الـدول المجـاورة في الشـام والأناضـول والعـراق، وتأسـيس نظـام «أمـراء الصفويـة» الـذي نظمـت بموجبـه المجاميـع المشـتتة تحـت قيـادة الخلفـاء المنصبـين مـن قبـل السـلطان حيـدر.

ج: يار علي وإخوته:

تسلم يـار عـلي، الـذي لقـب بسـلطان عـلي، مشـيخة والـده عقـب وفاتـه، والتـف جميـع المريديـن حولـه لتهنئتـه وتحريضـه عـلى الانتقـام لمقتـل والـده، وقـد أقلـق ذلـك يعقـوب زعيـم الآق قوينلـو، فأوعـز إلى حاكـم أردبيـل باعتقـال الأسرة، فاعتقلهـم مـع والدتهـم وسـلموا إلى منصـور بـك حاكـم ولايـة فـارس الـذي سـجنهم في قلعـة إصطخـر بشـيراز، كـما أمـر بمنـع أبنـاء عمومتهـم الصفويـين مـن التواجـد في دار الإرشـاد، كي لا تعـود الصفويـة إلى نشـاطها العسـكري مـن جديـد[63].

وبعـد أن تـوفي السـلطان يعقـوب في (11صفر896هـ/24 أيلـول1490م)، تفـرق إخوتـه وتصارعـوا بينهـم عـلى الحكـم، وأطلـق سراح عـلي وإخوتـه مـن السـجن بقـرار مـن رسـتم أحـد أطـراف الأزمـة في الأسرة الآق قويونلويـة، للاسـتفادة مـن أتباعـه ونفـوذه في قمـع المنشـقين عـلى حكمـه مـن الأسرة. وعقـب انتصار رسـتم في حروبـه وسـيطرته عـلى زمـام الأمـور، طلـب منـه يـار عـلي الـذي سـاعد رسـتم في أزمتـه الرجـوع مـع إخوتـه و والدتهـم إلى أردبيـل، لإكـمال رسـالة آبائـه في إرشـاد النـاس وتوجيههـم. فوافـق رسـتم عـلى ذلـك، وعـادت أردبيـل موئـلا لأعـداد متزايـدة مـن المريديـن والصوفيـة. ومـع هـذا وبسـبب خشـية رسـتم مـن إمكانيـة تصاعـد نفـوذ الصفويـين بـين أتباعهـم جعـل يارعـلي محاطـا بالجواسـيس و تحـت المراقبـة، وبعـد مـدة مـن الزمـن عـزم عـلى قتلـه، فأرسـل جيشـا لتنفيـذ ذلـك، ولمـا وصـل خـبر الجيـش ليارعـلي تحـرك إلى قريـة شـماسي بالقـرب مـن أردبيـل، وأدرك أن المـوت ملاقيـه، فاسـتدعى سـبعة مـن الصوفيـين المخلصـين وأمرهـم بنقـل أخويـه إبراهيـم وإسـماعيل إلى مـكان آمـن، ولكـن قتـل إبراهيـم أثنـاء العـودة لأردبيـل[64]، وحينـما اصطـدم عـلي بالقـوة الآق قويونليـة كادت المعركـة تنتهـي لصالحـه حينـما فـر مهاجمـوه، ولكنـه لمـا كان مشـغولا بملاحقتهـم عـثر جـواده خـلال عبـوره أحـد الأنهـار، وظلـت قدمـه معلقـة بالـركاب، فـما اسـتطاع خلاصـا وغـرق في النهـر، فلـما سـمعت أمـه بذلـك أمـرت بإحضـار جثـة ابنهـا ودفنتـه إلى جانـب أجـداده في أردبيـل، وذلـك سـنة (899هـ/ 1494م)[65].

---

(63) أ.د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 47.

(64) المصدر نفسه: ص 47.

(65) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 77. انظر الملحق رقم (4) لرؤية صورة الشاه إسماعيل الأول.

المطلب الثاني

تأسيس الدولة الصفوية

نشأة إسماعيل الصفوي أول ملوك الأسرة

لمعرفة نشأة وظروف قيادة إسماعيل، يمكن تقسيم فترات حياته إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

أولا: منذ ولادته حتى وفاة أخيه يارعلي

ثانيا: منذ تسلمه المشيخة الصفوية حتى قيامه بتأسيس الدولة

ثالثا: منذ تأسيس الدولة حتى وفاته.

ولكل من هذه الفترات تأثيراتها على شخصية ونشأة شاه إسماعيل وسلوكياته.

أ) منذ الولادة حتى وفاة يارعلي

ولد إسماعيل بن حيدر في يوم الثلاثاء المصادف (25رجب 892هـ/ 25تموز1487م)، أي قبل عام تقريبا من مقتل والده. وسجن مع إخوته يارعلي وإبراهيم ووالدتهم في سجن إصطخر بمدينة شيراز التابعة لولاية فارس، و بقي مسجونا معهم لمدة أربع سنوات، وعقب الافراج عنهم كما ورد في سيرة أخيه يارعلي ظل مرافقا له لمدة ثلاث سنوات قبل مقتل يارعلي الذي سلم قبيل مقتله المشيخة لإسماعيل، علما بأنه كان أصغر من أخيه الثاني إبراهيم الذي تتجاهله المصادر التاريخية ولا تورد له الكثير، وقد كان ذا شخصية ضعيفة هاجر مع أخيه إسماعيل إلى لاهيجان وعند عودته منها إلى أردبيل على أثر الضيق النفسي الذي كان يمر به اختفى ولم يعلم مصيره(66).

وتذكر المصادر بأن عليا استدعى إسماعيل الذي لم يبلغ من العمر حينئذ سوى سبع سنوات، وألبسه العمامة الحيدرية، وربط على وسطه حزاما وأوصاه أن يأخذ بثأر جده وأبيه وثأره لأنه سيقتل في هذه المعركة، وقال له إن القرعة والطالع قد وقعا عليه لقيادة المشروع الصفوي، ولقنه بعض الأسرار التي ورثها عن آبائه، وانتخب سبعا من الشخصيات الكبيرة من خلص مريديه من الصوفية سماهم أهل الاختصاص، وهم:

- حسين بك لله شاملو: الذي أصبح فيما بعد الأب الروحي ومربي إسماعيل وقائد قوات القزلباش عقب وصوله إلى الحكم، وتلقب حينها بأمير «الأمراء» و وكيل نفس همايون.
- خادم بيك: صاحب منصب الخليفة الخاص في زمن شيخ جنيد و شيخ حيدر.
- قره پيري قاجار: آمر المجاهدين القزلباش.
- أبدال علي بيك دده: مربي الشيخ حيدر الخاص.
- ورستم بيك قره مانلو وبايرام بيك قره مانلو وإلياس بيك ايغوت أوغلي: من خواص الأسرة الصفوية. وكانوا جميعهم من أتراك الأناضول، ولم تسكن قبائلهم يوما في داخل إيران وبالتالي فلم يكونوا إيرانيين. وهذه النقطة لها دلالة خاصة، عندما نعلم بأن إسماعيل وصل إلى سدة الحكم ولم

(66) المصدر نفسه: ص 84 ص 87.

يكـن ضمـن الآلاف مـن جنـوده إلا ثلاثـة إيرانيـين فقـط[67].
أوصى يارعـلي أهـل الاختصـاص بإنقـاذ إخوتـه و والدتـه و بالفعـل تـم نقلهـم مـن سـاحة المعركـة إلى أردبيـل و أخرجـوا منهـا متخفـين إلى مناطـق متعـددة، وقـد رافـق ذلـك مخاطـر وصعوبـات جمـة، وصـولا إلى مدينـة لاهيجـان في ولايـة جيـلان، و بدعـوة مـن حاكمهـا الشـيعي السـيد كاركيـا ميـرزا عـلي[68] في أوائـل عـام (900هــ/ أواخـر 1494م)، فاحتفـى بهـم وخصـص لهـم منـزلا مناسـبا فيـما لم ينقطـع عـن متابعـة شـؤونهم كل مـن كاركيـا سـلطان حسـين وكاركيـا سـلطان هاشـم أشـقاء مضيفهـم[69]. وقـد عومـل إسـماعيل رغـم صغـر سـنه مـن قبـل أهـل الاختصـاص و اتبـاع الصفويـين مرشـدا للطريقـة، وتمكنـوا مـن إنقـاذ حياتـه طيلـة إقامتـه في لاهيجـان رغـم المخاطـر الكبـيرة التـي كانـت تحـوم حولـه، كونـه كان مطلوبـا مـن السـلطة الآق قويونليـة التـي بذلـت كل جهدهـا للقبـض عـلى إسـماعيل وقتلـه[70].

ب) منذ تسلم المشيخة حتى تأسيس الدولة

1. التعليم:

في لاهيجـان مـر إسـماعيل بفـترة التعليـم والنشـأة حيـث كلـف كاركيـا ميـرزا عـلي، الشـيخ شـمس الديـن اللاهيجـي[71] ليكـون معلـما خاصـا لإسـماعيل، يعلمـه القـرآن الكريـم وأصول الديـن واللغتـين الفارسـية والعربية، فضـلا عـن رجـل صائـغ كان يدعـى الأمـير نجـم الديـن مسـعود والـذي كان مـن محبـي الصفويـة، وقـد تـولى تعليـم إسـماعيل مبـادئ الرياضيـات وعلـم النجـوم والحكمـة. فنـال عـلى يديهـما تعليـما جيـدا تعـرف مـن خلالـه عـلى بعـض مـن أصـول المذهـب الشـيعي وأحكامـه، كـما حـرص مربّـوه الآخـرون مـن أهـل الاختصـاص عـلى تدريبـه مختلـف فنـون القتـال والصيـد وركـوب الخيـل[72].

2. العقيدة:

تأثـر إسـماعيل منـذ طفولتـه وفي مرحلـة نشـأته بعـدة عوامـل وأفـكار، تسـببت في تكويـن عقيـدة خليطـة لـه، فمـن جهـة كان إسـماعيل لصيقـا بوالدتـه مارتـا التـي كانـت تحمـل عقائـد قريبـة جـدا لأمهـا المسـيحية كاترينـا، والتـي اشـترطت عـلى اوزون حسـن عنـد تزويجهـا البقـاء عـلى المسـيحية، فكانـت تـؤدي طقوسـها حتـى مماتهـا عـلى وفـق ديانتهـا، وينقـل بأنهـا شـيدت عـدة كنائـس في ديـار بكـر ومدينـة تبريـز عواصـم الحاكـم الآق

---

(67) د. امير حسين خنجي: قزلباشان در ايران، نشر وبگاه ايران تاريخ، بلا تاريخ، بلا مكان ص 80.

(68) هـو كاركيـا مـيرزا عـلي بـن كارگيـا محمـد بـن كاركيـا نـاصر بـن محمـد المشـهور بمـير سـيد بـن مهـدى بـن امـير كيـا الحسـيني العلـوي سـلطان گيـلان، ولـد سـنة (1443م/847 هــ)، وقتـل سـنة (1504م/910 هــ). السـيد محسـن الأمـين العامـلي: أعيان الشـيعة، دار التعـارف للمطبوعـات، بيروت، الطبعـة الخامسـة، 2000 م، ج12 ص 187.

(69) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 82 ص 83 ص 84 ص 87.

(70) للتفصيل راجع: عبد الرفيع حقيقت: تاريخ مذهب شيعه، انتشارات كومش، تهران، 1390 هـ. ش، ص 410 ص411.

(71) هـو محمـد شـمس الديـن الگيـلاني اللاهيجـي، متصـوف وفقيـه مـن أتبـاع الطريقـة النوربخشـية ولـد في لاهيجـان مـن أعـمال گيـلان، قـرأ عـلى سيد محمـد نـور بخـش وخلفـه، لازم السـلطان الشـاه اسـماعيل مـن بدايـة ظهـور الدولـة الصفويـة، فعينـه صـدر الممالـك، وكان يعلّـم بعـض الشـاهات، تجـاوز عمـره التسـعين واعتـزل العمـل، كان حيـا سـنة 957هــ/1550م، تـوفي في شـيراز، يقـال إنـه عـرف مقامـات الصوفيـة الأربعـة الناسـوت واللاهـوت والملكـوت والجـبروت، وعـرف بارتدائـه الثيـاب السـوداء، لـه عـدة كتـب أهمهـا: شرحـه لمثنـوي مـوردة الأسرار للشبسـتري، بعنـوان «مفاتيـح الإعجـاز في شرح كلشـن راز»، وديـوان شـعر. آقـا بـزرگ الطهـراني: الذريعـة إلى تصانيـف الشـيعة، دار إحيـاء الـتراث العـربي، بـيروت، 2009 م، ج21، ص 195، «معجـم الفلاسـفة. الفلاسـفة- المناطقـة- المتكلمـون- اللاهوتيـون- المتصوفـون»، إعـداد: جـورج طرابيـشي، بـيروت، 1987م، ص523-522.

(72) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 87 ص 88

قويونلي، وكان يرافقها دوما عدد من القساوسة. وكانت كل من كاترينا ومارتا يكرهان العثمانيين السنة الذين احتلوا طرابزون، بلاد أجدادهم وآبائهم، وقاموا بإبادتهم. فضلا عن كره مارتا لإخوتها غير الأشقاء من أبناء أوزون حسن، ممن قتلوا أخاها الشقيق الأمير مقصود خنقا بعد وفاة والدهم. وكان أخوها يعقوب بن اوزون حسن من جهة أخرى قاتل زوجها حيدر، الذي قطع رأسه بناء على فتوى فقهاء سنة من الذين أفتوا بجواز قتل حيدر، وكانت تحمل مارتا حقدا كبيرا على الحكم السني الآق قويونلي الذي نفاها بصحبة أبنائها وسجنهم لأربع سنوات ومن ثم قام بقتل أحدهم وهو يار علي، وتسبب في تشريدها مع أبنائها إبراهيم وإسماعيل.

يذكر المؤرخ الدكتور أمير حسين خنجي بأن مارتا كانت تلقن إسماعيل طيلة فترة نشوئه مظلومية أسرتها والأسرة الصفوية على صورة قصص ليلية، وتزرع لديه أحاسيس الثأر والانتقام من السنة وحكوماتهم ويتجلى هذا الحس فيما بعد في سلوك إسماعيل الذي سيقوم بإبادة قتلة أبيه وأخيه وعوائلهم، وكل من يعارض خطته في التحول المذهبي بإيران [(73)].

من جهة ثانية تأثر إسماعيل بالعقائد الشيعية التي كانت رائجة منذ زمن بعيد في لاهيجان، وتحديدا كان متأثرا بالسيد كاركيا ميرزا علي حاكمها الذي استضافه لديه، والذي كان من السادة العلويين ووارثا لتاريخ طويل من وقوف أهالي تلك المناطق الشمالية من إيران من أهالي جيلان ومازندران أي الديلم وطبرستان مع الأسر العلوية النازحة إلى تلك المناطق والتي أسست عدة دول شيعية مر ذكرها في الفصل الأول، وكانت هذه المناطق تقيم سنويا مجالس العزاء لمصائب أهل البيت(ع)، وتتذكر ما مر على الإمام علي والإمام الحسين(ع)، وكان إسماعيل متأثرا بهذه المجالس، وحاقدا على من تسبب بتلك المآسي الأليمة بحق أهل البيت(ع). ولذا تشكل لديه تصور عام بأن كل سني يعترف بالخلفاء السابقين هو داعم للظلمة وقتلة أهل البيت(ع) ومنحرف عن الحق وشريك معهم، وهو تفكير خطير جدا، يحمّل أجيالا بعيدة عن تلك الوقائع التاريخية مسؤولية ما مضى، وهذا ما انعكس بشكل واضح في سلوكيات إسماعيل عند وصوله إلى سدة الحكم[(74)].

وأما المؤثر الثالث والأهم في تنشئة العقيدة لدى إسماعيل فقد كان يتمثل في تأثير أهل الاختصاص فيه، حيث كان هؤلاء يحملون أفكارا وعقائد غالية ومتطرفة، متأثرين بعدة مذاهب وطرق، أهمها المذهب النصيري[(75)] والطرق البابائية[(76)] والبكتاشية[(77)] وكانت تشترك جميعها في العقيدة المغالية اتجاه الإمام علي وأبنائه (ع)، وتعتقد بحلول الله في أجسادهم، وتعتقد بتعطيل الفرائض والشرائع

(73) د. أمير حسين خنجي: مصدر مسابق، ص78.

(74) المصدر نفسه: ص 82.

(75) النصيرية مؤسسها محمد بن نصير النميري، كان من أصحاب الإمام الحسن العسكري وانحرف عنه وأسس فرقة مغالية كانت تؤله الإمام عليا وأبناءه. للتفصيل راجع: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: مصدر سابق، ج1 ص192 ص193. وسعد رستم: الفرق والمذاهب الإسلامية، دار الأوائل، بيروت، الطبعة السابعة، 2009 م، ص 264، 280.

(76) البابائية: مؤسسها بابا إسحاق الكفرسودي التركماني، قاد ثورة صوفية ضد المغول في سنة638 ه، وقتل في المعركة. د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص330 ص331.

(77) البكتاشية: مؤسسها محمد بن إبراهيم بن موسى الخراساني وكان من أتباع بابا إسحاق الزعيم البابائي وكان يلقب ببكتاش وهو لقب تركي يقارب معنى الأمير وكان يدعي النسب العلوى. للتفصيل راجع: المصدر نفسه: ج2 ص 334.. 342.

بحجة اكتمال اليقين، وكانت تحلل شرب الخمر وتتطرف في تقديس مشايخها وتصل بهم إلى حد الألوهية أيضا. ويمكن أن نجد جميع هذه العقائد في أفكار الصفويين من بعد جنيد، الذي سافر إلى الأناضول وتأثر بأفكار أتباع هذه الطرق والشيعة الغلاة فيها، وتحول مذهبيا إليها، وقد مر في البحث الإشارة إلى تقديس أتباع الطريقة الصفوية لجنيد وحيدر واعتبار الأول إلهاً والثاني ابن الإله. وهذا الاعتقاد بقي ساريا في زمن نشأة إسماعيل على يد أهل الاختصاص، الذين كانوا يحملون هذه العقائد ويعملون بها ويكرسونها لدى إسماعيل(78).

ويعتقد الباحث فاروق سومر بأن أتراك الأناضول بذلوا جهودا كبيرة لتلقين سلاطين وشاهات عصرهم عقائدهم وأفكارهم، ولم يكن إسماعيل استثناء من ذلك، ولهذا يمكن مشاهدة وتتبع الفروق الكبيرة بين تشيع إسماعيل والتشيع المنتشر في إيران. وكشاهد على ما يذهب إليه فاروق سومر، نقرأ في كتاب حقيقة التواريخ بأن شاه إسماعيل وبعد تسنمه المنصب عقد اجتماعا موسعا لبحث المذهب الذي يجب أن يعمم، وكانت بعض الآراء الصوفية تقترح تعميم المذهب الصوفي الحيدري الجلالي، ولكن تم نقد الفكرة والأخذ بالمذهب الشيعي الاثني عشري كمذهب رسمي للدولة. ويعتقد الدكتور عبد الحسين زرين كوب بأن إسماعيل في بدايته وبسبب تلقي علومه من السيد كاركيا علي ابتعد عن العقائد المغالية، ولكنه سرعان ما رجع إليها بفعل ابتعاده عن لاهيجان، وتأثير عقائد أتباعه من أهل الاختصاص فيه عند تأسيس الدولة.(79)

أولا/ تأسيس الجيش والتحرك نحو إقامة الدولة الصفوية:

لم ينقطع أتباع الطريقة الصفوية ومريدوها عن زيارة المرشد الكامل على وجبات، تبلغ الواحدة عشرة أفراد، حتى لا تثير ريبة الحكام وكان لهذه الزيارات وقع كبير في قلب إسماعيل. حيث كان هؤلاء الزوار يبكون عند لقائه ويتذكرون مصائب أهل البيت في حضرته ويربطونها بمقتل جنيد وحيدر وعلي ويلعنون قتلتهم، ويطالبون إسماعيل بأخذ الثأر من قتلة أبيه في مشهد حزين وعاطفي ومستمر طيلة بقاء إسماعيل في لاهيجان(80).

وبعد مدة خمس سنوات وبنصيحة من أهل الاختصاص عزم إسماعيل على التحرك نحو أردبيل وتأسيس الدولة الصفوية، وما قوّى من عزيمته حدوث نزاعات حادة داخل الأسرة الآق قويونلية والتي كانت أخبارها تصل إلى إسماعيل وأتباعه، لذا قام بمراسلة خلفاء الطريقة في الأناضول طالبا منهم إعداد جيش قوي له من أتباعه، لغرض القيام وإسقاط حكومات الآق قويونلية.

وبالفعل تشكل جيش قوامه سبعة آلاف جندي من القبائل التركمانية، وانضم إليهم إسماعيل في منطقة قريبة من أردبيل فتمت مبايعته هناك. والملاحظ بأن الجيش الصفوي الذي كان قد تسمى بالقزلباش في زمن حيدر لم يضم في صفوفه غير ثلاثة إيرانيين وكانت القبائل التركمانية كما يلي(81):

---

(78) د. حسين مير جعفري و د. مرتضى دهقان نژاد وحميد حاجيان پور: انديشه غاليانه در طريقت صفوى، فصل نامه انديشه دينى، ناشر دانشگاه شيراز، شيراز، زمستان 1385 ه. ش، ص 95 ص 96 ص 101 .

(79) المصدر نفسه: ص 111 ص 112.

(80) د. أمير حسين خنجي: مصدر سابق، ص 83.

(81) أ.د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 49 ص 50.

قبيلـة روملـو: أقـدم مريـدي الأسرة الصفويـة وكانـوا مـن سـلالة أسرى الحـرب الأتـراك الذيـن وهبهـم تيمورلنـك للشـيخ عـلي سـياه بـوش الصفـوي و بتحريـره إياهـم أصبحـوا مـن أشـد مريـدي الأسرة ولاءً.

قبيلـة شـاملو: تنتسـب هـذه القبيلـة التركمانيـة إلى الشـام لقدومهـا مـن أطـراف حلـب وسـائر المناطـق الشـمالية لبـلاد الشـام، وقـد تقلـد زعماؤهـا الوظائـف الكبـيرة طـوال عهـد الحكـم الصفـوي، وكان عـلى رأسـهم حسـين بـك للـه خـان أحـد السـبعة مـن أهـل الاختصـاص.

قبيلـة اسـتاجلو: قبيلـة تركمانيـة كانـت منتـشرة في منطقـة أرزنجـان في أرمينيـا وسـاند أفرادهـا الدولـة الصفويـة منـذ بدايـة نشـأتها.

قبيلـة تكلـو: قبيلـة تركمانيـة كانـت تسـكن أطـراف قونيـة في آسـيا الصغـرى، وانتـشر أفرادهـا في إمـارة تكـة جنـوبي الأناضـول، وأدت هـذه القبيلـة دورا بـارزا في اسـتقطاب التركـمان إلى الدعـوة الشـيعية في مناطـق مختلفـة مـن الأناضـول.

قبيلة ذو القدر: ترجع أصول هذه القبيلة إلى تركمان مرعش والبستان وسكنت في ديار بكر.

قبيلـة أفشـار: قبيلـة تركمانيـة هاجـر أفرادهـا مـن تركسـتان إلى أذربيجـان و شـمالي بـلاد الشـام تحـت الضغـط المغـولي، وانتـشروا فيـما بعـد بأعـداد كبـيرة مـن المـدن الإيرانيـة.

قبيلـة قاجـار: يتصـل نسـب هـذه القبيلـة التركمانيـة بقاجـار نويـان أحـد قـادة المغـول، هاجرت من أواسـط آسـيا خـلال الاجتيـاح المغـولي وانتـشرت في مختلـف أنحـاء إيـران، كـما اسـتوطن قسـم مـن أفرادهـا أرمينيا والشـام.

قبيلـة ورسـاق: قبيلـة تركمانيـة سـكنت في مقاطعـة قرمـان في آسـيا الصغـرى، هاجـر أفرادهـا إلى أذربيجـان لمسـاعدة الشـاه إسـماعيل في حروبـه.

وانضـم أيضـا إلى الجيـش الصفـوي عـدد لا بـأس بـه مـن التركـمان الصوفيـة بصـورة متفرقـة. ويعتقـد الدكتـور محمـد طقـوش والدكتـور أمـير حسـين خنجـي بـأن ثلاثـة عوامـل رئيسـة حفـزت هـذه القبائـل التركمانيـة عـلى الانضـمام إلى جيـش إسـماعيل الصفـوي:

01 - العامـل المذهبـي: فكـما مـر في البحـث كانـت هـذه القبائـل التركمانيـة تنتمـي إلى مذاهـب غاليـة، و تـرى في الدولـة الصفويـة تحقيقـا لحلمهـا في تأسـيس دولـة تشرعـن وجودهـا وتحمـي عقائدهـا وتنافـس الدولـة العثمانيـة السـنية.

02 - العامـل السـياسي: كانـت هـذه القبائـل تعـاني مـن مضايقـات الحـكام السـنة العثمانيـين والآق قويونليـة وتسـعى إلى تأسـيس دولـة شـيعية، تتمكـن مـن تحقيـق تـوازن دولي في المنطقـة، وتكـون بديلـة عـن مثيلتهـا السـنية.

03 - العامـل الاقتصـادي: عمـدت الدولـة العثمانيـة منـذ عهـد السـلطان محمـد الفاتـح إلى إحـداث تغيـيرات جذريـة في البنيـة الاقتصاديـة لتحقيـق المركزيـة، وذلـك بانتـزاع الأراضي الإقطاعيـة مـن أيـدي أصحابهـا، ومعظمهـم مـن التركـمان وأرادوا بوصـول إسـماعيل إلى العـرش أن يعوضـوا مـا كانـوا قـد خـسروه، والتـف حولهـم أيضـا الغالبيـة السـاحقة مـن الفلاحـين الفقـراء والمضطهديـن [82].

(82) المصدر نفسه: ص 51. ود. امير حسين خنجي: مصدر سابق، ص88.

ثانيا/ شروان المقصد الأول:

كانت الأراضي الآق قويونلية مقسمة بين اثنين من الأسرة، وهما ألوند بيك ومراد بيك، ولم تكن تهدأ العداوة والحروب بينهما، فيما كانت إلى جانبهما دولة شروان الصغيرة، والتي حافظت على استقلاليتها منذ بداية قيام الدولة الآق قويونلية، ولكن لم يفكر إسماعيل بالتحرك صوب الآق قويونلو قبل شيروان، لما كان يعتمل في داخله من رغبة الثأر من حاكمها خليل شروان شاه الذي قتل الشيخ جنيد، ونجله فرخ يسار قاتل الشيخ حيدر، ولهذا كانت رغبة الثأر مقدمة على غيرها، فأعلن لجيشه بأنه ألهم من قبل الله في منامه بضرورة فتح شروان، وبالفعل تحرك الجيش في سنة (906هـ /1500م) نحوها وتمكن من الاستيلاء على عاصمتها شماخي، وقتل فرخ يسار حاكمها في المعركة، وقطع رأسه بأمر من إسماعيل. فيما حصل جيشه على غنائم وثروات كبيرة من شروان. ثم أمر إسماعيل بنبش قبر خليل قاتل أبيه وحرق جثته أمام أنظار أركان الدولة الشروانية، وأمر أيضا بقتل جميع عناصر الدولة وتخريب قصور حكامها، وبذلك شعر إسماعيل بأنه تمكن من أخذ الثار والانتقام لأسرته[83].

ترتب على فتح شروان أربع نتائج هامة صبت في صالح القضية الصفوية[84]:

1 - بدأ الإيرانيون عقب هذا الفتح بالالتفاف حول الصفويين، ورأوا في إسماعيل منقذا لهم من الفوضى التي تسببت بها الأسر العديدة المتصارعة.

2 - إن الغنائم التي حصل عليها دعمت جيشه وضاعفت من قدرته العسكرية، ما أتاح له مواصلة الحرب ومواجهة أعدائه في مناطق أخرى.

3 - وضعت السيطرة على شروان الأسرة الصفوية في موقع المواجهة مع الوند رئيس الآق قويونلو، وبدا هذا ضعيفا بفعل النزاعات الأسرية داخل القبيلة، وأثر مقتل حليفه فرخ يسار حاكم شروان على مكانته.

4 - حكم الصفويون سيطرتهم على مداخل الهضبة الإيرانية من جهة الغرب.

ثالثا / الزحف نحو تبريز وإقامة الدولة الصفوية:

وصلت أنباء فتح شروان إلى مسامع الوند بيك حاكم الجهة الشرقية من حكومة الآق قويونلية وبذلك ارتأى أن يداهن إسماعيل ولكن الأخير فرض عليه شرط الطاعة وتغيير المذهب لمنع نشوب الحرب، وامتنع ألوند من قبول الشرطين فتقابل الجيشان في منطقة نخجوان وسحق الجيش الآق قويونلي من قبل الصفويين، وبذلك تمت السيطرة على أذربيجان. وفي اليوم الثاني دخل إسماعيل لمدينة تبريز عاصمة الآق قويونلي من دون حرب حيث استسلم الأهالي، وتوج فيها إسماعيل ملكا على إيران في سنة (907هـ / 1501م) ولقب «شاهنشاه» أي ملك الملوك، وكان عمره حينها (15) عاما[85].

ج) منذ تأسيس الدولة حتى الوفاة:

أولا: إعلان المذهب الشيعي الاثني عشري مذهبا رسميا للدولة:

عقد الشاه إسماعيل ليلة تتويجه مؤتمرا في تبريز ضم عددا من العلماء ورؤساء القزلباش وبعض أعيان المدينة، وطلب منهم تبيين رأيهم في العقيدة التي ستتبناها دولته، فاقترح عليه البعض البقاء على عقيدة

(83) د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق، ص 257 ص 259 ص 260.

(84) أ.د. محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 54.

(85) د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق، ص 277.

أبيه حيدر، وآخرون رأوا غير ذلك، وبقي هو، فقال إن التشيع الإمامي الاثني عشري سيكون مذهب الدولة الرسمي، وهو الوحيد المسموح به، ولما كانت في تبريز أغلبية غير شيعية تبلغ ثلاثمائة ألف، فقد حذره بعض الموجودين من مغبة رفض السكان لمظاهر التشيع الجديدة قائلين له كما تذكر المصادر (أرواحنا فداك إن أهالي تبريز مائتان أو ثلاثمائة ألف نسمة وكلهم من السنة، ومنذ زمن الأئمة إلى يومنا هذا لم يخطب أحد بهم خطبة شيعية، ونخشى نعوذ بالله أن يقول الناس بأننا لا نقبل بشاه شيعي، فإذا تمردت الرعية ماذا علينا أن نفعل)[86]، فأجاب إسماعيل بحدة وغضب (إنني رأيت جدي أمير المؤمنين (عليا) وهو يقول لي: بني لا تخف ولا تخش، فإذا صارت الجمعة دع القزلباش يحاصرون المسجد، فإذا نطق أحد الناس فعلى القزلباش تدارك أمره، لذا فلن أهتم لشيء، فإن سندي الله وحضرات المعصومين ولا أخاف أحدا، وبإذن الله إذا ما قال أحد حرفا سأستعجله بسيفي ولن أدعه حيا).[87]

وإجابة الشاه على اتباعه تكشف عن مدى اعتقاده بأن ما يفعله ليست إلا رسالة لإشاعة التشيع، كلف بها من قبل الأئمة وإنهم سيحمونه من أعدائه، وهذه لم تكن أول دعوى يتبناها الشاه بل سبق واستخدم الأسلوب ذاته عند حث أتباعه على الشروع بفتح شروان والانتقام لآبائه في بداية حركته العسكرية، إذ ادعى حينها بأنه شاهد مناما وألهم فيه من الله بهذه البداية، وكان له قدسية بين أتباعه، حيث لم يجرؤ أحدهم على مناقشته في مثل هذه الدعاوى. والمسألة الأخرى التي كشف عنها إسماعيل هو الأسلوب الذي سيتبناه في طريقه لفرض التشيع وهو أسلوب السيف والقوة، وتصفية الرافضين لما يعتقد به وهي وسيلة سيستخدمها بكثرة وقسوة.

في اليوم الثاني من الاجتماع وكان يوم جمعة أمر الشاه جنوده القزلباش بجمع الناس في المسجد الكبير بتبريز، وأصدر أوامره بقتل كل من سيعترض على خطبته. وكان القزلباش منتشرين بسيوفهم بين المصلين، فأقام الخطبة و سيفه بيده، وذكر فيها أسماء الأئمة الاثني عشر ولعن الخلفاء الثلاثة أبا بكر وعمر وعثمان وأمر الناس بلعنهم، فلم يستجيبوا في البداية مستغربين مما يطلب منهم، ولكن تكرر الطلب وارتفاع سيوف القزلباش أجبر الناس على اللعن والالتزام بالأوامر[88].

أصدر الشاه أوامر مذهبية وأمر بنشرها وإلزام الناس بها بالقوة، وقد كانت [89]:

- المذهب الرسمي للدولة هو المذهب الشيعي الاثنا عشري ولا يجوز لأي مواطن اتباع مذهب آخر.
- يضاف إلى خطبة الجمعة أسماء الأئمة الاثني عشر ولعن الخلفاء الثلاثة.
- يضاف إلى الأذان عبارتا «أشهد أن عليا ولي الله» و«حي على خير العمل».
- التزام جميع المواطنين بالطريقة الشيعية في الصلاة والوضوء ويقطع رأس المتخلف.
- صك النقود باسم الأئمة واستبدال العملة السابقة بها.
- إلزام جميع الرجال بارتداء الزي والعمامة القزلباشية حتى سميت إيران ببلاد القزلباش من قبل أعدائها.

---

(86) المصدر نفسه: ص277 نقلا عن مؤلف ناشناس: عالم آراي صفوي، به كوشش يد الله شكرى، انتشارات بنياد فرهنگ ايران، تهران، 1350 ه ش، ص 64.

(87) المصدر نفسه: ص 277 نقلا عن المصدر ذاته ص 64.

(88) المصدر نفسه: ص 278 نقلا عن المصدر ذاته: ص 65.

(89) قاضي احمد بن شرف الدين الحسين الحسيني القمي: خلاصة التواريخ، محقق إحسان اشراقى، قم، انتشارات مركز علوم إسلامي، ج1 ص 73.

وقد ظهرت جماعة تعرف «بالتبرائيان»، وهي زمر من القزلباش وقفوا أرواحهم وأبدانهم للشاه، كانت تدور هذه الجماعة في الأسواق والأزقة وتردد عبارات الولاء لآل البيت والبراءة من أعدائهم ومخالفيهم وشتمهم، وكان على الناس أن تردد عبارة «بيش باد، كم مباد»، ومعناها باللغة الأذرية الموافقة والاستزادة، ومن كان يمتنع يتولى أفراد الجماعة فصل رأسه عن جسده(90).

لم يكتف، شاه إسماعيل بإلزام الناس تغيير مذاهبها، بل أصدر أوامره بقتل كل من كان له يد في إيذاء الشيعة سابقا، فقتل أعدادا كبيرة جدا من الناس، يصل عددهم إلى (20) ألف شخص بحسب المصادر، وأمر أيضا بنبش قبور حكام الآق قويونلو وحرق أجسادهم وتخريب مقابرهم، كما أصدر الشاه أمرا بقتل (800) شخص من رجال الحكومات السابقة وإلقاء جثثهم في النار(91).

إن هذه القسوة من قبل الشاه إسماعيل كانت على درجة أثارت انتباه سائح إيطالي شاهد ما جرى عن قرب، فكتب في مذكراته: (أشك بوجود حاكم ظالم ومتعطش للدماء كإسماعيل منذ زمن نيرون إلى يومنا هذا)(92).

ثانيا: أسباب اختيار المذهب الشيعي الاثني عشري من قبل شاه إسماعيل:

عند تتبع المصادر التاريخية والدراسات المختلفة، التي بحثت الحكم الصفوي وفترة نشوء الدولة الصفوية، يمكن الوقوف على بضعة أسباب كانت وراء اختيار المذهب الشيعي الإمامي مذهبا رسميا للدولة من قبل شاه إسماعيل. ومع هذا فعند مقارنة الأسباب في الظرف التاريخي ولحظة نشوء الدولة، والممارسات المتبعة في تثبيت المذهب الشيعي، نواجه تحديا كبيرا في إمكانية تبرير كل ما ورد من أسباب تبريرا منطقيا، ولذلك سنعرض تلك الأسباب المذكورة ونسعى إلى مناقشها للخروج بنتائج يمكن أن تكون أكثر منطقية وقبولا.

حيث تذكر المصادر المختلفة ثلاثة أسباب وعوامل رئيسة لاختيار المذهب الشيعي، وهي:

أ: العامل القومي: وهو الاتجاه الأكثر قبولا من قبل المؤرخين القوميين الإيرانيين وبعض المستشرقين، وخلاصته أن شاه إسماعيل كان ينوي توحيد الإيرانيين تحت راية التشيع وإنهاء حالة التشتت والضياع لدى الشعب الإيراني وخلق هوية ذاتية له.

ويقول في ذلك عبد الحسين زرين كوب (حين تصدى الشاه إسماعيل لبناء دولته الكبيرة اصطدم بأنها دولة تتكون من حوالي ثلاثين تجمعا عرقيا ومذهبيا مختلفا، وكان الاختلاف بين هذه التجمعات وتعقيدات التضاريس الجغرافية، ومن ثم سوء طرق المواصلات وما نتج عنه من انغلاق وعزلة، كل هذا أدى إلى احتفاظ كل مجموعة بلغتها وعقائدها ومسلماتها الروحية وخصوصياتها الاجتماعية، وبفعل التقادم الزمني أضحت لكل مجموعة مصالحها الضيقة، بل وهويتها الفرعية، فرتبت أوضاعها تبعا لهذه المصالح، فإيران تضم إلى جانب التاجيك والتركمان أعراقا عربية وطورانية وكردية وغيرها فضلا عن مذاهب دينية مختلفة يحول تنوعها دون إيجاد وحدة قومية أو مذهبية)، ويؤيد زرين كوب في ذلك الباحث الإيراني مجير الدينشيباني ويضيف إليه (إن بروز اللغة التركية بوصفها نداً للغة الفارسية منذ القرن العاشر

(90) المصدر نفسه: ج1 ص 73.

(91) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص 279 ص 280.

(92) جوزا فابابارو وآخرون: سفرنامه هاي ونيزيان در ايران، ترجمه منوچهر اميرى، نشر خوارزمى، تهران، 1349 ه ش، ص 436.

الهجري/ السادس عشر الميلادي، كان من شأنه أن يفاقم الاختلافات العرقية والمذهبية بين مكونات سكان إيران) لذا تمكن الشاه إسماعيل أن يعبئ الطورانيين والعرب والتاجيك والكرد لمحاربة أبناء عمومتهم من عثمانيين، وأوزبك وآق قويونلو ومشعشعين وشروانيين وغيرهم وتوحيدها في كيان واحد عن طريق زجها في مشروع سياسي واحد ذي هوية مناسبة ليكون منهم الدولة الوطنية أو الأمة فتصور إسماعيل أن الأيديولوجية المذهبية تصب في صالح الدولة الجديدة وتعطيها قدرة تخرجها من المحن وتمكنها من التغلب على مشاكلها وتجعلها تخطو إلى الأمام بثقة، وإذا ما تفانى الإيرانيون بالدعوة إليها «المذهب الإمامي» وبذلوا الجهد في نشرها على حساب القوى الأخرى يمكن للشاه أن يصادر هذا الجهد لصالح مشروعه السياسي وتجيير هذه الجهود لصالح توسعة الدولة وتثبيت أركانها[93].

ويؤيد الدكتور حسن كريم الجاف هذا الرأي ويورد السبب القومي عاملا لإعلان التشيع مذهباً رسمياً: (لقد أدرك الشاه اسماعيل بنظره الثاقب التأثير الديني في قوة دولته واستوعب حقيقة أن الشعوب المختلفة الأعراق القاطنة في إيران، والتي تختلف في مستوياتها الاقتصادية والاجتماعية، لا يمكن توحيدها بسهولة في بوتقة دولة واحدة إلا عن طريق فرض مذهب واحد عليهم، وانطلاقا من هذا المبدأ فرض المذهب الشيعي الاثني عشري على الإيرانيين وجعل من نفسه داعياً للتشيع وحامياً له في كل مكان)[94].

إن نظرية تخطيط الشاه إسماعيل لوحدة إيران تحت لواء التشيع ومن خلال فرض المذهب الواحد، وتوحيد الشعب الإيراني وخلق هوية موحدة له، والسعي نحو إعادة الإمبراطورية الفارسية كما ذكر من قبل الباحثين، هي فرضية تصطدم بجملة من الحقائق، ونعتقد بعدم صوابها لحظة نشوء الدولة الصفوية، ولا يمكن اعتبار ما حصل إلا نتيجة وليس عاملا رئيسا، وللأسباب الآتية:

- **أولا:** لا تذكر أي من المصادر التاريخية بأن إسماعيل عندما عزم الخروج من لاهيجان، كان يخطط للسيطرة على إيران من مبدأ قومي إيراني، ونقرأ في المصادر المتوفرة أن إسماعيل كان ينوي الخروج للانتقام من قتلة أهله من الشروانيين وحكام الآق قويونلية، وكان هدفه الوحيد في بداية الأمر الاستيلاء على أردبيل وتبريز أي أذربيجان تحديدا، لإقامة ولاية مستقلة يمكن له ولأتباعه فيها القيام بطقوسهم الشيعية بحرية تامة. وهذه النوايا تأتي في السياق الصحيح إذا قورنت بصغر سنه واحتوائه من قبل أتباعه التركمان القزلباش الذين لم يكونوا أساسا إيرانيين لينموا فيه النزعة القومية، كما لاوجود لعناصر إيرانية في صفوف جيشه، حتى ما بعد فتح تبريز وإعلانه ملكا على إيران، ولهذا فإن تصور إمكانية التخطيط السياسي بكل تلك الحنكة المفترضة وبمعزل عن تأثيرات القزلباش التركمان وتثبيت النزعة القومية هو أمر مستبعد للغاية.[95]

- **ثانيا:** لم يتطرق إسماعيل لا في الاجتماع الذي عقد ليلة تتويجه ولا في خطبة التتويج التي ألقاها في المسجد الكبير في تبريز لأية نية في توحيد إيران قوميا، ولم يذكر عنه على أي ثناء على القومية الفارسية، وكانت الخطبة مركزة على تثبيت التشيع مذهبا رسميا، وعلى أوامر سب الخلفاء وتأسيس التبرائيين لتطبيق الأوامر بقوة السيف، وعلى الانتقام من قتلة أهله وأعداء الشيعة ونبش قبور الحكام السابقين.

---

(93) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 166.

(94) د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج3 ص 18 ص 19.

(95) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص 691.

- **ثالثا:** ينتقد البروفيسور إيليا بطروشفسكي اعتبار الدولة الصفوية دولة قومية وطنية عند نشوئها ويستدل بتفوق النفوذ التركماني القزلباشي، ودوره الرئيس في تأسيس الدولة واستمرار هذا الدور إلى زمن الشاه عباس الأول عند اقراره لخطة الإصلاحات العامة، وإن دور الإيرانيين في حكومة شاه إسماعيل تحديدا لم يكن إلا دورا ثانويا، وأن اللغة التركية بقيت هي السائدة في أوساط الجيش والبلاط، واللغة الفارسية كانت لغة المكاتبات والمراسلات بسبب اتساع رقعة الدولة التي شملت فيما بعد المساحة الأكبر لإيران ذات الأغلبية الفارسية، علما بأن جميع أشعار شاه إسماعيل كانت باللغة التركية، وحول لقب «شاهنشاه» وعلاقتها بالإمبراطورية الساسانية الفارسية، فيعتقد بطروشفسكي بأنه لقب يدل على الملكية المطلقة أكثر من دلالته القومية [96].

وتضيف دراسة جامعة كامبريدج البريطانية بأن الإمبراطورية الصفوية كان قوامها العنصرين التركي والفارسي، وإن هذين العنصرين لم يختلفا في اللغة والأعراف فقط، بل كان اختلافهما الأكبر يتمثل في الجذور والثقافة، حيث كان التركمان ينتمون إلى البدو الرحل الرعاة، وكان الفرس ينتمون إلى القرى الزراعية والمدن والتجارة، ولذا التحمت شخصية الشاه بالعنصرين ومن الصعب جدا معرفة نزوعه إلى أي من هذه العناصر بصورة واضحة. وتعتقد الدراسة بأن لحظة نشوء الدولة كان من الممكن أن تكون الدولة تركية بهامش فارسي أو دولة فارسية إيرانية بهامش تركي، ولذا لايمكن تحديد النزعة القومية لدى الصفويين إلا في الأدوار التي أعقبت نشوء الدولة. ومن ناحية أخرى تعتقد الدراسة بأن المفاهيم الوطنية بمعناها المعاصر، دخلت من أوروبا في وقت متأخر، وكان الشعب الإيراني يدرك حينها اختلافاته القومية وتمايزه الثقافي بين مكوناته[97].

إن نظرية إعلان التشيع من أجل الوحدة القومية من قبل شاه إسماعيل، تصطدم بعدم وجود نزعة قومية واضحة من قبل الشاه أساسا، وتصطدم بالوقائع التاريخية، حيث لم يتمكن الشاه من تحويل جميع الإيرانيين إلى التشيع، وهذا ما لم يحصل إلى هذا اليوم وأن الغلبة الشيعية حصلت في زمن خلفاء إسماعيل وليس في زمنه، وإن وحدة إيران عمليا حصلت من خلال القوة العسكرية والظروف الداخلية والإقليمية التي ساعدت الشاه على إحكام السيطرة على البلاد وليس وحدة المذهب.

فمن الناحية الداخلية، تمكن الشاه إسماعيل خلال (13) عاما من تاريخ (906هـ /1500م إلى 920هـ / 1514م) من إحكام سيطرته على العراق وعلى خوزستان التي كانت تحكم من قبل المشعشعين الشيعة، وعلى أقاليم فارس وخراسان وقسم من بلاد ما وراء النهر، وفي النهاية على جميع الأراضي الإيرانية. وعند مراجعة المصادر التاريخية يمكن ملاحظة العوامل الرئيسية التي ساعدت إسماعيل على هذه الانتصارات المتتالية، وهي عامل الفراغ السياسي - العسكري: ويعني بأن الكثير من هذه الولايات كانت تعاني من عدم وجود حكم سياسي متماسك، وذلك بسبب الحروب الداخلية بين السلالات الحاكمة، التي كانت تحكم كل منها ولايات مختلفة في إيران وبصورة مستقلة، ولذلك كان من الصعب عليها ومن دون تحالفات عسكرية أن تصمد أمام الجيش الصفوي الفتي، والملاحظ أن الكثير منها سقطت أمام القزلباش رغم تفوقها في العدد

(96) بروفسور ايليا باولو لويچ بطروشفسكي: اسلام در ايران از هجرت تا پايان قرن نهم هجرى، ترجمه كريم كشاورز، انتشارات پيام، تهران، چاپ هفتم، 1363 ه. ش، ص 393.

(97) پژوهش دانشگاه كمبريج مصدر سابق، ص 45 ص 46.

والعتـاد[98]، مـما يؤكـد عـدم وجـود ولاء سـياسي للجيـوش المقاتلـة اتجـاه حكامهـا، وانعـدام شرعيـة الحاكـم اتجاه رعايـاه الذيـن كان أغلبهـم يفضلـون تسـليم مدنهـم[99] مـن دون قتـال، وكذلـك عـدم وجـود منافـس سـياسي وعسـكري مقتـدر ومتماسـك، كل ذلـك كان قـد سـهل كثـيرا مـن فتوحـات شـاه إسـماعيل، وأثبتـت الأيـام بـأن الجيـش الصفـوي لم يتمكـن مـن الصمـود أمـام الجيـش الانكشـاري العثـماني المقتـدر في معركـة جالـدران، ولم يتمكـن مـن فتـح مـدن كرديـة جبليـة صمـم الأهـالي فيهـا عـلى المقاومـة والتمسـك بحكامهـا[100].

ومـن الناحيـة الإقليميـة فـإن وجـود سـلطان مسـالم كـ بايزيـد الثـاني عـلى رأس الحكومـة العثمانيـة المجـاورة للحـدود الغربيـة، ووجـود سـلطة تيموريـة مسـالمة في الحـدود الشرقيـة مـن إيـران كانـت مـن أهـم عوامـل نجاحـه في الداخـل مـن دون هواجـس أجنبيـة. وهـذا مـا يعـبر عنـه الدكتـور منوچهـر پارسـا دوسـت «بالصدفـة التاريخيـة والحـظ الصفـوي العظيـم»[101].

حيـث قـام الشـاه إسـماعيل بمهاجمـة أحـد خصومـه «عـلاء الديـن ذو القـدر» حاكـم النواحـي الشرقيـة للأناضـول في سـنة (913هــ / 1507م) وكانـت دولتـه دولـة صغـيرة تقـع بـين الدولتـين العثمانيـة ومماليـك مـصر، فقـام الشـاه بالتعـدي عـلى الحـدود العثمانيـة والدخـول إلى أراضيهـا للوصـول إلى عـلاء الديـن، مـما يعـبر عـن انتهـاك صـارخ للحـدود وتحـد جـريء للعثمانيـين، ولكـن إسـماعيل تـدارك الموضـوع بإرسـال رسـالة للسـلطان وتوضيـح الموقـف لـه بأنـه لم ينـو مهاجمـة العثمانيـين، وأنـه اسـتخدم أراضيهـم فقـط للمـرور[102]. وقـد كان رد السـلطان برسـالة تاريخيـة تنـم عـن ميلـه للصلـح والسـلام مخاطبـا إسـماعيل (بالحاكـم الأعظـم وصاحـب التـاج الأكـرم، ملـك ممالـك العجـم.. شـاه إسـماعيل..) معترفـا بـه ملـكا لإيـران ومتقبـلا لعـذره، وزاد عـلى ذلـك بأنـه بـشر إسـماعيل بإصـداره أوامـر للحـكام العثمانيـين بتسـهيل مـرور الشـاه والسـعي في حفـظ الوحـدة وعلاقـات الدولتـين، وجعلهـا علاقـات طيبـة وخالصـة وديـة. وهـي رسـالة هامـة لم تصـدر إلا نـادرا مـن سـلطان بحجـم السـلطان العثـماني مـع تفوقـه العسـكري و السـياسي المطلـق[103] وكانـت الدولـة الثانيـة المجـاورة لإيـران في حدودهـا الشرقيـة هـي الدولـة التيموريـة التـي كان حاكمهـا السـلطان حسـين بايقـرا التيمـوري، وكان سـلطانا مسـالما ومنشـغلا بإعـمار بـلاده وكان شـيعيا يسـعى إلى تحويـل رعايـاه إلى التشـيع بصـورة تدريجيـة ومـن خـلال عمـل ثقـافي مسـالم، ولـذا لم يعـارض ظهـور شـاه اسـماعيل ولم يسـع إلى حربـه. فوجـود هاتـين الحكومتـين المسـالمتين في الغـرب والـشرق عنـد ظهـور الدولـة الصفويـة في (907هــ) سـاعدت شـاه إسـماعيل عـلى تصفيـة خصومـه الداخليـين الضعفـاء، وبسـط سـيطرته المطلقـة عـلى البـلاد ولولاهـما لـكان مـن الصعـب جـداً أن تقـاوم الدولـة الصفويـة وتصمـد أمـام التحديـات الأجنبيـة[104].

---

(98) يذكـر د. منوچهـر پارسادوسـت بـان شـاه إسـماعيل قاتـل مـراد بيـك الآق قويونلـو ب 12 ألـف مقاتـل في مواجهـة جيـش كان قوامـه 70 ألـف ولكـن سرعـان مـا حسـمت المعركـة لصالـح الصفويـين. د. منوچهـر پارسـا دوسـت: مصـدر سـابق: ص 289.

(99) تذكـر المصـادر بـأن قاطنـين مدينـة أمـد في دياربكـر قتلـوا حاكمهـم وسـلموا المدينـة للجيـش الصفـوي خوفـا مـن الإبـادة الجماعيـة. المصـدر نفسـه: ص 300.

(100) المصدر نفسه: ص 289، ص 304.

(101) المصدر نفسه، ص 299.

(102) وكانـت نيتـه الرئيسـية هـي عمليـة اسـتعراض القـوة أمـام شـيعة الأناضـول وتحـدي القـوة العثمانيـة وحـث الشـيعة للالتحـاق بجيشـه وتحركاتـه. المصـدر نفسـه: ص 299.

(103) المصدر نفسه: ص 299.

(104) المصدر نفسه: ص 688.

وهذه العوامل الداخلية والأجنبية تؤكد ما نذهب إليه بأن إعلان التشيع بغية تحقيق الوحدة القومية لم يكن عاملا يعول عليه كثيرا في بدء تأسيس الدولة ونجاحها لحظة النشوء، بسبب عقلية الشاه وأسلوبه في إدارة الأمور على أساس الغلبة والقوة، وبسبب الوقائع التاريخية التي تؤكد ذلك، وكل ما يمكن قوله هو أن تماسك الدولة وتحول المجتمع تدريجياً إلى المذهب الشيعي، قد ساعد كثيراً على تكريس الوحدة الوطنية في فترات أعقبت حكم الشاه إسماعيل.

ب: العامل الإقليمي: ثمة رأي آخر يذهب إلى أن شاه إسماعيل أعلن التشيع مذهبا رسميا للدولة بغية إيجاد عامل فارق يميزه عن جواره السني، وبذلك يتمكن من ضمان الوحدة الوطنية، وعدم تدخل القوى الإقليمية في شؤونه الداخلية من خلال مشترك المذهب والتأثير على مواطنيه، وأيضاً تأسيس شرعية مذهبية خاصة به، تخرجه من طوق التبعية لأية شرعية منافسة له في المذهب. يقول في ذلك الوائلي (أدرك الشاه أن دولته الوليدة تقع بين كيانات سياسية عريقة ذات اتجاهات فكرية مستقرة، فمن الشرق تجاوره دولة الأوزبك السنية ومن الغرب تجاوره دولتا المماليك السنية والعثمانية البكتاشية الصوفية، فكان عليه أن يتبنى هوية عقيدية مختلفة عن هويات هذه الدول، لأن اتخاذه المذهب السني كان يستلزم انضواء إيران والشاه تحت سلطان المماليك أوالأوزبك، لأنه وعلى وفق الفقه السياسي السني لايمكن القبول بوجود سلطانين في آن واحد، وكذلك الحال إذا ما استمر على عقيدته الصوفية بالنسبة للعثمانيين، كما يمكن أن يمثل ذلك خطرا مستقبليا على دولة الشاه إذا ما تمكن الجيران من انتزاع تأييد بعض الإيرانيين مستغلين الانتماء المذهبي لهؤلاء، وهكذا فإن تبني التشيع أوجد تمايزاً عقيدياً واضحاً ليس عن القوى المجاورة حسب، بل وعن الدول الكبرى التي سبق وأن تأسست في إيران، فحصلت الدولة الصفوية الوليدة بموجب ذلك على هوية الأرض والسياسة، مع الأخذ بالحساب الاتجاهات التعايشية الخاصة بإيران)[105]. ويؤيد الدكتور الجاف هذه الرؤية بالقول: (إن ظهور الدولة الصفوية كان نتاجاً ظاهراً لبعث قومي وديني لإيران وكان هذا البعث عاملاً في خلق إيران قوية موحدة، بعد أن كانت جزءاً من الدولة الإسلامية وأصبح المذهب الشيعي عاملاً قومياً ودينياً لدفع الإيرانيين ليقاوموا بشدة وعنف تسلط الدولة العثمانية المدعية وراثة الخلافة الإسلامية وباتخاذهم المذهب الشيعي رسمياً لدولتهم وسعيهم لتقوية هذا المذهب وجعله أساساً ومنطلقاً ثابتاً للوقوف أمام الزحف العثماني المدعي قيادة العالم الإسلامي).[106]

في البداية يمكن تسجيل ملاحظات عامة حول ما ذكر من آراء وهو أن شاه إسماعيل توج في سنة (907 هـ/1501 م) وفي ذلك الحين لم تظفر بعد الدولة الأزبكية بمناطق الحدود الشرقية الإيرانية [107]، والتي تمت عام (914هـ / 1508م). وكانت دولة تيمورية ذات ميول شيعية تحكم هذه المنطقة تحديداً، ومن جهة أخرى كما ذكر في البحث فإن الدولة العثمانية لم تكن راغبة في خوض صراع عسكري لاسيما في ظل

(105) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 167 ص 168.

(106) د. حسن كريم الجاف: مصدر سابق، ج 3 ص 25.

(107) دولة الأزبك: تأسست على يد محمد شاه بخت او شاه بيك خان المشهور بشبيك خان أحد أحفاد جنكيز خان المغول. ولد شبيك خان في 855هـ | 1451م وكان شاعرا كبيرا يتلخص بالشيباني، تمكن من الاستيلاء على أراضي الدولة التيمورية المجاورة للحدود الإيرانية والتوغل في إيران والاستيلاء على خراسان وهرات وجرجان في عام 914م، قتل عام 916 هـ على يد الجيش الصفوي. د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق ص 313 ص 321.

وجود السلطان بايزيد الثاني، المعروف بميوله نحو الصلح والسلم، وعدم الدخول في حروب إقليمية. ولذا يستبعد أن يكون إعلان التشيع من قبل إسماعيل في يوم التتويج محكوماً بنظرة استراتيجية تخشى الجوار، وهناك أدلة كثيرة يمكن ذكرها تدل على أن هذا الإعلان المثير للجدل كان على العكس، فقد عرّض الدولة إلى تحديات واضحة من خلال توجه أنظار الدول المجاورة إليها كونها تمثل خطراً قادماً، وحرّضهم ذلك على محاربتها وتقليص نفوذها وتمددها.

أما القول إن بقاء الدولة الصفوية على المذهب السني كان يجبرها على تبعية الأوزبك أوالمماليك أوالعثمانيين بحسب الفقه السني فهو أمر مردود، على اعتبار عدم تبعية المماليك السنة للعثمانيين، ولا الأوزبك السنة للمماليك أوالعثمانيين، وكان من الممكن أن تكون إيران قوة سنية جديدة، تمكنها قوتها العسكرية من التمدد نحو الأقاليم السنية الأخرى، وتدعي ما يدعون في قيادة العالم الإسلامي، ولكن فرض التشيع مذهباً رسمياً لم يكن تميزاً فاعلا وأداة حقيقية لإقناع شعوب الدول الإسلامية الأخرى بتبعية إيران، خاصة عقب المجازر التي ارتكبت بحق السنة في داخل البلاد. ومن جهة أخرى فإن الصفوية وصلوا إلى سدة الحكم على أنقاض دولة سنية معترف بها من قبل الدول المجاورة، ومن دون تعرضها لغزو إقليمي.

والملاحظة الأهم هي أن العثمانيين لم يكن لهم دعاوى الخلافة، إلا عقب خسارة الشاه إسماعيل في حرب جالدران في (920هـ/ 1514م) وتمكنهم من احتلال العاصمة الصفوية تبريز، ومن ثم احتلال بلاد الشام في (1516م) ومصر في (1517م) وترويج شائعة تنازل الخليفة العباسي المتوكل بالله الذي كان تحت قيمومة المماليك لصالح السلطان سليم العثماني، وفي هذه الأحداث دلالة على أن إعلان التشيع في إيران أجبر العثمانيين على إيقاف توسعهم في أوروبا، والتوجه نحو المشرق، لدفع خطر الصفويين وفرض قوتهم في المنطقة على حساب الدول الإسلامية الأخرى، مما قلص نفوذ الصفويين بدعوى التشيع وفرض العثمانيين أسيادا على العالم الإسلامي السني وبلا منازع [108].

ويعتقد الباحث الإيراني علي كاظمي بأن الاستدلال بالعامل الإقليمي لإعلان التشيع من قبل شاه إسماعيل لا يعتبر دليلا محكما، على اعتبار أن هذا الإعلان فرض على إيران عزلة إقليمية، تعاني منها إلى يومنا هذا، وأن الشعب الإيراني دفع ضريبة كبرى نتيجة إخلاصه اتجاه مبادئه الدينية. ويضيف بأن التشيع تمكن بالفعل في مرحلة استقرار الدولة الصفوية وليس مرحلة نشوئها من إضفاء وحدة وطنية، والحفاظ على هوية مشتركة للشعب الإيراني، ولكن أكثر الباحثين ينظرون إلى الموضوع من رؤية معاصرة، ولم يناقشوا البدائل التي كان من الممكن أن يقوم بها الصفويون، ليحافظوا من خلالها على الوحدة الوطنية والانفتاح الإقليمي، وإذا تصورنا رجوع الشاه إسماعيل إلى طريقة جده الشيخ صفي والسعي في تطبيق مضامينها المتسامحة اتجاه جميع المذاهب والقوميات في إيران، كان من الممكن أن تتوحد إيران تحت راية هذه الطريقة، ومن دون الحاجة إلى إعمال العنف داخليا، ولا فرض عزلة إقليمية على البلاد[109].

(108) وجيه كوثراني: الفقيه والسلطان جدلية الدين والسياسة في إيران الصفوية القاجارية والدولة العثمانية، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 2001 م، ص 47 ص 48.

(109) مقابلة خاصة بالدكتور علي كاظمي المتخصص في تاريخ العلاقات الخارجية الإيرانية في تاريخ 2010 /07 /15/، طهران.

يذهب الدكتور منوچهر پارسادوست إلى أبعد من ذلك، ويعتقد بأن إسماعيل لم يحم إيران من تدخلات الجوار بل عرضه إلى حقدهم وسعيهم لإفناء البلاد، وإسماعيل نفسه كان يتبع سياسة التدخل في الأقاليم المجاورة، من خلال إرسال خلفاء الطريقة وجواسيسه إلى منطقة الأناضول وتحريك الشيعة فيها لتحريضهم بالثورة ضد سلاطين آل عثمان، مما تسبب في ردود فعل شديدة كان منها حملات إبادة الشيعة في الأناضول وحروب مستمرة مع إيران واحتلال عاصمتها لأكثر من مرة، واقتطاع أجزاء كبيرة من الأراضي التي حصل عليها شاه إسماعيل في بداية حكومته، وكان أبرزها العراق ودياربكر وأرمينيا، وتم عزل إيران إسلاميا واعتبر المذهب الشيعي مذهباً منحرفاً، كفّر أتباعه وضيّق عليهم في خارج البلاد. أو أيضا أفضت سياسة إسماعيل في فرض التشيع من خلال حملات الإبادة للسنة وإشاعة سب الخلفاء، وتهديم مقابر رموزهم إلى شق الوحدة الإسلامية إلى يومنا هذا، وتولدت من هذه السياسية أحقاد وصراعات كان من الممكن اجتنابها من خلال احترام مقدسات المذاهب الأخرى والحرية الدينية، ونشر التشيع ثقافيا وليس من خلال إعمال القوة [110].

ج: العامل المذهبي: تذهب بعض المصادر الشيعية إلى أن من أهم عوامل إعلان التشيع مذهباً رسمياً في البلاد كان عقائد الشاه إسماعيل، وإخلاصه للتشيع وسعيه في نشر المذهب وتثبيته، وهو أمر لم يتمكن من فعله السلاطين الشيعة الذين سبقوه في ذلك، ويستدلون على فكرتهم هذه بالخدمات التي قدمها الشاه إسماعيل لنشر التشيع.

يقول كمال السيد (يعزو بعض المؤرخين إقدام الشاه إسماعيل على هذه الخطوة المثيرة إلى إيمانه العميق بأهل البيت «عليهم السلام»)[111].

أورد السيد الأمين في كتابه أعيان الشيعة ترجمة الشاه إسماعيل مؤكداً انتسابه إلى الأمام الكاظم (ع) قائلا: (الشاه إسماعيل الأول ابن السلطان حيدر الحسيني الموسوي الصفوي ابن جنيد.. ابن الإمام موسى الكاظم.. ابن الإمام علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين)، ويذكر في ترجمته نقلا عن الشيخ البهائي: (السلطان الأعظم حامي حوزة الإيمان، قدس الله روحه وكان ابتداء سلطنته المباركة سنة (906هـ).. وهو الذي أظهر مذهب الإمامية في إيران وأمر بقول حي على خير العمل في الأذان، وكان يفتخر بترويج مذهب الإمامية وتأييده حتى إنه أمر بنقش هذا البيت على السكة:

از مشرق تا بمغرب گر امام است علی و ال او ما را تمام است

ومعناه: (لو كان كل الناس من المشرق إلى المغرب أئمة كفانا منهم علي وآله).

ويدافع السيد الأمين عن عقيدة الشاه إسماعيل وسلوكه في مقابل ما ورد في بعض كتب أهل السنة الناقدين للشاه قائلا: (وفي كلامه أشياء من الكذب الصريح ساق إليها أو ساق من أخذها عنه العداوة المذهبية والتعصب قصدا للتشنيع كقوله: أنه أمر جيشه أن يطبخوا سلطان شروان ويأكلوه. وإنه كاد يدعي الربوبية، وأن أصحابه كانوا يعتقدون فيه الألوهية. وأنه رمى منهم بنفسه فوق الألف خلف منديل سقط منه فتحطموا. وأنه كان يسجد له عسكره. ومبالغته في عدد من قتله

(110) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق ص 723 ص 724.

(111) عباس الموسوي وكمال السيد: نشوء وسقوط الدولة الصفوية، مكتبة فدك، قم، 2005 ص 35.

ونسبته إليه قتل العلماء وإحراق الكتب والمصاحف) [112]

وورد في كتب مؤرخي الصفوية في توصيف سلوك الشاه بأنه: (من ابتداء الإسلام إلى زمن خروج حضرة الشاه حامي الدين، لم يتمكن أي من السلاطين السابقين من ترويج الدين ونشر رايات مذهب الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين الحق، وإبطال المذاهب الباطلة الأخرى كما فعل هو. كما يقول أكثر العلماء والعقلاء إن أول ظهور الإسلام يكون مع ظهور وخروج حضرة الشاه، كما ورد في أشعارهم:

زبعد نبي وولي در بلاد چو او كس رواج شريعت نداد

(ومعناه: انه من بعد النبي والوصي لم يروج للشريعة أحد كما روجه الشاه) [113].

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية: (وأمر الشاه إسماعيل أن يؤذن بحي على خير العمل في جميع بلاد إيران، ونقش على النقود اسم علي وآله، ونشر في الأقطار المجاورة لإيران الدعاة لمذهب التشيع، وحين دخل إلى بغداد، وذلك في (25 جمادى الثانية سنة 914هـ)، فرح الناس بقدومه، والتجؤوا إلى عدله، وكانوا ينتظرونه بفارغ الصبر، وأخذوا يقدمون القرابين والذبائح إكراما له، وفي اليوم التالي بلا فاصل توجه إلى كربلاء، وأدى مراسم الزيارة، وبات ليلته معتكفا في الحائر، منكبا على قبر الحسين الشهيد (ع)، وأمر بصنع الصندوق المذهب للقبر الشريف، وعلق بالحضرة (12) قنديلا من الذهب، وفرشها بأنواع السجاد الثمين، كما أمر بصنع صناديق أخرى للنجف الأشرف والكاظمية وسامراء بدلا عن صناديقها القديمة. ثم سافر إلى النجف الأشرف، وتشرف بزيارة المشهد العلوي، وقدم القناديل من الذهب والفضة والمفروشات الثمينة، وفي هذه السنة شرع ببناء حرم الكاظمين والمسجد الكبير المعروف بمسجد الصفويين. وأمر بحفر النهر الذي كان قد حفره عطا ملك، ثم اندثر بمرور الزمن، فجدده الشاه إسماعيل، ووقف ريعه على خدام المشهدين: العلوي والحسيني، هذا إلى حبه وتعظيمه العلماء والعلويين، وإنعامه عليهم بالأموال والمناصب، والاستعانة بأهل الكفاءة والمقدرة على نشر المذهب، وإعلان أسماء الأئمة الاثني عشر على المنابر وفي المحافل، وبشتى المناسبات[114].

ويوجه الدكتور علي الوردي نقدا لما ذكره مغنية ويعتبره وجها من أوجه الحقيقة، وليس كلها، يقول: (إن الإنسان حين ينظر إلى الحقيقة إنما يركز نظره على جانب واحد منها ويبالغ فيه، في حين يغض النظر عن الجوانب الأخرى، وهو إذ يفعل ذلك يعتقد جازما بأن الحق كله معه)[115].

ويضيف الوردي في ترجمة الشاه إسماعيل (إن هذا الرجل عمد إلى فرض التشيع على الإيرانيين بالقوة، وجعل شعاره سب الخلفاء الثلاثة، وكان شديد الحماس في ذلك سفاكا لايتردد أن يأمر بذبح كل من يخالف أمره أو لا يجاريه، قيل إن عدد قتلاه ناف على ألف ألف نفس)[116].

---

(112) السيد محسن الأمين: مصدر سابق، ج 5 ص 99 ص 100.

(113) ابو الحسن القزويني: فوائد الصفوية، تحقيق مريم أحمدي، انتشارات مركز تحقيقات علوم إسلامي، قم، بلا تاريخ، ص 14.

(114) محمد جواد مغنية: مصدر سابق، ص 191 ص 192. ويذكر الشيخ في مصدر هذه المقاطع كتاب تاريخ الشيعة للشيخ المظفر وهذا يشير إلى قناعة الأخير أيضا بما ورد.

(115) د. علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، انتشارات المكتبة الحيدرية، الطبعة الثالثة، بلا مكان، 1383 هـ ش. ج1 ص 44.

(116) المصدر نفسه: ج1 ص 43.

بالتأكيد لسنا بصدد الدفاع عن الشاه إسماعيل أوتخطئته، ولكن ما يهمنا هو أن بعض المهتمين بشؤون هذه الحقبة يعتقدون بأن عامل العقيدة كان من أهم أسباب إعلان الشاه التشيع مذهبا رسميا للدولة، وهذه النقطة بالذات تثير كثيرا من الجدل إذا ما راجعنا المصادر وتتبعنا حقيقة معتقدات الشاه وسلوكه؟ كما مضى في البحث فقد تربى ونشأ الشاه في أحضان والدته ذات الجذور المسيحية، والكارهة للحكم السني الذي تسبب في ترملها وتيتيم أبنائها، وعند انتقال الشاه إلى لاهيجان تأثر بالأجواء الشيعية التاريخية للبلاد وعقائد مضيفيه من أسرة كاركيا العلوية الشيعية وعقائد معلمه شمس الدين اللاهيجي والأمير نجم الصائغ، وكان للقزلباش التركمان المنتمين للتشيع الغالي أيضا أثر كبير في تربيته وبلورة عقائده، وإذا ما قورنت السنوات الاثنتي عشرة من حياته مع نجاحه في الوصول إلى السلطة رغم صغر سنه، وسلوكه في تحكيم أركان الدولة يمكن استنتاج وتتبع العقائد والممارسات وانتسابها إلى أي من الأطراف الأربعة.

إن الشاه إسماعيل اعتقد بالتشيع الاثني عشري تحت تأثير أسرة كاركيا وأجواء منطقة كيلان الشيعية، ومعلمه شمس الدين اللاهيجي المعروف بتعصبه في العقيدة الشيعية خلال مدة خمس سنوات من إقامته في تلك المنطقة[117].

واستدرج الشاه من قبل القزلباش الغلاة نحو عقائد أبيه حيدر وجده جنيد، علما بأن أتباعه كانوا يقدسونه إلى حد الربوبية وينقل تاجر إيطالي عاصر تلك الحقبة وشاهد أجواء إيران عن قرب بأن: (أتباع هذا الصوفي وخاصة جنود جيشه يعبدونه كما يعبدون الله، وبعضهم يذهب إلى الحرب من دون سلاح ويعتقد بأن المرشد سيحفظه من أي سوء.. وكما ينادي المسلمون في العالم بشعار لا إله إلا الله و محمد رسول الله على ألسنتهم، ينادي الإيرانيون بلا إله إلا الله إسماعيل ولي الله، ويعتقد أتباعه بأنه مخلد ولن يموت)[118]. ويذكر مؤرخ إيطالي آخر هو مارينو سانوتو في موسوعته الكبيرة عن أحداث سنة (1501م) وصلتني تقارير بتاريخ ديسمبر (1501م) من سواح إيطاليين زاروا إيران حول نبي جديد خرج في إيران واسمه شاه إسماعيل، ويقال إنه صوفي عمره (14) عاما، ادعى النبوة والألوهية ويساعده في ذلك (40) من خلفاء طريقته)[119].

وإسماعيل نفسه يؤكد هذا المعنى في أشعاره فيذكر في إحداها: (إنني رب ورب، أيها الأعمى تعال، أنت ضال فأنظر، الحق عيانا لا يزال، إنني المطلق من يذكره، أهل المقال).[120]

وهذه الأشعار تضاف إلى دعاوى إسماعيل في تلقيه الأوامر المباشرة من الأئمة من خلال المنامات والإلهام، مما كان يضيف في نفوس أتباعه القدسية والطاعة العمياء له [121]. وهذه العقائد لا تخرج عن سياق ما كان يذهب إليه والده حيدر وجده جنيد المتحول إلى التشيع، بعد هجرته إلى الأناضول والاختلاط بأصحاب الطرق الشيعية والصوفية المغالية كما مر ذكره من النصيرية والبابائية والبكتاشية.

---

(117) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص 694.

(118) عبدالرفيع حقيقت: تاريخ مذهب تشيع، مصدر سابق، ص414.

(119) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص 703.

(120) كولن تيرنر: التشيع والتحول في العصر الصفوي، ترجمة حسين علي عبد الساتر، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، 2008م، ص 133 ص 134.

(121) عبدالرفيع حقيقت: تاريخ مذهب تشيع، مصدر سابق، ص 414.

وعن عقائد أهل الاختصاص السبعة الذين تربى إسماعيل في كنف حمايتهم في لاهيجان يذكر الدكتور الخنجي: (أن هؤلاء كانوا يعتقدون بحلول ذات الله في الإنسان وكانوا لايرون وجوب إقامة الفرائض الشرعية، وكانوا كسائر أتباع الشيخ حيدر يعتقدون بأن إسماعيل إله حي، ويلزمون أنفسهم بإطاعته في كل ما يأمر لجلب رضاه، وكان لهؤلاء السبعة سوابق في قيادة الجيش والمشاركة في الحروب والتعصب المذهبي، وكانوا مربي ومستشاري إسماعيل الدائميين في لاهيجان) [122]. ويضيف الخنجي بأن هؤلاء السبعة كانوا يعملون بالتقية ولا يظهرون عقائدهم الغالية أمام السيد علي كاركيا ويفضلون عدم إطلاعه على عقائدهم) [123].

وتذكر المصادر بأن إسماعيل منذ طفولته في لاهيجان وتحت تأثير الأجواء التي كان يعيش فيها، نشأت فيه قناعة كاملة بأنه «وجود مقدس» وصاحب رسالة عليه أن يؤديها، وفي طريق تأديتها سيحفظ من خلال القوى الغيبية التي يحملها في وجوده [124]. من جهة أخرى يعتقد بأن تطرف الشاه وسلوكه الدموي كان بدافع تأثره بما جرى على والدته وأهله وما كانت ترويه له، مما نمى في نفسه أحاسيس الانتقام والحقد اتجاه كل سني على وجه الأرض ولا يمكن إغفال دور القزلباش المتطرفين أيضا في تأجيج مثل هذه المشاعر والأحاسيس.

وتذكر المصادر، روايات كثيرة عن حب القتل والإبادة والتفنن في طرق التعذيب بحق المعارضين والمدنيين العزل السنة لدى الشاه، منها قتله (20) ألف سني في يوم واحد بمدينة تبريز وإحراق بعض المعارضين والأمر بأكل جثثهم، أو بقر بطون النساء والاعتداء على حرمات المدنيين ونبش قبور الموتى وعلماء المذاهب الأخرى، وإحراق جثثهم وغيرها مما يدل على سلوك غير إنساني وغير ديني، ناتج عن عقد نفسية وأحقاد دفينة لا تتناسب مع طبيعة المذهب الإمامي المسالم، وتعاليمه العقدية والفقهية الإسلامية [125].

لقد كانت حملات الإبادة على وجه لم يتمكن حتى مؤرخو الصفوية من أتباع الشاه التهرب منها في كتبهم حتى قال أحدهم (وجد عند ولادة الشاه قطرات من الدم في قبضته وهي التي كانت سببا في بعض حالات سفك الدم على يديه) [126].

ومن ناحية أخرى لم يكن الشاه ملتزما بالفرائض و واجبات الدين، ولا يولي اهتماما كبيرا للشريعة في مدة حياته القصيرة (38سنة). وعرف عنه حبه للخمور ومراودة النساء، خاصة عقب خسارته في حرب جالديران أمام جيش سلطان سليم العثماني، وكانت أول خسارة يتلقاها في حياته. وذكر بأنه امتنع في أواخر حياته من الطعام مكتفيا باحتساء الخمور ليل نهار[127].

من خلال جمع المصادر التاريخية عن حياة الشاه إسماعيل يمكن استنتاج نزوعه إلى التشيع الغالي

---

(122) د. امير حسين خنجى: مصدر سابق، ص 81.

(123) المصدر نفسه: ص 78 ص 79.

(124) المصدر نفسه: ص 82.

(125) المصدر نفسه: ص 91 ص 99 ص 100 ص 101.

(126) أبوالحسن القزويني: مصدر سابق، ص 5.

(127) د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق، ص 667 ص 669.

تحت تأثير أتباعه القزلباش، وهذا ما يتبين من سيرته وأشعاره وسلوكه، وإلزام الشاه نفسه بالتشيع الاثني عشري لا يمكن أن يفهم بصورة دقيقة إلا إذا سلمنا بتأثره بأجواء لاهيجان الشيعية و حكامها الشيعة، وأن هذه المعاشرة خلقت له تصورا عاما لا معرفة دقيقة عن تفاصيل المذهب، ويؤيد هذا كولن تيرنر قائلا: (كان الشاه إسماعيل و مستشاروه جاهلين بالفقه الإمامي عندما تبنوا مذهب الإمامية دينا جديدا للدولة)[128]. ويعزو تيرنر ذلك إلى: (إن إسماعيل عجز بعد فتحه تبريز من العثور على أية مدونة عن المبادئ العامة للإمامية، ماعدا مخطوطة يتيمة في الفقه كانت في مكتبة خاصة نائية [129].. ولأكثر من عقد لم يعثر في كاشان على فقيه إمامي واحد متضلع، رغم أنها كانت معروفة بدار المؤمنين لشدة تشيعها) [130] ويضيف تيرنر بأن: (مفارقة أساسية في التاريخ الديني الإيراني هي أن ما ظل دينا للدولة في القرون الخمسة الأخيرة، أي التشيع براني الطابع (يعني المؤلف التشيع الفقهي)، قد فرض على الغالبية السنية من قبل حاكم غير شيعي الظاهر ولا براني التوجه، كما أن الصفويين ما كانوا فرسا بالمعنى الأدق، مع أن الأصول الجغرافية الصحيحة للسلالة لم تحدد نهائيا بعد)[131].

الأسباب الحقيقية لاختيار المذهب الشيعي مذهبا للدولة:

كان لدى إسماعيل منذ طفولته أمل كبير في تحقيق طموحات أسرته في الوصول إلى سدة الحكم، ونشر ما كانوا يعتقدون به علانية ومن دون تقية، وأن يتمكن من أخذ ثأرهم من أعدائهم، ولهذا يمكن اعتبار هذه العوامل، أهم أسباب تبني إسماعيل للمذهب الاثني عشري، والتي يمكننا عرضها كما يأتي:

أ: الطموح السياسي: كما مر في البحث أنه منذ زمن جنيد جد الشاه إسماعيل، حصلت تطورات جذرية للطريقة الصفوية، فأخذ النشاط الديني المسالم ينحى منحى النشاط السياسي العسكري، وتحول مذهب أبناء الأسرة من المذهب السني الشافعي إلى المذهب الشيعي الاثني عشري من نوعه الغالي، وتحول نشاط الأتباع من الطور العبادي والاقتصار على تقديم خدمات اجتماعية عامة إلى الدور العسكري والتدريب المسلح، والعزم على الغزو ومساعدة الأسرة الصفوية في الوصول إلى الحكم. ولم تكن هذه التحولات المفاجئة إلا تعبيرا عن طموحات الشيخ جنيد الذي يسمى بسلطان جنيد، في الوصول إلى سدة الحكم و طموحه في تحويل الطريقة إلى سلطنة وراثية تضمن للأسرة السلطنة المعنوية والسلطنة الدنيوية[132]. ويعتقد بأن نفي جنيد وهجرته إلى الأناضول، وتواصله مع غلاة الشيعة هناك، حفزه على ترك المذهب السني والتوجه نحو العقائد الشيعية بغية تحقيق طموحاته السياسية، وفي ذلك يقول تيرنر: (حاول جنيد الحصول على دعم لطموحاته السياسية والعسكرية

(128) كولن تيرنر: مصدر سابق، ص 133.

(129) كانت المخطوطة المهملة نسخة من كتاب قواعد الإسلام للحسن بن يوسف بن المطهر الحلي، وجدت في مكتبة تخص المدعو القاضي نصر الله زيتوني. المصدر نفسه ص 100.

(130) المصدر نفسه: ص 100 ص 101.

(131) المصدر نفسه: ص 116.

(132) نصر الله فلسفي: زندگانى شاه عباس اول، چاپ كيهان، چاپ دوم، تهران، 1334 هـ ش، ج1 ص 5 از ديباچه.

الناشئة، وكانت القبائل التركية الرحل في ريف الأناضول، مع تاريخها المحارب للدولة وتطرفها الديني، مادة خصبة لجنيد الطموح كي يبني مجموعة من الغزاة. ولضمان ولائهم كان طبيعيا للجنيد أن يهجر الجوانية المسالمة في خلفيته، أي عموم التصوف والتسنن، ويأخذ عوضا عنها دعاوى غالية، وكما يلاحظ مينورسكي: من المحتمل أنه بعد اكتشافه ميولا شيعية بين الأناضوليين، فإنه شعر بأن نقلته في الاتجاه نفسه ستفتح آفاقا جديدة لمشروعه. خاصة أن طموحاته تعاظمت في الخلافة الملكية بزواجه من أخت أوزون حسن)[133].

وأكثر ما يلفت الانتباه في حقبة جنيد هو علاقته المتوترة بعمه جعفر الذي بقي متمسكا بخانقاه الأسرة في أردبيل، ولم يرق له تحويل الطريقة إلى المذهب الجديد والنشاط السياسي-العسكري، وكما مر في البحث تعاون مع السلطات الحاكمة لحذف جنيد من الساحة عن طريق النفي والعزلة، وصولا إلى القتل[134].

وبنظرة سريعة على حياة جنيد يمكن الخروج باستنتاج هو أنه لم يكن مصلحا مذهبيا بل كان رجلا طموحا وذا نفسية قلقة، يميل إلى العسكر أكثر من ميله إلى المذهب في طريق وصوله إلى السلطة [135] وعقب مقتل جنيد واصل نجله حيدر والد الشاه إسماعيل الخطوات ذاتها، وطور من أساليب العمل من خلال تأسيس أول جيش موحد ذي نظام وقانون صارم، ليكون الجناح العسكري للأسرة في طريقها للسلطة، وفي عصره (تحولت الخرقة وهي شعار التصوف إلى بزة للقتال أو كما أشيع في حينها من خرقة التقوى إلى بزة تريق الدماء)[136]. ولكنه أيضا لم يوفق وقتل في ساحة المعركة قبل تحقيق طموحاته. وهذا ما حصل لنجله الأكبر يار علي أخ الشاه إسماعيل، ولم يبق من الأسرة إلا الأخير لينفذ طموحاتها السياسية.

ويعتقد الدكتور منوچهر پارسادوست بأن إسماعيل لدى خروجه من لاهيجان لم يكن يفكر إلا في الانتقام لآبائه، وتحقيق أحلامهم وطموحاتهم في توأمة الطريقة والسلطنة ووصول الأسرة إلى سدة الحكم[137] ويضيف تيرنر على ذلك بأن إسماعيل كان ينظر إلى التشيع كوسيلة للوصول إلى السلطة وأداة للاستقرار و المأسسة، (فكما اعتنق أجداد إسماعيل الغلو للوصول إلى السلطة، فإنه ومستشاريه سيستعملون مذهب الإمامية الأرثوذكسي للحفاظ عليها. هكذا، يجب النظر إلى تبني إسماعيل مذهب الإمامية على أنه عمل سياسي سافر أكثر منه رغبة في نشر المذهب بذاته)[138].

وعن أحلام إسماعيل في إعادة مجد الأسرة والاعتلاء بها إلى العرش يقول الدكتور كشاورزي: (إسماعيل هذا الصبي ذو 13 عاما جعل حياة الشعب الإيراني ومصير البلاد عرضة لأحلامه الطفولية وعقائده وعقائد أتباعه السطحية)[139].

---

(133) كولن تيرنر: مصدر سابق، ص 123.

(134) پژوهش دانشگاه كمبريج: مصدر سابق، ص18.

(135) المصدر نفسه: ص 22.

(136) كمال السيد: مصدر سابق، ص 31.

(137) د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق، ص253.

(138) كولن تيرنر: مصدر سابق، ص 135.

(139) د. بهزاد كشاورزى: تشيع وقدرت در ايران، انتشارات خاوران، پاريس: 1379 ه ش، ص 45.

وما يدل على اعتزاز إسماعيل بما حصل عليه وتمكن من إنجازه، وحلمه في استمرار حكم الأسرة، يمكن ملاحظة النقوش المطبوعة على نقود فترته، فهي من جهة تحمل عبارات لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله، ومن جهة أخرى عبارة السلطان العادل الكامل الهادي الوالي أبو المظفر شاه إسماعيل بهادر خان الصفوي حفظ الله تعالى ملكه و سلطانه)(140).

ب: الانتقام: كما ذكرنا في أكثر من موضع أن شاه إسماعيل كان يحمل حقداً كبيراً في نفسه من قتلة أخيه وأبيه وجده، وكان يرى بأنهم قتلوا من أجل عقيدتهم وأهدافهم السامية، ولذا فمنذ خروجه من لاهيجان عزم على الانتقام وأخذ الثأر، وكان يعتقد بمقتضى نشأته بأن المذهب السني مذهب معاد لآل البيت، ولذا بذل جهودا كبيرة في تغييب هذا المذهب قسرا، وفرض التشيع على أساس «الحقيقة الوحيدة والحق الخالص» بالقوة على الشعب الإيراني. وقد مر بنا الإشارة إلى أساليب هذا الانتقام من خلال قتل المخالفين وإبادة المعارضين وتخريب قبور علماء وأولياء السنة والتنكيل بجثثهم، وقتل الفقهاء و أئمة المساجد السنية وأيضا تخريب أي مسجد يحمل أسماء الخلفاء الثلاثة(141). يقول في ذلك كسروي: (جنيد وحيدر قتلا بأيدي الشروانيين السنة، ولهذا تشيع الصفويون وأبغضوا السنة كما يقال لا لحب علي بل لبغض معاوية) (142).

ويورد أحد مؤرخي الصفوية في شرح هذا الانتقام وسببه: (وأصدر الشاه أوامره واجبة الإذعان بقطع رأس أي من الذين يخالفون الإمامية في طريقة إقامة الصلاة بسيوف عتبته العلية، وأن ينتقم من الجهال والمتعصبين الذين كانوا سببا في تعذيب أو إيذاء الشيعة ومحبيهم قبل إعلاء مذهب الشاه في الولايات والبلاد. ومن دون شك في تلك الظروف والأوقات تم تطهير ولاية أذربيجان من رجس و لوث كثير من الجهال وأهل الضلالة، ووصلت أصوات فرح وابتهاج أتباع الفرقة الناجية والطائفة إلى مسامع الملائكة في الملأ الأعلى) (143).

وينتقد عبيد الله خان أزبك حاكم السلالة الأزبكية المجاورة للحدود الشرقية لإيران في رسالة له الشاه إسماعيل على حملات الإبادة والانتقام، وأوامر سب الخلفاء كاتبا: (جدكم المحترم المرحوم شيخ صفي كان رجلا عزيزا ومن أهل السنة والجماعة، وإنكم إذ تدعون انتسابكم ومحبتكم لحضرة المرتضى علي عليه السلام فإن هذه الدعاوى لم تخرج من اثنين، تنتسبون له أم لا تنتسبون. لأن دعوى الانتساب كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله بأن من ادعى كذبا بأن أحدا من الناس أبوه ولم يكن فإن صاحب الدعوي سوف لن يدخل الجنة. وإذا كنت صدقا من ذرية المرتضى علي عليه السلام فإنه متى أخرج الأموات من قبورهم و أحرقهم. وكم من الناس نتف لحاهم وحواجبهم وألبسهم الحلي في آذانهم وعرفهم بأنهم خلفاء الإسلام؟) (144).

---

(140) المصدر نفسه; ص 50.

(141) د. أمير حسين خنجى: مصدر سابق، ص 101 ص 102.

(142) أحمد كسروى: مصدر سابق، ص 103.

(143) رسول جعفريان، سياست وفرهنگ روزگار صفوى، نشر علم، تهران، 1388 هـ ش، ج1 ص19 نقلا عن امير محمود بن مير خواند، ايران در روزگار شاه اسماعيل وشاه طهماسب صفوى، ص 125 ص 126.

(144) د. بهزاد كشاورزي: مصدر سابق، ص 35 . ويقصد عبيد الله في من نتف لحيته وحواجبه، قيام الصفويين بهذا الفعل في أشخاص والسير بهم في الأسواق لسبهم من قبل الناس، على أساس أنهم الخلفاء أبو بكر وعمر.

ج: العقيـدة: كـما مـر ذكـره فقـد كان الشـاه يحمـل عقيـدة يختلـط فيهـا التصـوف والتشـيع والغلـو، وكان متعصبـا في عقيدتـه، ولا يـرى الحـق في باقـي المذاهـب التـي تعتـبر باطـلا محضـا أمـام عقيدتـه السـامية. وهـي عقائـد توارثهـا عـن أبيـه حيـدر وجـده جنيـد، وتمكـن هـو مـن جعلهـا مذهبـا رسـميا في دولتـه الفتية.

وعـن هـذه العقائـد يقـول الوائـلي: (إن الاعتقـاد الشـيعي في زمـن الشـاه اسـماعيل لا ينبغـي أن يفهـم عـلى أسـاس أنـه تمسـك بالتشـيع المأثـور عـن الأئمـة الاثنـي عـشر والسـلف مـن الشـيعة الأوائـل، أخلاقـا وشـعائر، بـل هـو تمسـك عقيـدي اختلطـت طقوسـه وتقاليـده كثـيرا بقيـم مسـتمدة مـن التصـوف، مـا جعلهـا أقـرب إلى تصـوف ذلـك الزمـن منـه إلى التشـيع، فلـم يكـن التشـيع يعنـي لـه خـلال المرحلـة الأولى مـن حكمـه سـوى بعـض المفـردات والصـور التـي بعثهـا أواسـتحدثها أوغـالى فيهـا، مثـل اضطهـاد المخالفـين لـه مـن المسـلمين وشـتم الخلفـاء الراشـدين الثلاثـة، وبعـض الصحابـة والمبالغـة في الاحتفـال بمراسـيم عاشـوراء بطـرق ووسـائل صوفيـة وإدخـال الشـهادة الثالثـة المسـتحبة إلى الأذان، وغـير ذلـك مـن القضايـا السـطحية، وهـي أمـور يصبـح معهـا الحديـث عـن دولـة شـيعية خالصـة في إيـران ضربـا مـن المبالغـة الفكريـة، فمثـلا عـرف عـن إسـماعيل واتباعـه تعاطيهـم الخمـر وإقامـة مجالـس الطـرب والأنـس في حلهـم وترحالهـم، ولم يـترك هـذه العـادة إلا بعـد احتلالـه هـراة حينـما أصـدر قـرارا بمنعـه، وكان قـرار المنـع مـن الصعوبـة إلى الحـد الـذي فـرض القتـل فيـه عـلى كل مـن يحتـسي الخمـر، بسـبب تحولـه إلى عـادة، ولأن الجنـد كانـوا بحاجـة إليـه سـواء في الحـرب أو لمواجهـة الـبرد القـاسي، ثـم لم يلبـث أن عـاد إليهـا وكانـت مـن أسـباب كارثـة جالديـران) [145].

ويؤكـد الشـيبي ذلـك قائـلا: (إن حركـة إسـماعيل الصفـوي كانـت شـيعية الإطـار صوفيـة الجوهـر، وإن التشـيع عنـد إسـماعيل كان يعنـي هـذه المسـائل السـطحية السـاذجة، وإن تنظيـما شـيعيا حقيقيـا لم يتـم إلا بعـد موتـه بوصفـه نائبـا للأئمـة و بابـا للمهـدي) [146].

وفي هـذا الصـدد يجـب عـدم إغفـال دور اثنـين مـن أسـاتدة إسـماعيل اللذيـن لم يـتركاه منـذ تواجـده في لاهيجـان حتـى وصولـه إلى سـدة الحكـم، و كانـا مـن القلـة القليلـة الإيرانيـة التـي وقفـت معـه طيلـة حياتهـما، وقـد كانـت لعقائدهـما الشـيعية و تربيتهـم إسـماعيل عـلى تلـك العقيـدة الأثـر الأعظـم، وهـم الشـيخ شـمس الديـن اللاهيجـي ونجـم الديـن مسـعود الصائـغ، يقـول فيهـما الوائـلي: إذا مـا قيـل أن مـن يقـف وراء هـذا المـشروع معلـم إسـماعيل ووزيـره فيـما بعـد شـمس الديـن اللاهيجـى، فـإن هـذا القـول يمكـن الأخـذ بـه، بسـبب مـا يتبـين مـن مؤلفاتـه التـي تركهـا، إذ إنـه كان صوفيـا نوربخشـيا، أي أنـه كان ثوريـا متأثـرا بالكثـير مـن طقـوس التشـيع الاثنـي عـشري ومعتقداتـه، أمـا مـن الناحيـة الإثنيـة فإنـه كان تاجيكيـا مـن سـكان گيـلان ويحمـل ثقافـة عاليـة ويتمتـع بشـخصية قويـة وجذابـة تؤهلـه لأداء مثـل هـذه المهمـة الكبـيرة).[147]

وعـن نجـم الديـن مسـعود الصائـغ يضيـف الوائـلي: (تعـرف عـلى إسـماعيل في رشـت، وأخلـص في التواصـل معـه ورعايتـه، وخـلال رحلـة خروجـه إلى شـيروان التحـق بـه، وكان لنجـم مـن الأهميـة في حيـاة الشـاه أنـه

(145) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 207 ص 208.

(146) د. كامل مصطفى الشيبي: مصدر سابق، ج2 ص 368.

(147) طالب محيبس الوائلي: مصدر سابق، ص 179.

عينه بمنصب «نفس الشاه النفيسة»، وبعد وفاته عين شخصا آخر مكانه سماه النجم الثاني»، اعتزازا به، ويمكن القول إن الأمير نجم كان يقف وراء مشروع إسماعيل المذهبي والوطني) (148).

ثالثا: انتشار التشيع في إيران

ساعدت أربعة عوامل رئيسية على نشر التشيع بسرعة في إيران، هي:

أ) التواجد الشيعي: تذكر المصادر بأن ثلث الشعب الإيراني كانوا يعتنقون التشيع عند قيام الدولة الصفوية، وكان هؤلاء يعانون من ظلم الحكام السنة السابقين، وكانوا يعملون بالتقية حفظا لأرواحهم ومعيشتهم. ولذا فقد رحبوا فورا بإعلان التشيع مذهبا رسميا في إيران على يد الشاه إسماعيل، وتفاءلوا خيرا بالحرية الدينية التي منحت لهم بعد طول العناء والقسوة التي مورست بحقهم (149).

ومن جهة أخرى كان هؤلاء الشيعة ورثة لدول شيعية حكمت إيران لفترات طويلة أو محدودة، ساعدت على تثبيت المذهب في نفوسهم و في مناطقهم، فكما مر في البحث كان شمال إيران يعتبر مركزا شيعيا بامتياز مع وجود تاريخ لحكومة العلويين الزيدية وآل بويه و أسرة المرعشيين أسرة كاركيا العلوية، وكانت خراسان والمناطق المركزية لإيران تضم عددا كبيرا من الشيعة، علما بأنها شهدت حركة السربداران الثائرة والمنتمية للمذهب الإمامي، وكان جنوب إيران يحكم حتى وقت تأسيس الدولة الصفوية من قبل المشعشعين الشيعة، ولذا لم تكن إيران بغريبة على المفاهيم الشيعية أو التواجد الشيعي الكثيف في بعض أنحائه، وقد سهل هذا التواجد على انتشار المذهب في جميع ربوع إيران.

إضافة إلى وجود مدن تاريخية كان وجود التشيع فيها قديما يعود إلى مئات السنين كقم وكاشان وسبزوار وري والتي استقبلت الشاه إسماعيل في طريقه لفتح إيران برحابة كبيرة وعلى طريقة استقبال الفاتحين (150).

ب: تواجد المذهب الشافعي المعتدل والتصوف: كان أغلبية الشعب الإيراني يدين بالمذهب الشافعي السني المعتدل، ومن المعروف أن هذا المذهب هو أقرب المذاهب إلى التشيع و الأكثر تعاطفا مع قضية آل البيت، فمؤسس المذهب كان هاشمي النسب ومحبا لعلي ولذا تم الانتقال من المذهب الشافعي إلى المذهب الشيعي بسهولة وسلاسة في إيران(151).

كما كان الشيخ صفي جد الشاه إسماعيل نفسه منتميا إلى المذهب الشافعي، وقيل عن مدينته أردبيل إن (معظم أهلها من أتباع المذهب الشافعي، ويحبون الشيخ صفي الدين عليه الرحمة)(152) وكان كثير من علماء ومثقفي وشعراء الشافعية يمتدحون الأئمة الاثنا عشر في آثارهم المختلفة، فكان من المعمول أن يرد الكاتب في مقدمة كتابه مدحا للخلفاء الثلاثة، وأن يعقبه بمدح كبير للإمام علي وأبنائه الأحد عشر، وهذا ما عبر عنه جعفريان «بالتسنن الاثني عشري»، ويعتبر هذا النمط من التسامح المذهبي والاعتدال الأكثر مساعدة في تمهيد الأرضية للتحول نحو التشيع لدي الشعب الإيراني (153).

(148) المصدر نفسه: ص 179.

(149) د. منوچهر پارسادوست: مصدر سابق، ص 690.

(150) رسول جعفريان: سياست و فرهنگ روزگار صفوى، مصدر سابق، ج 1 ص14 ص 17.

(151) أحمد كسروى: مصدر سابق، ص 104 ص 105.

(152) رسول جعفريان: الشيعة في إيران، مصدر مسابق، ص 486.

(153) المصدر نفسه: ص 489.

ويؤكـد تيرنـر ذلـك قائـلا: (كان عـلي وأهـل البيـت محترمـين مـن السـنة والشـيعة عـلى حـد سـواء منـذ الأيـام الأولى للإسـلام. ومـع أن جـل الطـرق الصوفيـة المشـهورة تعـود بنسـبها الروحـي إلى عـلي غالبـاً عـبر أئمـه شـيعة آخريـن فإنهـم كانـوا فيـما يخـص المذهـب مـن السـنة. بالنسـبة للنقشـبندية، وهـي طريقـة سـنية بالكامـل، فـإن جميـع الأئمـة الاثنـي عـشر أهـل للتبجيـل والتوقـير، وهـم في تعاقبهـم مرشـدون روحيـون محتملـون. مـن بـين السـنة، عـرف الشـافعية والحنفيـة دومـا بولائهـم لأهـل البيـت، وبمـا أن هذيـن المذهبـين الفقهيـين كانـا منتشريـن في إيـران.. فليـس مفاجئـا الانتشـار الكبـير للميـول العلويـة في إيـران) [154] .

ج: إعـمال القـوة مـن قبـل الصفويـين: لا يمكـن إغفـال دور القـوة المفرطـة التـي اسـتعملت مـن قبـل الصفويـين في إرغـام النـاس عـلى قبـول المذهـب الشـيعي في إيـران. ومـع مـا مـر مـن شـيوع التصـوف والمذهـب المعتـدل وانتشـار الـولاء لآل البيـت، ولكـن لم يكتـف الصفويـون بذلـك واتخـذوا سياسـة اسـتخدام القـوة للتحـول المذهبـي والثبـات عـلى التشـيع كمذهـب رسـمي ووحيـد في الدولـة.

كان شـاه إسـماعيل يعتقـد بأنـه قـام بثـورة عارمـة بالضـد مـن السـلطة ومذهبهـا ومفاهيمهـا وكان يعتـبر التشـيع شـعارا لثورتـه الفتيـة، ولـذا فمـن يقـف أمـام ثورتـه وشـعارها ولا يرضـخ لمفاهيـم الثـورة فهـو معـادٍ لهـا، ولا يسـتحق الحيـاة.

وقـد اتخـذ الشـاه أسـلوب القـوة في طريقـه لترسـيخ الدولـة ومذهبهـا، وكان لايتـوانى عـن اسـتخدام أي أسـلوب قمعـي في هـذا السـبيل. وبهـذا تمكـن الشـاه مـن ترسـيخ المذهـب وفرضـه وكان الشـعب الإيـراني خـلال ذلـك يتحـول تدريجيـا إلى المذهـب الجديـد طواعيـة أوكرهـا، و كان البعـض منهـم يتظاهـر بالتشـيع محتفظـا بمذهبـه قلبيـا، وبذلـك تحولـت أداة التقيـة المتخـذة مـن قبـل الشـيعة سـابقاً إلى أداة ينجـو بهـا السـني مـن المـوت المحتـم أمـام سـطوة الشـاه وأتباعـه [155].

د: العلـماء: اسـتعان الشـاه إسـماعيل لقلـة معرفتـه وأتباعـه بالتشـيع، ولقلـة وجـود الكتـب والفقهـاء العارفـين بالفقـه والعقائـد الشـيعية بالعلـماء الشـيعة العـرب، الذيـن كانـوا يقطنـون في خـارج إيـران سـواء في جبـل عامـل في لبنـان أوفي الحـوزات الدينيـة في مدينـة النجـف جنـوبي العـراق. وكان لهـؤلاء العلـماء الـدور الكبـير في انتشـار التشـيع وترسـيخ مفاهيمـه وتعاليمـه في أذهـان وأوسـاط الشـعب الإيـراني.

وباختصـار يمكـن القـول بـأن الطريقـة الصفويـة بـدأت (كطريقـة سـنية - صوفيـة، ونالـت في عهـد قادتهـا الأربعـة الأوائـل: «شـيخ صفـي وشـيخ صـدر الديـن وشـيخ عـلي وشـيخ إبراهيـم» احـترام العامـة والحـكام عـلى حـد سـواء. انسـجاما مـع نزعتهـا الجوانيـة ذات الاتجـاه العـام، وكانـت الطريقـة مسـالمة سياسـياً، ولم تبيـت أيـة طموحـات في سـلطة أو ملـك دنيويـين. ومـع وصـول جنيـد تحولـت الطريقـة إلى منظمـة عسـكرية ذات توجـه دينـي، وذي طابـع سـافر مـن الغلـو الشـيعي الهـوى. وفي أيـام حيـدر زاد النشـاط العسـكري للطريقـة حتـى تمكنـت، بدعـم مـن القزلبـاش فائقـي الهرطقـة والتطـرف مـن تنصيـب إسـماعيل عـلى عـرش تبريـز. في أقـل مـن نصـف قـرن تحولـت الطريقـة الصفويـة دينيـاً وسياسـياً بشـكل مكّنهـا مـن تغيـير وجـه إيـران كليـا) [156] .

(154) كولن تيرنر: مصدر سابق، ص111.

(155) د. منوچهر پارادوست: مصدر سابق، ص 700.

(156) كولن تيرنر: مصدر سابق، ص 127.

نتائج الفصل الثاني

1. ينتسب الصفويون إلى الإمام الكاظم، ولاعلاقة لهذا الانتساب سواء صح أواختلق بشرعية امتلاك السلطة، فالمذهب الشيعي الذي تبناه الصفويون لايعتقد بحصر الخلافة في قريش كعشيرة بل يذهب إلى إمامة وشرعية خلافة الأئمة المنصوص عليهم من بني هاشم أحد فروع قريش و في عدد محدود منهم.

2. إن الدراسات التي أثبتت الأصل التركي للعائلة الصفوية لم تتعد أدلتها القرن الخامس الهجري، وهذا بحد ذاته لا ينفي احتمالية الجذر العلوي للصفويين، وكونهم من العوائل التي هاجرت هربا من الظلم الأموي أو العباسي واندمجت بالمجتمع الإيراني منذ أواخر القرن الأول الهجري.

3. اتبع الشيخ صفي أسلوبا محكما لتنظيم طريقته التي ساعدت في انتشاره، وجذب أعداد كبيرة من المريدين إليه، ومذهبيا لم يعمد الشيخ صفي إلى الخروج عن الفكر الصوفي المتسامح والمنفتح على أغلبية المذاهب الفقهية المعروفة في إيران.

4. بدأ التحول اللافت في الأسرة الصفوية في عهد جنيد، الذي اعتنق المذهب الشيعي الغالي وامتزج لديه ذلك التحول بالطموحات السياسية، وتمكن من جذب أعوان ومريدين مثلوا اللبنة الأولى للجيش الصفوي، لذا يمكن اعتبار جنيد المؤسس الفعلي للدولة الصفوية.

5. تضافرت عوامل عديدة هيأت لإسماعيل الصفوي إقامة دولته، وكان تضافر تلك العوامل داخلياً وخارجياً يقترب من كونه صدفة تاريخية عبّدت الطريق أمام إسماعيل لإقامة الدولة الصفوية.

6. إن فرض المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة الصفوية كان سببه الطموحات السياسية لإسماعيل، ونزعات شخصية كرغبته في الانتقام لمصرع أفراد من أسرته. ولا يرى الباحث ثمة علاقة لنزعة قومية أوحسابات تتعلق بالهويات المذهبية والسياسية الإقليمية.

7. إن انتشار التشيّع في إيران الصفوية جاء بتأثير عدة عوامل، ولا يقتصر فقط على عامل القوة الذي استخدمه الشاه إسماعيل، ومن تلك العوامل التي لعبت دوراً حاسماً وجود مراكز شيعية في عدة مدن، فضلاً عن وجود المذهب الشافعي المعروف بقربه من الشيعة وانجذاب اتباعه إلى آل البيت «ع»، كما أن الاستعانة بالعلماء والفقهاء العرب من جبل عامل والعراق أسهم في نشر التشيع الاثني عشري في مناطق إيران.

الفصل الثالث

العامل المذهبي وتأثيره في العلاقات الصفوية بالقوى الإقليمية

المطلب الأول
القوى الإقليمية المجاورة للدولة الصفوية

قبل الحديث عن العلاقات الصفوية بالدول الإقليمية التي كانت مجاورة للدولة الصفوية والوقوف على العوامل المؤثرة في تطورات تلك العلاقات، ومنها العامل المذهبي، من المهم الوقوف باختصار للتعريف بتلك الأنظمة التي كانت قائمة آنذاك.

أ. دولة المماليك:

إن تسمية المماليك من المملوك «وهو العبد الذي سبي ولم يملك أبواه، والعبد القن هو الذي ملك هو وأبواه[1].

ولم تلبث التسمية أن اتخذت مدلولاً اصطلاحياً خاصا في التاريخ الإسلامي، إذ اقتصرت منذ عهد الخليفة العباسي المأمون (198 - 218هـ/ 813 - 833م)، ثم المعتصم (218-227 هـ/ 842-833 م) على فئة من الرقيق الأبيض، كان الخلفاء وكبار القادة والولاة في دولة الخلافة العباسية يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء لاستخدامهم كفرق عسكرية خاصة، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم. وأصبح المماليك، مع مرور الوقت الأداة العسكرية الوحيدة في بعض الدول الإسلامية مثل دولة المماليك التي قامت في مصر والشام.[2]

وجاءت فكرة استقدام واستخدام المماليك الترك على إثر تدهور العلاقة بين الخلفاء العباسيين والخراسانيين الفرس في زمن المأمون، وعدم ثقة الخلفاء بالعرب لكثرة تقلبهم واضطرابهم آنذاك، وقد استكثر المعتصم من شراء الأتراك بهدف الحد من النفوذين العربي والفارسي، وقد بلغ عددهم في زمانه ثمانية آلاف وقيل ثمانية عشر ألفا وقد أسكنهم في بغداد ومن ثم بنى لهم مدينة سامراء كمعسكر خاص بهم[3].

وسرعان ما نمت قوتهم مع مرور الوقت، فأخذوا يتدخلون في شؤون الخلافة حتى أمست دولة الخلافة العباسية في أيديهم، يفعلون ما يريدون، يعزلون خليفة ويولون آخر، حتى إن بعض الخلفاء قتلوا نتيجة مؤامراتهم[4].

أما في مصر، فقد استخدم الطولونيون[5]، المماليك الأتراك بشكل واسع، واعتمدوا عليهم في قيام دولتهم

ا - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003م، ج10 ص493.

2 - الدكتور محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، 1997م، الطبعة الأولى، صص 16-15.

3 - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ابن تغري بردي): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق ابراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، 1963 م، ج2، ص 233.

-4 قتل الأتراك عددا من الخلفاء العباسيين نذكر منهم: المتوكل (247 هـ 861 م) والمنتصر (248 هـ / 862 م) والمستعين (252 هـ / 866 م). راجع: د. محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص 17.

-5 الدولة الطولونية: إحدى الدول المستقلة عن الدولة العباسية، وامتد حكمها في الفترة من 254 - 292هـ / 868 905م. وتمثل الدولة الطولونية أول تجربة حكم محلي تحكم فيه أسرة أو دولة حكما مستقلا عن حكومة الخلافة المركزية، وقد كان مؤسس هذه الأسرة أحمد بن طولون جنديا تركيا، وكان والده أحد الموالي الذين أهداهم ملك بخاري للخليفة العباسي المأمون، وقد جاء إلى مصر نائبا للحاكم العباسي فيها، لكنه استأثر بالحكم. د. راغب السرجاني: مقال الدولة الطولونية، موقع قصة الإسلام

واستمرارها. فقد طمع أحمد بن طولون التركي الأصل بالاستقلال في حكم مصر، بعد أن عينه الخليفة العباسي المعتمد (256- 279هـ/ 870- 892 م) واليا عليها. ولكن ابن طولون رأى أن يدعم سلطته بجيش مملوكي من الأتراك من بني جنسه، وقد بلغ تعداد هذا الجيش ما يزيد على أربعة وعشرين ألف غلام تركي، ومنذ ذلك الوقت أضحى جند مصر وولاتها من المماليك الأتراك[6]. ولما استولى الفاطميون على مصر في عام (358هـ/ 969م) اهتموا بتربية صغار مماليكهم وفق نظام خاص، وهم أول من وضع نظاما منهجيا في تربية المماليك في مصر[7]. وقد زاد مكانة ونفوذ المماليك في ظل الدولة الأيوبية التي أسقطت الفاطميين في مصر عام (567هـ /1171م) على يد مؤسسها صلاح الدين الأيوبي[8]. وقد استفاد صلاح الدين من المماليك في القضاء على الجيوب الموالية للفاطميين، وفي حروبه مع الصليبيين والأمراء المسلمين خارج دولته خلال (15) عاما، مما زاد من قوة المماليك ونفوذهم وازداد عددهم في مصر والشام بشكل ملفت، وقد شاركوا في نزاعات ورثة صلاح الدين من الأمراء على شكل مجاميع مملوكية خاصة بكل أمير، مما تسبب في أن يدب الضعف والهوان في الدولة الأيوبية. وقد ملأ المماليك البحرية[9] الفراغ السياسي عقب وفاة صالح الأيوب وقتل خليفته توران شاه آخر الحكام الأيوبيين الذي أساء للمماليك وتم قتله من قبلهم، ليتم تنصيب شجر الدر[10]، أرملة صالح على مصر وبويعت السلطانة الجديدة عام (648هـ/ 1250م) وأعلن المماليك الولاء لها وقد تعاقب المماليك على الحكم من بعدها بصورة مباشرة. أنجز المماليك في دولتهم الأولى إنجازين هامين تمكنوا من خلالهما كسب الشرعية الإسلامية هما:

أولا: انتهاء الحرب الصليبية السابعة بتاريخ (648هـ/ 1250م) بانتصار المماليك وفرض شروطهم على الطرف الغربي، وضربت البشائر وأقيمت الأفراح في كافة أرجاء مصر، وفي كل إقليم إسلامي ابتهاجا بهذا النصر الكبير[11].

ثانيا: انهزام المغول في معركة عين جالوت وتعرض جيشهم للدمار التام على يد المماليك عام (658 هـ/1260م). وهي الهزيمة الأولى والأعنف لهم أمام إحدى الأقطار الإسلامية، خاصة أن المغول كانوا قد استولوا على إيران والعراق وأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد عام (656هـ/ 1258م) وبقتلهم الخليفة

---

http://islamstory.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%AD8 A%D8%A9%A7%

6 - د. محمد سهيل الطقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص 19.

7 - أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969م، ص 70.

8 - صلاح الدين بن نجم الدين أيوب: كردي الأصل، تولى وزارة مصر من قبل الخليفة الفاطمي العاضد (555 - 567 هـ - - 1160 - 1171م) خلفا لعمه أسد الدين شيركوه، أسس لنفسه جيشا خاصا عماده المماليك والأحرار الأكراد وبهم قضى على الدولة الفاطمية وأسس الدولة الأيوبية في مصر. د. محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، صص 23-22.

9 - المماليك البحرية تسمية أطلقت على مجموعة من المماليك ممن اسكنهم الملك صالح الأيوب في جزيرة الروضة في نهر النيل لتكون مقرا له ولهم وهؤلاء هم الذين أسسوا دولة المماليك الأولى في مصر عقب وفاة صالح. المصدر نفسه ص 27.

(10) - شجر الدر: جارية من أصل أرمني أو تركي، اشتراها الصالح الأيوب وحظيت عنده فأعتقها وتزوجها. لذلك فهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك، وقد اعتبرها المقريزي أولى سلاطين دولة المماليك الأولى. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، بلا تاريخ، ج 1 ص 361.

(11) - بدر الدين محمود العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق د. محمود رزق محمود ود. محمد محمد امين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1985م، ج1 ص31.

المستعصم العباسي أنهوا دولة الخلافة التي دامت ما يزيد على خمسة قرون [12].
ولم تبق حينها من الأقطار الإسلامية إلا مصر والحجاز واليمن، وقد تمكن المماليك من خلال احتفاظهم بمصر ومن ثم استرداد الشام من المغول، أن يرجعوا الأمل للمسلمين مرة أخرى[13]، وجعلت معركة عين جالوت سلطنة المماليك القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين إلى أن قامت دولة الخلافة العثمانية[14] من جهة أخرى شعر العالم الإسلامي بفراغ كبير في منصب القيادة الروحية عقب سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول وكان الحكم المملوكي أيضا بوجه عام يشعر بحاجة إلى صفة شرعية والابتعاد عن نظرة معاصريه كونه منتزع الحكم من سادته الأيوبيين. ولذا قام المماليك بما يأتي[15]:
أولا: إشراك بعض أبناء البيت الأيوبي معهم في الحكم لتحقيق الاستقرار والشراكة الشرعية.
ثانيا: استدعاء الأمير أبي القاسم أحمد أحد الأمراء العباسيين الفارين من المغول إلى القاهرة، واستقباله بشكل جماهيري ورسمي ومبايعته من قبل الحاكم المملوكي ركن الدين ظاهر بيبرس وتلقيب الخليفة بالمستنصر بالله. وقام الخليفة العباسي من جانبه في تقليد بيبرس البلاد الإسلامية، وما يضاف إليها، وألبسه خلعة السلطنة، وبذلك أضحى الملك ظاهر بيبرس سلطاناً شرعياً، فأمن بذلك منافسة الأمراء وبذلك حصل المماليك على الآتي[16]:
- ظهروا أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي لمقام الخلافة.
- كسبت إمارتهم تشريفاً ومقاماً سياسياً رفيعاً.
- جعلوا إمارتهم محط أنظار حكام العالم الإسلامي والمسلمين.
- بإقامة خليفة سني المذهب في القاهرة، قضوا على محاولات الشيعة في مصر لإعادة الخلافة الفاطمية.
- وجود الخليفة العباسي في مصر أضفى على سلطان المماليك مكانة أعلى من مكانة الأمراء والملوك في البلاد الإسلامية، بالإضافة إلى أن هؤلاء لايمكنهم التلقب بلقب «السلطان» الممنوح لبيبرس من قبل الخليفة، الذي يعتبر مصدر السلطات في العالم الإسلامي.
- تحقيق هدف المماليك إضافة إلى الدعم الديني، في التوسع السياسي بمساندة الخليفة وتأييده، خاصة التمدد في الحجاز والسيطرة عليها مما كان يعزز مكانة المماليك بشكل أكبر وإظهارهم كحماة للحرمين الشريفين.

وقد انقسم عهد المماليك إلى عهدي «المماليك البحرية» وقد مر ذكرهم في عهد «المماليك البرجية»، الذين أسقطوا رفاقهم بعد زهاء (130) عاما من الحكم المتواصل في عام (784هـ /1382م) وأقاموا دولة المماليك الثانية ليستمر حكمهم حتى الفتح العثماني عام (923هـ/ 1517م)[17]، اتخذ المماليك البرجية ذات اتجاه أسلافهم في تنصيب الخلفاء العباسيين الشكليين، ولذات الأغراض السياسية واستمرارية شرعيتهم الإسلامية والإقليمية[18]

(12) - المصدر نفسه: ج1 صص 243 - 245.
(13) - المقريزي: مصدر سابق، ج 1 ص 431.
(14) - د. محمد سهيل الطقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، صص 82-81.
(15) - المصدر نفسه: ص 92.
(16) - المصدر نفسه: صص 92 - 94.
(17) - محمد سهيل الطقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص 351.
18 - المصدر نفسه ص 358.

ب: السلطنة العثمانية

يختلف المؤرخون والدارسون لتاريخ الدولة العثمانية حول أصل العثمانيين، فالبعض يراهم ينحدرون من قبيلة تركية اسمها قابي خان وهي فرع من قبيلة الغز[19] التركمانية ، وبعض آخر يرجع نسبتهم إلى أبي مسلم الخراساني[20]، وقال آخرون إن أصلهم من الجراكسة[21]، ويطال هذا الاختلاف المؤرخين الأتراك أنفسهم[22]، وعلى أية حال فإن أرجح الأراء وأكثرها شيوعاً هي انحدار العثمانيين من قبيلة قايي، تلك القبيلة التي نزحت من أواسط آسيا إلى الجزيرة الفراتية[23]، ثم تنقلوا بين عدة أماكن تحت ضغط الحملات العسكرية للمغول والحروب الدائرة في المنطقة، ثم استقروا في الأناضول واستوطنوا هناك تحت سلطان السلاجقة[24] بعد الخدمات التي قدمها زعيمها طغرل إلى السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الأول (634-616هـ / 1219 – 1237م)، وكان مقرهم في غرب الأناضول على طول الحدود بين سلطنة السلاجقة وبيزنطة[25]، وقد تحولت هذه المناطق الحدودية مع الوقت إلى ملجأ أكثر أماناً للشخصيات السياسية الهاربة من المغول، وكذلك لأبناء الريف والمدن، فتزايد عدد السكان وبات نظرهم يتجه صوب المناطق الزراعية الخصبة العائدة لبيزنطة، فثارت لديهم روح الغزو والجهاد ضد البيزنطيين، وتجمع المقاتلون حول زعماء الغزو وعلى رأسهم طغرل بك وصارت غزواتهم تتزايد على الأراضي البيزنطية[26]، اكتسب طغرل بك لقب «غازي» نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنطيين، وتمكن خلال هذه الغزوات من توسيع رقعة إمارته الصغيرة خلال نصف قرن، ولم يكتف بعشيرته المتشكلة من (400) خيمة و(4000) شخص بمن فيهم النساء والأطفال، بل استقبل في إمارته الصغيرة التركمان الرحل لينضموا إلى عملية الجهاد و الغزو المستمر وليكونوا نواة دولته الفتية [27]. توفي أرطغرل سنة (687هـ / 1288م) وعين الملك علاء الدين أكبر أولاده عثمان مكانه وهو مؤسس الدولة العثمانية، وإن لم يسم خاناً أو سلطاناً إلا بعد وفاته. وتمكن عثمان أن يواصل طريق والده في عملية توسيع رقعة الإمارة إلى ما يعادل ثلاثة أضعاف ونصف من التي تركها والده[28].

---

19 - محمد سهيل طقوش: مصدر مسابق، ص 66.

20 - ينظر: محمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج5، تحقيق: محمد مصطفى الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1984م، ص 365. وينقل المؤلف الحنفي عن المقريزى ما أوردناه أعلاه من نسبة العثمانيين إلى أبي مسلم، ويعقب بأنه النسب الصحيح عنهم.

(21) - المير ألاي اسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر الحديث، ط 1988 م، ص8.

(22)- يراجع: إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان 1988م، ص11.

23 - محمد سهيل طقوش: من 67.

24 - فائقة محمد حمزة: أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا: رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، 1989م، ص11.

25 - د. خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، 2002م، ص 14.

26 - المصدر نفسه.

27 - يلماز أوزتونا: موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010 م، ج 1 ص 88.

(28) - المصدر نفسه ص 92.

تـولى أورخـان (726 - 761هـ/ 1326 - 1360م) الولـد الأكـبر لعثـمان زمـام الحكـم عقـب وفـاة أبيـه وتجلـت قدراتـه السياسـية في ترسـيخ دعائـم الدولـة بشـكلها الحقيقـي، حيـث ورث دولـة ليسـت لهـا قوانـين أوعملـة أوحـدود واضحـة، وكان لزامـاً عليـه أن يحـول أتباعـه إلى أمـة منظمـة ومقتـدرة[29]. ومـن أجـل ذلـك بـدأ بخطـوات سريعـة في إقـرار القوانـين وإحـداث التنظيـمات الضروريـة لحمايـة إمارتـه. ومنهـا إنشـاء جيـش عسـكري دائـم سـماه «الإنكشـارية» وهـؤلاء كانـوا في الغالـب مـن الأسرى المسـيحيين صغـار السـن بـين السـابعة والعـاشرة، وضـم إليهـم أولاد النصـارى المشردين والأيتـام الذيـن تـوفي آباؤهـم أوأمهاتهـم خـلال حـروب الفتـح، ثـم صهـر الجميـع في بوتقـة واحـدة، واهتـم بتربيتهـم تربيـة إسـلامية تشـمل الفكـر والجسـم لترسـيخ مبـادئ الإسـلام في قلوبهـم، ثـم يخضعـون لتدريـب عنيـف خـاص يهـدف إلى تقويـة أبدانهـم وتعودهـم خشـونة العيـش، حتـى إذا بلغـوا السـن اللائـق للخدمـة العسـكرية أدخلهـم ضمـن فـرق الإنكشـارية التـي شـكلت قـوة دائمـة وجاهـزة للسـلطان الحاكـم. ووضـع أورخـان قانونـاً خاصـاً لهـذه الفرقـة تضمـن أربـع عـشرة مـادة تحـدد النظـام الداخـلي وتنظـم علاقـات أفرادهـا بعضهـم ببعـض، كـما نـص عـلى وجـوب الطاعـة المطلقـة والانقيـاد التـام للسـلطان. أقـام أورخـان الجنـود الإنكشـارية في ثكنـات خاصـة وحـرم عليهـم الـزواج والاختـلاط بالمجتمـع وجعـل شـعارهم (الإسـلام عقيدتنـا والقـرآن كتابنا والسـلطان والدنـا والحـرب مهنتنـا)، وأطلـق عليهـم تسـمية «ينـي تـشري» أي الجيـش الجديـد، وحـرّف الاسـم في الاسـتعمال الـتركي الـدارج إلى إنكشـاري وأخـذه العـرب عنهـم، وكان هـذا الجيـش الـذي وضـع أساسـه العثمانيـون الأوائـل أول جيـش دائـم ومنظـم عرفـه التاريـخ[30].

تكمـن قيمـة عهـد أورخـان في أنـه شـهد أول اسـتقرار إسـلامي في أوروبـا مـن جهـة البلقـان، كـما شـهد ظهـور نظـام عسـكري جديـد ألقـى الرعـب في قلـوب الشـعوب الأوروبيـة لمـدة أربعـة قـرون متتاليـة، بالإضافـة إلى ظهـور الإمـارة العثمانيـة التـي أصبحـت تمتـد مـن أنقـرة إلى تراقيـا، بعـد أن ضاعـف الأراضي التـي ورثهـا عـن والـده سـت مـرات، وأرسـى أول تنظيـم للدولـة[31] .

ج: دولة الآق قوينلو:

الآق قوينلـو إحـدى القبائـل التركمانيـة الاثنتـين والعشريـن، والتـي تعـود إلى قبيلـة الغـز أو أوغـوز، إن هـذه القبيلـة هاجـرت إلى مناطـق في تركيـا، تحديـداً ديـار بكـر والعـراق، وغيرهـما في الـشرق الأوسـط مـن موطنهـم الأول في أواسـط آسـيا في مغولسـتان وتركسـتان[32]، وكان ذلـك يجـري عـلى شـكل هجـرات متعاقبـة وفي أوقـات مختلفـة ولأسـباب متعـددة أيضـا، وبرغـم وجـود اختـلاف في تحديـد البدايـة الحقيقيـة لذلـك، لاسـيما أثنـاء البحـث عـن أصـل تواجـد التركـمان في العـراق كـما نلاحظـه لـدى الدكتـور حنـا بطاطـو في كتابـه (الطبقـات الاجتماعيـة القديمـة)، وكذلـك لـدى اس. ج. أدمونـدس في بحثـه (أكـراد، أتـراك وعـرب)، إلا أن المراجـع التاريخيـة تؤكـد أن الوجـود التركـماني في المنطقـة لايتصـل بحادثـة تاريخيـة محـددة، بـل بتعاقـب الهجـرات عـبر التاريـخ الوسـيط بدايـة مـن قبـول الأتـراك للإسـلام حيـث انتـشروا زرافـات ووحدانـا

(29) - محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ص 33.

30 - المصدر نفسه ص 35 - 36.

(31) - يلماز أوزتونا: مصدر سابق، ج1 ص 97.

(32) - عزيز قادر الصمانجي مصدر سابق، 1999م ص 41.

ودخلوا الجندية أفواجاً وتولوا قيادة الجيوش[33] ، وقد سبق الحديث عن دور المماليك الأتراك وميل الخلفاء العباسيين لاستخدامهم ضد خصومهم ومنافسيهم، لكن وجود الترك واستقدامهم يبدو أنه أقدم من ذلك ويعود إلى بداية العصر الأموي، فقد عاد عبيد الله بن زياد بألفين من الترك إلى البصرة وكانوا ممن يجيدون الرمي[34]. كما ورد أن الحجاج بن يوسف الثقفي قام بإسكان الترك في المناطق الجبلية المطلة على الأراضي الصحراوية في العراق، وقيل أسكنهم في منطقة بدرة من محافظة واسط [35]. ومن هنا يبدو أن العباسيين انتهجوا نهج الأمويين في الاعتماد على العنصر التركي، يقول الدكتور مصطفى جواد: «كما اجتذب قُواد بني أمية الترك وجنودهم، كذلك اجتذبهم بنو العباس، فقد كانت دعاياتهم بلغت بلاد الترك في تركستان وآسيا الوسطى، وثاروا على بني أمية واستنهضوهم داعين إلى عيش رفيع جديد وإحياء العدل والسنة، ودفع ظلم بني أمية عنهم والانتصار لأهل البيت، فتوافدت إليهم جموع غفيرة من الأتراك من طامع في مال وراغب في تبديل حال ومتطوع يظن طاعته لوجه الله [36]. أما العصر السلجوقي فيمثل عصر الاستيطان والاحتلال في العراق من قبل القبائل التركمانية والتي نجحت أخيراً في إقامة إمارات مختلفة في عدة مناطق من العراق[37].

وتعتبر الآق قوينلو واحدة من هذه الإمارات المتأخرة، وتسمى أيضا بالبايندرية نسبة إلى الجد الأعلى لقبيلة الآق قوينلو، وهو أحد أحفاد أوغوزخان. وقد شاع عليهم تسمية «الخروف الأبيض» بسبب اقتناء القبيلة للشياه البيض[38] ووجود صورة لهذا النوع من الشاة في علمهم الرسمي كما مر بنا في الهامش رقم (41) من الفصل الثاني.

بدأت قبيلة الآق قوينلو طامحة نحو إقامة كيان خاص مستقل بها في ديار بكر، إلى أن ظهرت في نهاية المطاف بمظهر الحكومة وكانت معروفة بالقسوة فقد تدربت على يد الأمير تيمور ونهجت طريقته[39]. وقد برز من رجالاتها قره عثمان الذي ذاع صيته في عهد تيمورلنك، وإدريس بيك وبهلوان بيك الذي اشتهر بقتاله للجيوش البيزنطية، وبعد صراعات مع القره قوينلو تمكن الأمير أوزون حسن - حسن الطويل - من القضاء على الحكومة القره قوينلوية ودخل بغداد واستولى على عموم العراق وأغلب مناطق إيران، وشن غزوات عديدة وضم مناطق أخرى إلى نفوذه، وبعد وفاته عام (1477م) خلفه ولده الأكبر حسين وسرعان ما نشبت الخلافات بينه وبين إخوته، ثم استقر الأمر لمراد بيك، وفي عهده انتهت دولة الآق قوينلو بعد إسقاطها على يد الدولة الصفوية عام (1508م).

د: الأوزبك

ينحدر الأوزبك في أصولهم إلى القبائل التركية الشرقية من أتراك تركستان، إلى جانب القرقيز والأويغوز

(33) - عباس العزاوي: مصدر سابق، ج3 - ص 26.

(34) - ابن جرير الطبري: مصدر سابق، ج3 ص212.

(35) - عزيز قادر الصمانجي: مصدر سابق، ص 46.

(36) - د. شعبان مزيرى: كركوك في التاريخ - الجزء الثالث، جريدة الاتحاد الكردستانية العراقية، بلا تاريخ، نقلا عن: سليم مطر: جدل الهويات، مؤسسة فرهنكى سماء، الطبعة الأولى، ص136.

(37) - عزيز قادر الصمانجي: مصدر سابق: ص 50.

(38) - عباس العزاوي: مصدر سابق، ص 208.

(39) - المصدر نفسه.

القاراقالباق والقازاق وقان صو[40]. وكان الترك في حدود نهاية النصف الأول من القرن الأول الميلادي قد فرضوا نفوذهم على كل مناطق آسيا الوسطى وتوسعوا لتقع كل المساحة الممتدة بين بحر اليابان وبحر الخزر القزويني تحت سيطرتهم. وفي القرن الثالث عشر الميلادي خضعت القبائل الأوزبكية كغيرها في منطقة آسيا الوسطى التي ضمت الشعوب التركية إلى حكم المغول بقيادة جنكيزخان، ولكن في القرن الرابع تفكك الكيان السياسي للحكم المغولي وظهرت دويلات صغيرة وإقطاعيات متعددة مستقلة، الأمر الذي استغله تيمورلنك الذي حكم (136) عاما، وأقام إمبراطوريته الواسعة قبل أن تتفكك في نهاية القرن الخامس عشر الذي شهد وصول الأوزبكيين إلى مقاليد السلطة عبر محمد شيباني خان والقبائل الرحل من الأوزبك التي أطاحت ببقايا التيموريين[41]، وكلمة أوزبك شاع إطلاقها على المنتسبين إلى أوزبك خان (1340-1313م)، حاكم دولة المغول القبجاق وينحدر من نسب جنكيزخان، وعندما أسلم أوزبك خان في القرن الرابع عشر صار اسمه يطلق على شعبه وكانت مملكته مترامية واسعة ثم عمت التسمية جميع القبائل التي ناصرت أبا الخير خان (-1412 1468م)، ومن ثم من بعده حفيده محمد شيباني، حيث أخضع شيباني لهيمنته كل من سمرقند وبخارى وبلخ وخراسان وغيرها من بلاد ما وراء النهر، واستكمل ذلك في منتصف (1507م) بسقوط هراة عاصمة التيموريين. ولم يبق بعدها على شيباني خان سوى القيام بخطوة واحدة كي يصبح السيد المطلق على الإمبراطورية التيمورية المترامية الأطرف، فأعطى قواته إجازة مدة نصف شهر للاستراحة وبعد ذلك تحرك من أولانغ- كاخديستان إلى بولي سالارن ثم أرسل قوته الرئيسية إلى مناطق إيران الغربية التي كانت تحت نفوذ التيموريين ومنها مرو، شاه جهان، جام، مشهد، سابزيوار، وقاد جيوش شيباني خان كل من محمد تيمور سلطان وعبيد الله خان أبرز قادته، فيما بقي هو في هراة، ولم تواجه جيوش شيباني تلك أية صعوبات مهمة، فاستطاع قادته احتلال تلك الأماكن، إذ استسلم لهم من دون مقاومة تذكر حصن نيراتو العظيم وهو الحصن المنيع للغاية، وكذلك دخل الجيش الأوزبكي جام ومرو وشاه جهان، وفي عام (1508) فرض شيباني خان سيطرته على جرجان بعد هزيمة سلطانها بديع الزمان، وتلا ذلك سيطرته على دان خان[42]. وهكذا أصبحت تحت نفوذه جميع الأراضي الواقعة على الضفة اليسرى الجنوبية لنهر جيحون امتدادا باتجاه الغرب إلى خط محاذ السمنان في خراسان حتى بدخشان في الشرق، وجنوبا حتى منطقة كاخيندار وغور الجبليتين في أواسط أفغانستان[43]. ولكن هذه المناطق لم تستمر تحت نفوذ الأوزبك فبمجرد وفاته قرب مرور عام (1510م) بدأت تلك المناطق تنتقل إلى السيادة الصفوية إثر حملة الشاه إسماعيل التي استمرت حتى عام (1524م).

---

(40) - يلماز أوزتونا: مدخل إلى التاريخ التركي، ترجمة: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى - 2005، ص36.

(41) - بوربوي احمدوف وزاهد الله منوروف: أوزبكستان، تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت، الطبعة الثانية 1999م، ص 293.

(42) - المصدر السابق: ص 308.

(43) - محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية في إيران، ص 62.

المطلب الثاني

ردود أفعال الدول الإقليمية على إعلان التشيع مذهباً رسمياً للدولة الصفوية

جاء إعلان إسماعيل الصفوي عن نفسه ملكا على إيران وتأسيس الدولة الصفوية على أسس دينية - مذهبية، واعتبار المذهب الشيعي الاثني عشري مذهب الدولة الرسمي وأيضا مساعي الدولة الحثيثة في نشر التشيع في كل أرجاء المملكة، بل إعلان الدولة عن نفسها كحام رسمي لكل الشيعة في المنطقة، ليشكل صدمة مفاجئة لكل دول المنطقة التي ترقبت وراقبت بقلق قرارات ومسار الحراك الداخلي في إيران وخارجها. وقد برز هذا الترقب على شاكلة تقصي الأنباء والحقائق والوقائع من الداخل الإيراني عن أربع طرق:

أولا: الجواسيس والعيون: إن الاعتماد على العيون والجواسيس كان كما لا يزال أحد أهم الوسائل لمعرفة التطورات السياسية الداخلية في الدول المختلفة، سواء المجاورة أو البعيدة، والحقيقة أن العثمانيين كان لديهم جهاز مخابرات مقتدر، ينتشر عناصره في العديد من الدول حول العالم، وعلى سبيل المثال كانت الدولة العثمانية مطلعة على مجريات العلاقات والتطورات وحتى الاتفاقيات غير المعلنة بين الدول الأوربية، كالاتفاق الذي جرى في روما لضرب الأسطول العثماني، كما أن العثمانيين كانوا يرصدون حركة الوفود الصفوية واتصالاتهم بملوك وزعماء أوروبا، وعليه فلم يكن ليخفى عليهم أمر التطورات في إيران وسيطرة الصفويين، وما أتبعه الشاه إسماعيل وسياسته في فرض المذهب الشيعي الاثني عشري على عموم إيران. أما بالنسبة للمماليك فيبدو أنهم عرفوا بتلك التطورات بعد فترة، وكما سيمر بنا في موضعه.

ثانيا: المراسلات: راسل السلاطين والملوك عددا من أصدقائهم من أمراء ولايات إيرانية لمعرفة ما يجري فيها و يمكن الإشارة إلى رسالة بعثها السلطان بايزيد العثماني في عام (908هـ) إلى رستم بيك كرد حاكم جشمكزك في كردستان، ليسأله عن شاه إسماعيل، فجاء رد رستم بيك على شكل رسالة مفصلة تحدث فيها عن ظهور القزلباش معبرا عنهم (بالمنحرفين لعنهم الله ودمرهم)، وعن نواياهم في احتلال العراق وديار بكر والتحالف مع من سماهم بـ (شراكسة مصر).[44] وأيضاً حصلت مراسلات بين السلاطين فقد بعث السلطان المملوكي في (910هـ/ 1504م) رسالة إلى السلطان بايزيد العثماني يذكر فيه الصفويين بسوء: (أما قصة غلبة الفرقة الضالة الشرقية، فإنها بلية عامة ظهرت في تلك النواحي، فدفعهم لازم بل واجب على الأداني والأقاصي، فالمقصود في دفعهم واستئصالهم بعناية الملك العلام الموافقة والاهتمام لأنهم أهل البدع والضلالة وأصحاب الشر والشقاوة، كلهم روافض وجمهم ملاعين، ليس في قلوبهم الردية أثر للرحمة والشفقة، ولا في طينتهم الخبيثة علائم الهداية والرأفة، وإنهم هتكوا عرض المؤمنين والمؤمنات وقتلوا علماء الدين والسادات وأغاروا أموالهم وأسروا صبيانهم وعملوا في هذه المملكة أعمالا لايرى مثله أحد في خروج الأولاد الجنكيزية ولاسمع شبهه في ظهور الأحزاب التيمورية، أولئك هم الكفرة الفجرة، اللهم دمرهم واقهرهم وفرق شملهم وكسر أعناقهم و طهر الأرضين من هؤلاء الأرجاس الأنجاس)[45].

---

(44) - رسول جعفريان، سياست وفرهنگ روزگار صفوى، مصدر سابق، ج1 ص 134.

(45) - المصدر نفسه: ج 1، ص 135.

ثالثا: اللاجئون إلى دول المنطقة الفارون من سطوة الصفويين

لا شك أن فرض المذهب الشيعي الاثني عشري على مناطق إيران وحملات الشاه القاسية بحق من يعصي أوامره في هذا المجال، كان له أن يدفع البعض للهرب، واللجوء لدى الدول الأخرى كالعثمانيين والمماليك وبعض الإمارات التركمانية والعربية في العراق والشام. و يبدو أن العدد الأكبر من هؤلاء الفارين قد اتجهوا إلى الدولة العثمانية[46] التي كانت تعاني بعض الاضطرابات الداخلية، ما جعل توافد هؤلاء يشكل واحدا من الأعباء المضافة على كاهلها، الأمر الذي دفع السلطان بايزيد إلى توجيه رسالة إلى الشاه إسماعيل يطلب منه التعقل في معاملة أهل السنة الأحياء منهم والأموات، والاقتداء بأسلافه العظماء وبتاريخ إيران وحضارتها العريقة[47]. ولا شك أن هؤلاء اللاجئين كانوا قد بالغوا في نقل الصورة القاتمة عن الصفويين، وهو أمر طبيعي في تعبير الإنسان عن مرارة الهجرة والمطاردة.

رابعا: الشائعات والتضخيم والعمل المخابراتي:

يعتقد بأن هذه الإشاعات كانت تثار من قبل الدول السنية لبعضها البعض بغرض التقارب والتوحد ضد العدو المشترك، أو منعاً وإحباطاً لأي تقارب بين إحدى الدول مع الصفويين، كما كانت هي نوايا المماليك والعثمانيين المتبادلة حيث ترد في المصادر نماذج من هذه الشائعات منها: شائعة مقتل شاه إسماعيل على يد أحد قادته العسكريين في دمشق بعد أيام من ورود أنباء قيامه، يقول ابن طولون: (وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرية شاع بدمشق أن الأمير قاسم بك بن حسن بك العجمي، قتل الخارجي إسماعيل شاه الصوفي، وكتب بذلك، وأرسل إلى السلطان بمصر، ولم يصح ذلك)[48].

وأيضاً يرد خبر ضمن حوادث سنة (911هـ) بمحاولات الصفويين تحريك جيوب لهم في مصر لإثارة البلبلة (وأخبرني في سابع عشري شعبان منها، خرج خارجي في الصعيد، زعم أنه من خلفاء الصوفي، وتكلم بكفريات، وطعن في القرآن والحديث، فطلب إلى مصر، وحكم شيخنا شمس الدين الخطيب المصري الحنفي بسفك دمه، فجر، ورميت رقبته، ثم أتبعه باثنين من جماعته[49] ويعتقد بأن من تم ذكره تحت عنوان من «خلفائه» يقصد به معتمدي وعيون الشاه إسماعيل، حيث كان البلاط الصفوي يطلق تسمية الخليفة على عيونه ومعتمديه في الأراضي العثمانية وخاصة في الأناضول[50]. وهذا يعني بأن العمل المخابراتي بين الدول كان فعالا آنذاك. ويضاف إلى ذلك بطبيعة الحال حملات التضخيم وزرع النفور من الصفويين من خلال كونهم مختلفين مذهبيا بل وتم إشاعة أنهم ملحدون وزنادقة، فقد بث العثمانيون ذلك في صفوف الناس لأجل تعبئتهم دينياً ومذهبياً بوجه الصفويين[51].

(46) - يراجع: ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ج8، دار ابن كثير، بيروت، ص 132.

(47) - محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية في إيران، ص 69.

(48) - شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي (ابن طولون): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، حاشية خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998 م، ص212.

(49) - المصدر نفسه: ص 244.

(50) - د. منوچهر پارسا دوست: مصدر سابق ص 302.

(51) - أكمل الدين إحسان أوغلو: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون - اسطنبول 1999م، ج1 ص 31.

المطلب الثالث: العلاقات الصفوية – العثمانية وتطوراتها (١٥٠٧م – ١٦٣٩م)

سبق في الفصل الثاني أن بينا علاقة العثمانيين بالشيخ صفي بعد أن بلغت شهرته البلاط العثماني، الذي راح يرسل سنويا هدايا وأموالا طائلة إلى الشيخ تحت مسمى (چراغ آقچه سى) أي نذورات إضاءة الخانقاه، وقد عرفنا أن هذه الهدايا والنذورات استمرت تتوالى من البلاط العثماني على مقر المشيخة، وقد قيل إن هذا الاهتمام كان بسبب توصيات من الأسرى الذين رجعوا إلى ديارهم عقب الإفراج عنهم من قبل علي سياه بوش.

كما أنه في عهد السلطان مراد الثاني هاجر الشيخ جنيد، الذي يعتبره البعض المؤسس الأول للدولة الصفوية، إلى الأناضول طالبا السماح له بالإقامة هو وأتباعه، بيد أن السلطان العثماني أهداه مبالغ من المال من دون الإذن في الإقامة. أما بعد قيام الدولة الصفوية وانضمام العديد من القبائل التركمانية والأتباع المتواجدين في الأناضول وبقية المناطق التركية ظهرت بوادر لتغير مجرى تلك العلاقة، واستشعر العثمانيون أن منافسا قويا لهم ظهر على الساحة الإقليمية. والحقيقة أن العلاقة بين الدولتين كانت في البداية أقرب إلى الحرب الباردة تشوبها التوجسات والدعاية المضادة[52]، ولم تتجاوزها إلى مرحلة الصراع والصدام العسكري بفضل عدم الرغبة بذلك من الطرفين، السلطان بايزيد الثاني والشاه إسماعيل، خاصة وأن الأول كان بطبعه ميالا إلى المسالمة[53]. ويتبين ذلك من ردة الفعل غير المتوقعة على دخول الشاه إسماعيل إلى العراق، فقد أرسل السلطان العثماني مبعوثا خاصا حمله بالهدايا الكثيرة ورسالة تهنئة بفتح فارس والعراق[54]. إن بداية التوتر العميق على الصعيد السياسي بين الجانبين كانت قد حدثت عام (1507م)، بعد أن قام الشاه إسماعيل باجتياز الحدود التركية باتجاه إمارة دُلغادر[55]، وهذه هي التسمية العربية لهذه الإمارة التركمانية بينما وردت تسميات أخرى مثل: ذو القادر وذو القدر ودلقادر والإمارة ذو القدرية[56]، فبعد أن استتب الأمر للشاه إسماعيل داخل إيران تطلع إلى توسيع نفوذه و زيادة رقعة التأييد ضمن القبائل والإمارات التركمانية، ومنها إمارة دُلغادر، فطلب من علاء الدولة تزويجه من ابنته، غير أن علاء الدولة رفض ذلك العرض، وحول سبب ذلك الرفض يقول ديلماز إن رفض دلغادر

(52) - عباس الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق، ص 41.

(53) - محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية في إيران ص67.

(54) - المصدر السابق، ص 69.

(55) - ظهرت في العهد المملوكي العديد من الإمارات في شمال الشام، وقد لعبت هذه الإمارات دورا سياسيا مؤثرا ومثلت حلقة الوصل بين العثمانيين والمماليك، وإمارة دلغادر واحدة منها، وهي إمارة تركمانية في الركن الجنوبي الشرقي من الأناضول، كانت قد هاجرت بزعامة رجل يسمى دلغادر فرارا من هجوم المغول، وفي وقت ظهور الدولة الصفوية كان يتزعم هذه الإمارة علاء الدولة بن سليمان ذو القادر، وكان ينسب نفسه إلى الساسانيين، ويحرص على إبراز هذا النسب حيث أمر بنقشه على باب الجامع الكبير في مرعش، وكان ينادى به أيضا في صلاة الجمعة. ينظر: القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التأريخ، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، بيروت، الطبعة الأولى 1412 هـ 1992 م، ص 99.

(56) - يبدو الاختلاف كبيرا في تسمية هذه الإمارة، ويعيد بعضهم سبب ذلك إلى الاختلاف الناتج من الترجمة وعدم وجود حرف الغين في اللغة الفارسية، وهو تبرير غير دقيق، ينظر: محمد دهمان: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، دمشق، الطبعة الأولى، 1986م، ص23.

تزويج ابنته من الشاه إسماعيل كان بسبب كونه شيعيا[57]، وعلى إثره غضب الشاه ذو الخمسة عشر عاما وتوجه بجيشه صوب الإمارة التي عرف عنها آنذاك بأنها موالية لدولة المماليك، وفيما يبدو فإن قرار الهجوم على دلغادر يعود في جزء كبير منه إلى هذا الرفض الذي أشعر الشاه حديث السن والمفعم بروح شبابية ثائرة متمردة بالإهانة البالغة، ومن هنا يمكن فهم لماذا أقدم الشاه إسماعيل على تجاوز الأراضي التركية، رغم عدم رغبته في فتح جبهة مع العثمانيين، ويدلنا على هذه الرغبة الأمر الذي أصدره الشاه لجنوده بأن لا يتعرضوا لرعايا العثمانيين ويحسنوا معاملتهم في المناطق التي يمرون بها[58]، وكذلك فقد كان من الطبيعي عندها أن يسارع الشاه إلى حل هذه الأزمة وتجاوز تبعاتها، فأرسل إلى السلطان رسالة اعتذار عن مروره بالأراضى الخاضعة للدولة العثمانية[59]، ولكن في الوقت الذي بدأ فيه طابع العلاقات طابعا وديا بين الشاه إسماعيل والسلطان بايزيد الثاني كانت هناك حملات مطاردة تعسفية ضد الشيعة في الأناضول وديار بكر، قادها الأمير سليم المدعوم من الانكشارية والمهيأ من قبلهم لخلافة والده بايزيد، ووصلت هذه الحملات إلى منطقة أرزنجان حيث تم أسر إبراهيم شقيق الشاه إسماعيل في إحدى المعارك[60] الأمر الذي دفع الشاه إلى الاحتجاج لدى السلطان العثماني والتذكير بالصداقة الصفوية – العثمانية، ولكن السلطان بايزيد الثاني لم يحسن استقبال السفير الصفوي، وعامل الشاه السفير العثماني ذات المعاملة حين حمل إليه الرد، وعندها يمكن القول إن العلاقة بين الطرفين قد تحولت إلى مواجهة سافرة[61]، و لكي نفهم سر هذا التغير في معاملة السلطان لا بد من الإشارة إلى الوضع الداخلي في الدولة العثمانية. إن أغلب المؤرخين أشادوا بحكمة السلطان بايزيد الثاني وميله الحكيم نحو السلام مع الدولة الصفوية، كما تعرض للاتهام بالضعف من قبل بعض المؤرخين والدارسين محملين إياه مسؤولية زيادة شعبية الصفويين في الأناضول والعالم الإسلامي آنذاك[62]، وقد رأى البعض أنه لو كان الذي خلفه بمثل ضعفه لتقدم انحطاط الدولة العثمانية زمنا طويلا[63]. ولكن ما يبدو لنا أنه لا خصوصية في العلاقة والتعامل مع الدولة الصفوية من قبل السلطان العثماني بايزيد الثاني، الذي لم يشهد عهده أية فتوحات أوغزوات لا مع الدولة الصفوية ولا مع غيرها ، فقد كانت الظروف الداخلية شديدة الحساسية والارتباك، و الأزمات مستفحلة على أكثر من جانب، نعم كانت هناك بعض الاستثناءات في صد الاعتداءات على الحدود، ومن ذلك أيضا خروجه إلى أخيه الأمير جم الذي كان ينازعه العرش فذهب إلى مقاتلته في منطقة بني شهر منتصف عام (1481م)، وانتهت لصالح السلطان بايزيد[64]، وقد فر أخوه جم إلى المماليك الذين قدموا له معونة كبيرة وجهزوه بالقوات والأموال اللازمة، فسار إلى معركة أخرى مني خلالها بخسارة

(57) - ديلماز أوزتونا: مصدر سابق، ص 204.

(58) - محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية في إيران، ص 69.

(59) - المصدر نفسه.

(60) - أكمل الدين إحسان أوغلو: مصدر سابق، ج1 ص206.

(61) - محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية، ص76.

(62) - ينظر أكمل الدين إحسان أوغلو: مصدر سابق، ج 1 – ص204.

(63) - حسين لبيب: مشاريع الاتراك العثمانيين، ج2 مطبعة الواعظ، مصر، 1917م، ص 33.

(64) - يلماز اوزوتا: مصدر سابق، ص 185.

ثانية، فر على أثرها من جديد إلى جزيرة رودس التي كانت تحت سيطرة فرسان يوحنا الأورشليمي[65]، وعندها أرسل السلطان بايزيد مبعوثا إلى رئيس الفرسان عارضا عليه إبقاء الأمير جم رهن الاعتقال لديه، ولكن مع إبعاده من الجزيرة لقربها من حدود السلطنة العثمانية، وكل ذلك مقابل أن يدفع السلطان مبلغا سنويا قدره خمسة وأربعون ألف ليرة ذهبية[66]، فقام رئيس الفرسان بنقل جم إلى فرنسا وبعدها إلى شمبري، و هكذا تم نقله من مكان إلى آخر طوال سبعة أعوام، حتى وصل إلى البابا، وكان على بايزيد أن يدفع المزيد من الأموال التي أرهقت ميزانية السلطنة العثمانية حيث بلغ مجموعها (600,000) قطعة ذهبية، فضلا عن الابتزاز والمساومات التي تعرض لها بايزيد من قبل الدول الأوربية والأموال التي خصصها لأجل قتله والتخلص منه نهائيا، والهدايا التي كان يغدق بها على البابا والمساومات الأخرى لإطلاق سراح الأسرى النصارى لدى الدولة العثمانية[67]. وفيما عدا ذلك فإن المواجهات بين العثمانيين والمماليك في عهد بايزيد لم تكن سوى مناوشات ومعارك محلية محدودة، لم يطأ فيها الحكام ساحة المعركة وسط رغبة الطرفين في عدم جعل الحرب بينهما حربا شاملة[68]. ولم يكد ينتهي بايزيد من ملف أخيه الأمير جم الذي توفي أثناء مصاحبته للقوات الفرنسية في نابولي عام (1495م)، حتى تجدد الصراع بين أبنائه الثلاثة، وهم الأمير أحمد والأمير كوركود والأمير سليم، وكان الأول أقربهم إليه، وكان يحظى بشعبية واسعة بين الأعيان والأمراء وتمتع بنبوغ إداري وقدرة على تحمل المسؤوليات، لكنه واجه معارضة شديدة من الإنكشارية للهزائم التي لحقت بهم أثناء قيادته لهم في الأناضول، أما كوركود الذي نشأ في بلاط جده السلطان محمد الفاتح فقد كان ميالا للأدب والشعر والفنون، وعلى صلات قوية بالعلماء والأدباء، وكانت شعبيته وسط القوات العثمانية تقتصر على القوات البحرية التي ليس لها ذلك التأثير كما للقوات البرية، ولهذا عارضه الانكشاريون أيضا ورأوه غير جدير بالعرش [69]، ولذا فقد كانت الأمور مهيأة تقريبا أمام ولده الثالث سليم، لما تمتعت به شخصيته من قوة وصلابة، وإحاطة بالأمور السياسية، الأمر الذي جعله مؤهلا بنظر الانكشارية لتولي مقاليد العرش العثماني، وبعث النشاط الحربي للدولة العثمانية ودفع حركة الفتوحات ونيل الغنائم[70]. ونتيجة للصراع والتنافس بين الأخوة الثلاثة اضطر السلطان بايزيد إلى تفريقهم عبر تكليفهم بمهام مختلفة فقام بتعيينهم على ولايات السلطنة، إلا أن الأمير سليم رفض تكليفه بمهمة ولاية طرابزون، وطلب إحدى الولايات الأوربية، وحين رفض والده ذلك جمع جيشا لمحاربته، فاضطر والده بايزيد إلى الرضوخ، وكلفه بولاية بلغاريا، بيد أن سليم كان طموحه يمتد إلى أبعد من ذلك، وسرعان ما أعلن نفسه سلطانا في ولاية أدرنة، فأرسل والده جيشا له وحينها هرب سليم إلى بلاد القرم[71]. وبتاريخ السادس من آذار(1512م) تجمع أكثر من اثني عشر ألفا من الإنكشارية

(65) - المصدر نفسه، ص 186.

(66) - المصدر نفسه.

(67) - عباس جعفر أصغر، التطورات السياسية الداخلية في الدولة العثمانية في عهد بايزيد الثاني (1481 - 1512م)، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة تكريت، 2002، ص 62.

(68) - يلماز أوزوتا، مصدر سابق، ص 189.

(69) - يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ص 207.

(70) - على محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض واسباب السقوط، دار النشر والتوزيع الإسلامية-بور سعيد، الطبعة الأولى، ص 198.

(71) - نزار قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الإخوة وفتنة الإنكشارية، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبناني بيروت، 1992م، ص9.

والمسؤولين والوزراء في اسطنبول مطالبين بايزيد بالتخلي عن العرش لصالح الأمير سليم، وهذا ما حصل، واستقبل السلطان الجديد استقبالا حافلا وألقى كلمة تكشف عن سياسته الجديدة وتوجهاته العسكرية حيث قال: (عندما أصبح سلطانا فلن أمكث في القصور، بل سأخرج إلى فتح الممالك، وستتعبون في عهدي أكثر مما ترتاحون. فإذا كان مثل هذا التعب يناسبكم فاقبلوني سلطانا. أما إذا أردتم اللهو والراحة فإن السلطان أحمد يقف هناك)[72]. إن هذه الكلمة توضح المزاج العام داخل مؤسسات الحكم العثماني، والسياسة التوسعية التي رسخت طوال قرنين آنذاك. ويمكن إجمال الأسباب التي دفعت السلطان سليم ومن ورائه المؤسسة العثمانية إلى معاداة الصفويين وشن الحرب ضدهم باتالي:

• يرى أكمل الدين أوغلو أن السلاطين العثمانيين كانوا ينظرون إلى مفهوم الخلافة بطريقة مختلفة عما كان سائدا في العهد العباسي، حيث اكتسبت مغزى جديدا لدى العثمانيين، تجلى في تأمين طرق الحج وحماية الأماكن المقدسة والدفاع عن الإسلام والمسلمين، و وضعهم تحت شمسية الحماية، وامتزاج ذلك المغزى بتقاليد مبدأ الجهاد[73]، وما يقصده أوغلو من المفهوم العباسي للخلافة بلا شك هو ما تجسد في أواخر هذه الخلافة و امتدادها شكليا عبر حكم المماليك، الذين لم يظهروا ميلا لفكرة الحماية العامة للمسلمين وفرض السيطرة على كل مناطق العالم الإسلامي، لكن هذه الفكرة كانت ثابتة لدى العثمانيين، ما جعلهم واحدة من أبرز القوى التوسعية في القرون الوسطى، وقد حمل الانكشاريون هذه الفكرة وشاعت في الأوساط العسكرية ومؤسسات الحكم العثماني وتشبعت بها الثقافة السياسية العثمانية، ولهذا كان السلطان سليم الرجل المنتظر لإعادة الأمور إلى سياقها بعد تلكؤ طرأ خلال حكم بايزيد الثاني.

• كما لعب الانتماء المذهبي المتشدد دورا مؤثرا في مواقف الدولة العثمانية التي رأت نفسها المدافع عن السنة في العالم، ولهذا كانت قسوة الأمير سليم ومطاردته المستعرة للشيعة عدة مناطق من تركيا وعلى الحدود الإيرانية، قد أهلته ليحتل مكانة مميزة لدى المؤسسات العسكرية والدينية وقطاع غير قليل من عامة الناس. ولهذا تسابق رجال الدين في إظهار تأييدهم له بوجه الصفويين، ومن ذلك ما بعثه ابن كمال باشا (873-941هـ)[74] من رسالة إلى السلطان الجديد مقررا فيها أن التشيع مخالفة صريحة لجماعة المسلمين، وأن قتال الشيعة إنما هو جهاد وحربهم غزوة[75].

إن الحساسية والشعور بالخطر كان في الذروة نتيجة كون أغلب الجيش والمريدين للشاه إسماعيل هم من أصل تركي، وهذا ما يجعل إسماعيل الصفوي أكبر عناصر التهديد الخارجية للدولة العثمانية، إذ يهدد السلطنة من الداخل حيث تغلغل العقائد الشيعية وتحول الكثير من التركمان في الأناضول إلى التشيع،

---

(72) - د. بشرى ناصر هاشم الساعدي: شريعة قتل الإخوان وأثرها في نظام الحكم آل عثمان (1520 - 1617). مجلة مركز بابل، العدد (2)، سنة (2011م).

(73) - أكمل الدين احسان اوغلو: مصدر سابق، ج1 ص 34.

74 - هو أحمد بن سليمان بن كمال باشا، أحد الفقهاء البارزين في الدولة العثمانية، عمل قاضيا بمدينة أدرنة، ثم قاضيا بالعسكر في الأناضول، ثم عُزل وأُعطي تدريس دار الحديث، وعُين له مائة درهم عثماني كل يوم، ثم صار مفتي اسطنبول بعد وفاة علاء الدين الجمالي، وبقي كذلك إلى أن توفي عام 940 هـ ، أنظر ترجمته في: تقي الدين بن عبد القادر التميمي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1970م، ج1 ص412

(75) - محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية - الفارسية ودورها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1987م، ص 52.

وقد كان السلطان سليم شديد الحساسية إزاء قضية التحول المذهبي[76]، ولهذا يتضح مما ينقل من كلمات للسلطان سليم أنه جعل الخطر الصفوي التهديد رقم واحد وأشد من خطر الأوربيين، فحين اجتمع السلطان سليم بقادة الجيش والمسؤولين في الدولة خطب يقول: (إن العالم المسيحي ما انفك يتربص بنا، وإن كان الآن مختبئاً فهو يراقبناً من ثقب الباب متحينا الفرص للانقضاض علينا، ولا ندري أي خطر يحيق بنا لو انقسم الناس إلى مذاهب في هذه الفترة الحرجة، من المؤسف أن تجمع القبائل التركية أموالها ومتاعها وتذهب بها حاجة إلى هذا الملعون وكأنهم ذاهبون إلى مكة أو المدينة، لقد أراق الملعون دم أهل السنة واستحل أموالهم وسبى نساءهم ومع ذلك تعتبر هذه القبائل مكانه كعبة، بل وصل الأمر بهم إلى درجة السجود كلما ذكر اسمه)[77]. وقد زاد هذا الموقف المتشدد قوة إثر اندلاع ما عرف بثورة الشاه قولي بن حسن خليفة في الأناضول قبل عام واحد من تقلد السلطان سليم لمقاليد السلطنة، وذلك في عام (1511م) حيث ثار الشاه قولي وهو رئيس طائفة تكلو القزلباشية ونجح في استقطاب الشيعة في المنطقة بوصفه ممثلا للشاه إسماعيل، وتلقى هؤلاء الثوار إمدادات من سائر الشيعة المنتشرين في أنحاء الدولة العثمانية، واستطاعوا قتل القائد العثماني الذي كلف من قبل السلطان بايزيد بالقضاء عليهم ، وعندها أرسل الصدر الأعظم خادم علي باشا بجيش كبير لإخماد تلك الثوره، وقد اكتفى وقتها بايزيد الثاني بإرسال رسالة تأنيب للشاه إسماعيل على تشجيعه لأتباعه في الأراضي العثمانية وتأييده لانتفاضتهم[78]. وعلى أية حال فإنه في عهد السلطان سليم وضعت قضية قتال الصفويين لانتمائهم المذهبي المختلف في سلم الأولويات قبل جهاد الكفار[79].

أسباب وعوامل الصراع الصفوي - العثماني

عندما أعلن الشاه إسماعيل قيام الدولة الصفوية لم يكن موقف الدولة العثمانية موقفا معاديا، وكما مر فإن وجود السلطان بايزيد كان ضمانة على استبعاد أية تحديات قد تواجهها الدولة الصفوية الناشئة، وهذا ما تجلى واضحا في ردة فعل السلطان العثماني حين انتهك الشاه إسماعيل سيادة الحدود العثمانية عام (913هـ)، حيث تقبل السلطان بايزيد اعتذار الشاه في رسالته التي أكدت أنه لم يكن ينوي الاعتداء على العثمانيين، وقد حملت الرسالة الجوابية للسلطان بايزيد مزيدا من التأكيد على رغبة في أن تتسم العلاقات بين الجانبين بالود والاحترام، ولكن مع وصول سليم الأول للعرش كان تدهور العلاقات قد بدأ ينذر بقرب حدوث الصدام العنيف بين الدولتين، والذي ستكون له تبعات وانعكاسات تؤسس لمراحل لاحقة تحدد طبيعة الجغرافيا السياسية في المنطقة، وشكل العلاقات الإقليمية والدولية. ونحاول هنا الوقوف على الأسباب الفاعلة والعوامل التي أثرت في العلاقة بين العثمانيين والصفويين، لكى يتبين لنا دور العامل المذهبي في تشكيل طبيعة تلك العلاقة، وإلى أي مدى شكل هذا العامل حضوره وتأثيره، إلى جانب عوامل أخرى كانت في غاية التأثير على علاقة الدولتين مع بعضهما البعض.

لقد تنوعت العوامل التي أثرت في العلاقات الخارجية للدولة الصفوية ولاسيما مع جاراتها الإقليمية، وعلى

(76) - محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية، ص73.

77 - المصدر نفسه.

(78) - محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية، ص70.

(79) - عباس الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق، ص42.

وجه التحديد الدولة العثمانية الأكثر قوة وهيمنة بين دول المنطقة، بيد أن هذه العوامل التي سنعرضها على تنوعها وتفاوت تأثيراتها لا تعد أمورا وقضايا منفصلة، بل هي متداخلة فيما بينها، وهو أمر ناتج عن طبيعة تفاعل بعض تلك العوامل والأسباب، وطريقة استغلالها وإدارتها من قبل السلطات المختلفة في المنطقة، ويلاحظ هنا بشكل محدد التداخل بين العامل السياسي والعامل الديني، مع اختلاف العلاقة بينهما على جانبي الصراع.

فبالنسبة للدولة العثمانية لم تكن المؤسسة الدينية منفصلة عن السلطة ولا تتمتع باستقلالية مواقفها، أما على الجانب الصفوي فإن الوضع مختلف فيما يخص نمط هذه العلاقة، إلا أن الحكم الصفوي بطبيعة الحال لم يكن يفصل البعد الديني عن سياساته العامة داخليا وخارجيا، وسنعود إلى مناقشة هذه القضية فيما بعد.

العوامل السياسية

يقف العامل السياسي بلا شك في مقدمة العوامل التي تفرض بشكل طبيعي تأثيرها على العلاقات بين الدول وحكوماتها، ومن نافلة القول إن المقصود بالعامل السياسي هو كل ما يتعلق من مواقف وأفعال بسياسة السلطات ورؤيتها وحساباتها التي تضمن مصالحها، وتقديرها لحدود تلك المصلحة، من ترسيخ النفوذ والسيطرة واستقرار نظام الحكم، وما إلى ذلك من مصالح حيوية.

وقد كان واضحا أن السلطة العثمانية قد توجست خوفا من تضرر مصالحها ونفوذها في المنطقة واستقرار أوضاعها الداخلية بعد التغيير السياسي الجارف الذي حدث في جارتها إيران، بوصول الأسرة الصفوية إلى السلطة وإمساكها بمقاليد الحكم.

وقد عبر هذا التخوف عن نفسه بشكل واضح بعد مجيء السلطان سليم الذي أزاح والده بايزيد بمساعدة الانكشاريين، وسرعان ما تغيرت نبرة الخطاب الرسمي العثماني تجاه الدولة الصفوية، وطغت عليه نبرة التهديد والوعيد في المراسلات بين الشاه إسماعيل والسلطان الجديد، وكلاهما شابان متحمسان[80] لن يركنا إلى الحكمة طويلا إزاء الاستفزازات المتبادلة فيما بينهما.

لقد تصاعد التوتر السياسي في العلاقات بين الدولتين مستندا إلى جملة من القضايا والأحداث التي بددت فرص إقامة علاقات بناءة، دشن الرغبة فيها السلطان بايزيد وتجاوب الشاه معها قبل وصول سليم الأول إلى عرش السلطنة العثمانية. وتجسد هذا التوتر الوارد في عدة قضايا وأحداث يمكن حصرها بما يأتي:

أولا: عدم الاعتراف بشرعية الحكم

كانت أولى البوادر السيئة هو عدم تقديم الشاه إسماعيل التهنئة المتعارف عليها بين الدول التي تتمتع بأدنى درجات العلاقة الودية، وذلك بعد اعتلاء سليم الأول للعرش العثماني، وهذا يعني في الأعراف الدولية السائدة آنذاك عدم الاعتراف بالشرعية والسيادة لسليم الأول، وهو بطبيعة حال رد على عدم اعتراف واضح من قبل سليم بشرعية نظام الشاه.

فوفقا للتقاليد الدولية بدأت البعثات الدبلوماسية بالتوافد على السلطان الجديد، وتهنئته على تسلمه

80 - ولد سليم لبايزيد الثاني من زوجته عائشة التي هي من سلالة حكام الإمارة الدلغادرية، وذلك في العاشر من أكتوبر عام 1470م - 872هـ وكان واحدا من ثمانية إخوة لبايزيد، توفي منهم أربعة وبقي أربعة: «أحمد، كوركود، وسليم، وشهنشاه» والأخير توفي عام 1511 عن عمر 37 عاما، ينظر: يلماز أو زوتا، مصدر سابق، ص207.

منصبه. فقد شهد البلاط العثماني توافد البعثات الأوروبية وسفراء الدول المجاورة وعلى رأسهم المماليك، محملين برسائل التهنئة والهدايا الثمينة للسلطان، وقد لوحظ غياب البعثة الإيرانية وتجاهل الشاه إسماعيل للسلطان الجديد، بل إعلان اعترافه الرسمي بسلطنة شقيقه الأمير أحمد، والذي كان يقود تمرداً بالضد من أخيه. فقد اعتبر الشاه إسماعيل أن سليم غاصب للحكم ولا يتمتع بالشرعية، في المقابل قام سليم بالرد على إسماعيل واعتبره مروّجاً للفتن والفساد في البلاد الإسلامية.[81] وكان لموقف الشاه إسماعيل، الذي لم يكن يتمتع برؤية سياسية واسعة تكشف له خطورة الصراع مع دولة قوية ومتفوقة عليه عسكرياً واقتصادياً مثل الدولة العثمانية، إن دفع السلطان سليم إلى التمادي في موقفه وسياساته التي نمت عن عداء متزايد ضد الصفوية والشيعة عموماً، وكانت إحدى أهم الوسائل التي لجأ إليها هو تكليف المؤسسة الدينية السنية في السلطنة باستصدار فتاوى لتكفير الشيعة، استغلها مباشرة في ملاحقة وقتل الشيعة الذين تتراوح أعمارهم بين السبع سنوات والسبعين سنة وألقى أعداداً كبيرة منهم في غياهب السجون[82]. وقتل خلال المجزرة التي ارتكبها عام (1511م) أكثر من أربعين ألف شخص[83] وإذا ما كان ثمة مجال للحديث عن قسوة الشاه إسماعيل وحماسته في تصفية خصومه، بل وقتل من يشك بتهديده لعرشه وإن كان من أقرب مقربيه، فإن الصورة تبدو مقاربة بالنسبة للسلطان سليم وسلوكياته في الاستئثار بالحكم، إذ سرعان ما ثار عليه أخوه الأكبر أحمد الذي كان حاكماً في أماسيا وفرض سيطرته على بورصة، فخرج إليه سليم بسبعين ألفاً واستعادها بينما لاذ أحمد بالهرب، الأمر الذي دفع سليم إلى اعتقال أولاده الخمسة وقتلهم جميعا صغيرهم وكبيرهم، ثم طارد أخاه كوركود وقتله هو أيضا في الجبال بعد فراره لأسابيع[84].

ثانيا: لجوء أمراء الدولتين لبعضهما البعض

شهدت سنين الصراع الصفوي - العثماني أحداث لجوء متعددة ومتبادلة، كانت من أهم أسباب النزاعات والحروب وتحت طائلة إيواء المتمردين وخرق الأعراف والاتفاقيات الثنائية، ومن أبرز تلك الحالات:

- لجوء أبناء الأمير أحمد العثماني لإيران

عقب وصول سلطان سليم إلى السلطة، أعلن شقيقه الأمير أحمد التمرد على حكمه، ولكي يحافظ على أبنائه أرسلهم إلى الشاه إسماعيل الذي كان يدعمه في توجهاته المعارضة. تم استقبال أبناء الأمير أحمد من قبل الشاه شخصياً، وتم احتضانهم حتى بعد مقتل والدهم في حربه مع سليم [85].

- لجوء الأمير مراد العثماني لإيران

عقب مقتل الأمير أحمد المدعوم من شاه إسماعيل قرر نجله الأكبر الأمير مراد العثماني اللجوء إلى إيران،

81 - هامر بوركشتال: تاريخ إمبراطوري عثماني، ترجمة ميرزا علي زكي آبادى، تهران، انتشارات زرين، 1367 هـ ش، ج 2 صص 981-980.

82 - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 75.

(83) - عباس الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق، ص42، محمد فريد بيك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، منشورات دار النفائس، الطبعة الأولى، 1981م، ص189. وقد شبهها محمد فريد مذبحة الشيعة على يد السلطان سليم بمذبحة باريس المعروفة بمذبحة سان بارتليمى، التي وقعت سنة 1572م حيث ذبح ما يزيد على 30 ألف بروتستانتي فرنسي على يد السلطات الكاثوليكية، وباستخدام طرق بشعة للغاية، وكان الهدف من ورائها هو القضاء على البروتستانت بامر مباشر من الملك شارل التاسع.

(84) - محمد فريد بيك المحامي: مصدر سابق، ص 188.

(85) - أحسن التواريخ: ج2 ص1069.

و تم استقباله بشكل رسمي بتاريخ (918هـ)، واحتفى به شاه إسماعيل شخصيا بل اقتطع له أرضاً واسعة في منطقة فارس جنوبي إيران، ليستثمر عائداته المالية في معارضته السياسية ومصاريفه الشخصية[86]. وفي ردة فعل على هذا الاحتفاء كتب سلطان سليم رسالة إلى الشاه إسماعيل يطالبه بإرجاع مراد أو التهيؤ للحرب، جاء فيها (ابن شقيقي مراد قد فر من قبضة حراس البلاط وقد لجأ إليك، ووفقاً لقواعد حسن الجوار من الواجب إرجاعه لحضرتنا مكتوف الأيدي، وأن لاتستبدل العلاقات الودية إلى حروب مدمرة، وإن رفضتم ذلك فاستعدوا لجيوشنا الرومية القاهرة التي ستتحرك كالأمواج الغاضبة والمهيوبة نحو إيران)[87].
وعندما استلم شاه إسماعيل رسالة السلطان سليم أمر الأمير مراد بقتل المبعوث العثماني وكتب في الرد (ما دام الغرور قد استولى على رأسك المتجبر، سأقطع رأسك المشؤوم بإذن الله وذلك بقوة أيدي قالع أبواب خيبر أمير المؤمنين علي، وسأرسل رأسك إلى البلاط البرتغالي). وأضاف في توضيح أسباب إيوائه لمراد: (إنه التجأ إلى بلاط معروف بإيوائه ملوك العالم و هم يلتجئون لنا ونحن نستقبلهم ونحتفي بهم، ولا يحق لأحد أن يطرد ضيفه، وإن كنت تنوي لقاءنا فنحن جاهزون لاستقبالك أيضا)[88]. وما يثير الانتباه هو تهديد شاه إسماعيل المبطن بالتحالف مع البرتغال أو الإشارة إلى وجود مثل هكذا تحالف لفرض حرب نفسية على سليم، بل يشير إسماعيل أيضاً إلى وجود علاقات عالمية له مع جميع ملوك العالم وذلك لإلقاء مفهوم العزلة والمنبوذية على سليم ومدى قوة الصفويين في الإطاحة بسلطة سليم.

- لجوء بايزيد العثماني لإيران

لجأ الأمير بايزيد أحد أبناء السلطان سليمان القانوني إلى إيران عام (966هـ)، وذلك بسبب مكائد زوجة أبيه خرم سلطان التي سلبته حكم إحدى الولايات واستبدلت به شقيقه الأكبر سليم. ما أدى إلى أن يقود بايزيد جيشا جرارا لمحاربة شقيقه ولكنه خسر المعركة ولجأ إلى إيران هو وعشرة آلاف من جنده. تم استقبال بايزيد باحتفاء كبير من حاكم تبريز ثم الشاه شخصيا، والذي وعده بعدم تسليمه للسلطان العثماني بخلاف معاهدة «أماسية»، التي نصت على عدم قبول لجوء أي شخصية من البلدين بل تسليم الهاربين لدولهم. ولكن بايزيد ندم من فعلته فيما بعد، ولكي يكسب رضا والده ثار مع جنده على الدولة الصفوية فجرى قمعه وأسره وإرساله مع أربعة من أبنائه للبلاط العثماني الذي بدوره قام بقتلهم جميعاً. إن تسليم الهاربين أطفأ نيران الحرب المحتملة بين البلدين، ولكن الحادثة تركت آثارها السلبية على العلاقة بينهما.

- لجوء الأمير القاص ميرزا للدولة العثمانية

كان القاص ميرزا أخاً غير شقيق للشاه طهماسب، ويبدو أن الشاه كان يكن له المحبة ويوليه الثقة حتى جعله حاكماً لولاية شروان، والواقع أنه في تلك الفترة كانت العلاقة بين الدولتين تشهد مرحلة من الهدوء النسبي منذ معركة جالديران، ساعد على ذلك انشغال الصفويين بأوضاعهم الداخلية ومواجهة التهديدات التي شكلها الأوزبك، فيما أنهمك العثمانيون بأعمال التوسع في أوروبا، واستمر الوضع على ذلك الحال حتى عام (938هـ/ 1532م)، حيث دعمت السلطات العثمانية حركة والي أذربيجان الطامح إلى الحكم،

(86) - هامر هورگشتال: مصدر سابق ص825-823.

87 - عالم أراي: شاه إسماعيل ص512-511.

88 - المصدر السابق.

فجهزه السلطان سليمان القانوني بخمسة آلاف مقاتل، لكنه فشل في تحقيق شيء، وفي الوقت الذي كان الشاه طهماسب وجيشه منشغلين بالهجوم على الأوزبك في خراسان تحركت القطعات العسكرية العثمانية نحو أذربيجان، وكان السلطان سليمان قد استصدر من المؤسسة الدينية فتوى بوصف الشاه طهماسب بالمرتد[89]، فاضطر الشاه للعودة ومقاتلة الجيش العثماني في معركة ثأرية لم تقع بسبب الظروف المناخية التي أعاقت تقدم الجيش العثماني. ليأتي التطور الساخن عام (1547م) حين قاد القاص ميرزا حركة انفصالية في شروان التي كانت واحدة من المدن الاقتصادية المهمة لإنتاجها الحرير، وتقع على الطريق بين القوقاز وإيران، فخرج إليه الشاه طهماسب بجيشه، ولكن القاص ميرزا أرسل والدته وابنه كي يعتذرا لدى الشاه الذي سرعان ما قرر إصدار العفو عنه. غير أنه عاد من جديد وقاد حركة أخرى ضد الشاه ملتجئاً هذه المرة إلى السلطان العثماني، وقد احتفى به السلطان سليمان وزوجته، وأهدوا له صناديق من الذهب والفضة والجواري والخيول وخصصوا له مكان إقامة واسعة. ولكن احتفاء السلطان بالأمير الصفوي أثار حفيظة علماء السنة الذين كانوا يعتبرونه شيعياً رافضياً وملحداً مستحقا للقتل، وهو ما لم يعره السلطان أي اهتمام، حيث كان يهدف إلى إيجاد حالة من الانقسام في الدولة الصفوية، وأن يجعل القاص ميرزا تابعا له في الأراضي الإيرانية وحامياً للحدود بين الدولتين[90].

وعلى أثر ذلك تحرك السلطان العثماني استغلالاً لهذه الفرصة وبعد إدعاءات وتأكيدات القاص بأنه يمتلك نفوذا كبيرا داخل إيران، وهو قادر على إسقاط حكم طهماسب، فتوجهت الجيوش العثمانية عام (1549م) صوب تبريز، وتمكنت من احتلالها، إلا أنها لم تستطع الاحتفاظ بها طويلا، بسبب قسوة الهجمات التي كان شنها القزلباش، ما اضطر السلطان سليمان إلى الانسحاب، وحمل المسؤولية للقاص ميرزا الذي لاذ بالهرب وحاول أن يجمع مناصرين له لمقاتلة الجيش الصفوي، لكنه فشل تماماً وتم إلقاء القبض عليه في نهاية المطاف وقبع في السجن حتى توفي فيه بعد شهور. [91]

ثالثا: المراسلات الاستفزازية بين الدولتين

كان من الطبيعي أن يتفاقم الأمر وتعبر تلك العلاقة التي ولدت متوترة بين الشاه إسماعيل والسلطان سليم الأول عن نفسها من خلال الرسائل المتبادلة بينهما، فقد تبادل الطرفان رسائل مليئة بالسباب والإهانات المتبادلة[92]، وتحدى كل منهما الآخر، بل واستمرت هذه الرسائل المتحدية حتى بعد أن سار السلطان سليم بجيش مكون من (120) ألفا، وقيل (100) ألف، لتقع معركة جالديران[93].

يلاحظ الباحث في تاريخ الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بسهولة أن المراسلات الاستفزازية كانت من أهم عوامل خلق النزاع وإثارة الأحقاد والضغائن، خاصة وأنها كانت بلغة وكلمات خارجة عن سياق أدب الرسائل الدبلوماسية ولغة الحوار السياسي، وكانت مملوءة بعبارات التخوين والجدل وإثارة

(89) - محمد عبد اللطيف هريدي: مصدر سابق، ص >64

(90) - عالم آراي عباسي: ج 1 ص 71.

(91) - المصدر السابق: ص 63.

(92) - بلغت المراسلات بين الرجلين مرحلة يصح وصفها بالصبيانية، فقد تبادلا إرسال الأشياء التي تحمل دلالات الاستهزاء والسخرية والإهانة، مثل العطور النسائية وملابس الحريم والأفيون، ينظر: محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 78 و79.

(93) - جالديران سهل يقع بالقرب من مدينة تبريز عاصمة الصفويين، حيث وقعت فيها المعركة الشهيرة يوم 23 آب أغسطس 1514م.

الحساسيات المذهبية والطائفية، وبالتأكيد أن جزءا من أهداف تلك المراسلات هو ممارسة الحرب النفسية وإثارة الخصم واستفزاز مشاعره ومشاعر أتباعه ومواطنيه. وقد تركت هذه المراسلات آثاراً سلبية جدا في علاقات الدولتين وشعوبهما. ونعرض هنا النماذج من تلك الرسائل التي تبادلها السلطان سليم الأول والشاه إسماعيل، والتي هيأت لمعركة جالديران..

ففي رسالة من سليم الأول إلى شاه إسماعيل قال فيها:

(عليك أن تندم على أفعالك المشينة، وألا تتأخر في إرجاع الولايات التي اغتصبتها منا، وفي حال تخلفك عن أوامرنا فإن جيوشنا المنصورة ستهاجم بلادك، وسيكون الله ظهيرا لنا.. وبقوة الله وعزته سنقلع جذور فتنك وشرورك عن المساكين والعجزة)[94].

وفي رسالة أخرى طالب سليم بضم جميع الأراضي الإيرانية للدولة العثمانية، وقد أرسل مع المكتوب صندوقاً كان يضم مسبحة وعصا وسواك أسنان وخرقة، في إشارة إلى زي الدراويش والمتصوفة، داعيا إسماعيل إلى ترك التاج والعرش والسيف واللجوء إلى عمل أجداده المتصوفة، ولم يرد الشاه على أي من الرسالتين حتى وصلت الرسالة الثالثة من السلطان سليم، والتي جاء فيها:

(الذين يصلون إلى الملك بقوة السيف يجب أن يحافظوا عليه بصدور عارية، وأن يجابهوا المخاطر والتحديات، ولا يمكن لأحد أن يجامع عروس السلطة قبل أن يقبل شفاه السيوف، ومن الخطأ إطلاق صفة الرجولة على الذين يتركون ساحات الوغى المظلمة عند المواقف الحاسمة، ومن يفر من الموت خوفا لا يليق به أن يتقلد السيف أو يمتطي الخيل)[95].

استفزت هذه الكلمات الشاه إسماعيل، والتي وجهت إليه إهانة قاسية ليرد برسالة مماثلة حين أرسل صندوقاً ذهبياً مليئاً بعشبة الترياك، في إشارة إلى أن سليماً فقد عقله تحت تأثير المخدرات[96]، ومعه رسالة مكتوبة مما جاء فيها:

(وردتني رسائل تنقل عن لسان سليم عبارات لا تليق بالسلاطين ولا تشبه أقوالهم، وأنا متيقن أن من كتب الرسالة قد اعتاد على تناول الترياك، وكتبها تحت تأثير المخدرات. ولذا أرسلنا إليه صندوقا ذهبيا فيه معجون من المخدرات الممتازة، وعن قريب سنرى أمر الله فيما يجري. وإنني حالياً في رحلة صيد وسأتوجه إلى نحوكم لأرى من هو ذاك الذي يرعد ويتهدد، وسليم هو مختار أن يعمل ما يراه وقد أعذر من أنذر..)[97].

في الرسالة الرابعة أرفق سليم أزياء نسائية للشاه إسماعيل، وقد ورد في رسالته هذه: (.. لقد حرضتني بعباراتك الجريئة على الحرب، ومنذ أسابيع أنا متوجه إليك مع جيشي وليس لدي أي أنباء عنك إن كنت حيّاً أو ميتاً، كل إنجازاتك العظمى عبارة عن حيل وأكاذيب وألاعيب، فأنصحك أن تعالج نفاذ غيرتك، وأنا لضعف قلبك قد هيأت (40) ألف مقاتل شجاع.. وإذا أخفيت نفسك في الظلمات والسراديب فسوف لا تحسب في صنف الرجال، وعليك أن تغير زيك الرجالي وتستبدله بحجاب النساء، وأن تترك السيف والدرع والملك والسلطنة)[98].

---

(94) - علي أكبر ولايتى: تاريخ روابط خارجى ايران در عهد شاه إسماعيل صفوى، ص144.

(95) - هامر بورگشتال: صص 837-836.

(96) - ولايتي: ص154.

(97) - هوشنك مهدوى: تاريخ روابط خارجى ايران، ص20.

(98) - بورگشتال: ص 839.

وبعد هذه الرسالة كانت معركة جالديران تقترب مع سير الجيش العثماني باتجاه إيران، كان الشاه إسماعيل في ذلك الوقت ما يزال منهكا من صده لهجمات الأوزبك، ولهذا لم يكن لديه خيار أفضل من أن يقوم بإجراءات تكتيكية تعمل على تأخير حملة السلطان سليم، باتجاه الأراضي الإيرانية. ولهذا كلف الشاه حاكم ديار بكر وقائد القزلباش هناك محمد خان استاجلو بإعاقة تقدم الجيش العثماني من خلال تخريب الطرق والقرى التي تقع على طريقه، وإحراق المزروعات لحرمان العثمانيين من الاستفادة في إطعام جيشهم الكبير. وقد تم إنجاز هذه المهمة على أكمل وجه[99]، بيد أنها لم تتسبب في منع السلطان وجنوده من الاستمرار في مسيرتهم باتجاه العمق داخل الدولة الصفوية، والحقيقة أن خطة الشاه كادت تنجح بالفعل،حيث عانى الجيش العثماني من قلة المؤن والطعام بسبب هذه الخطة القاضية باستدراجه لقطع أطول مسافة ممكنة، وبالتالي طول خطوط الإمداد الواصلة من طرابزون، ولكن كان العثمانيون قد تمكنوا من إيصال قلة من المؤن اللازمة عبر مسارات متعرجة بين الجبال والوديان على ظهور الحمير والبغال، ولولا ذلك لكان مصير الجيش العثماني الهلاك، كما أن الأمر قد تسبب في إضعاف الروح المعنوية للجنود الانكشاريين، وسئموا مع عدم ظهورالعدو وملاقاته، حتى إن عدداً منهم أعلن التمرد والعصيان وراح يرمي خيمة السلطان بالسهام والرصاص، طالبين العودة إلى تركيا، وقيل إن من دوافع تمرد الانكشاريين هو رفضهم قتال إخوتهم في الدين والعقيدة رغم الاختلاف المذهبي[100]. بيد أن حنكة السلطان مكنته من الإمساك بزمام الأمور من خلال العودة إلى شحن الأذهان بالحقد الطائفي، حيث خطب في جنوده قائلا: (إنما جئنا لمقاتلة المرتدين حتى يفيئوا إلى أمر الله، فمن تخاذل وآثر العودة فهو في حكم المرتد أيضا)[101]. ولعل في هذه الكلمة ما يعزز الرأي الذي طرحه جعفريان في كون الاختلاف المذهبي لم يكن مبرراً مقنعاً بدرجة كافية لبعض الإنكشاريين على الأقل. حسمت المعركة لصالح العثمانيين وترتب عليها سيطرتهم على منطقة الأناضول الشرقية والجنوبية والتحاق الأمراء الأكراد السنة[102].

العوامل المذهبية

لم تستطع معركة جالديران أن تضع حداً لوجود الدولة الصفوية، فقد عجز السلطان سليم عن تحقيق النصر الحاسم الذي كان يتوعد به من خلال احتلال إيران وإسقاط الحكم الصفوي وكانت بضعة أسباب وقفت حائلاً دون ذلك، من بينها التمرد الذي حدث في أوساط الإنكشاريين، والذي أشرنا إلى أنه وقع بسبب الظروف الجوية السيئة وقلة وصول المؤن، ويهمنا هنا هو البحث فيما قيل إنه سبب تمرد الإنكشاريين، وأعني به رفضهم مقاتلة من وصفوهم بالأخوة في الدين والعقيدة.

حيث ورد أن هؤلاء الإنكشاريين وجهوا رسالة إلى السلطان بعد العودة من معركة جالديران على أثر أمر السلطان سليم بقتل الأسرى الإيرانيين الذين بلغ عددهم عشرين ألفا، وقد جاءت في رسالتهم الفقرات التالية: (.. لقد تم قتل (45) ألف نفس في دولتنا وأكثر من (20) ألفا في الأراضي الإيرانية بتهمة الرفض والإلحاد، وعلماؤنا المتعصبون لم يشرحوا لنا معنى الرفض والإلحاد! بل قاموا بتضليل السلطان المعظم

(99) - المصدر السابق نفسه، ص 77.

(100) - عباس الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق، ص43.

(101) - د. محمد عبد اللطيف هريدي: مصدر سابق، ص53.

(102) - محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية، ص81.

وتسببوا في هدر هذه الدماء والنفوس المحترمة، وأجبرونا على قتل المسلمين. ما هو المسوغ الشرعي لقتل هذه النفوس التي كانت تصلي خمس مرات وتؤذن بالأذان المحمدي وتتوضأ كما نحن وتصلي وتصوم وتزكي وتحج وتقرأ القرآن وتشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ إذا كانت الصلاة بسبل الأيدي وإضافة أشهد أن عليا ولي الله وحيّ على خير العمل خلافاً للشريعة، فلماذا بعض الشافعية يصلون حيناً مكتوفي اليد وحيناً مسبولي اليد؟ والشهادة بعلي وإن كانت بدعة كما بناء المئذنة للجوامع ولكنها من البدع الحسنة، ونحن جميعاً نقر ونعترف بأن علياً ولي الله وأما الإيرانيون فنحن لا نريد قتالهم باسم الدين، بل قولوا لنا الحقيقة بأن الحرب جرت من أجل الملك، ونحن لا نرى بأن هذه البلاد تستحق أن نقتل من أجلها، ونسفك الدماء للاستيلاء عليها)[103]. إن مضامين هذه الرسالة تذكرنا بمدى التقارب بين الصفويين والعثمانيين منذ المراحل الأولى لظهورهم على مستوى العقيدة الدينية التي هي خليط من الصوفية والعقائد الشيعية. فبعد قرن من تأسيس السلطنة العثمانية وفي عهد السلطان أورخان الذي تقلد الحكم عام (1236م) أقدم على تكوين الجيش الإنكشاري، وقد صادف بداية تأسيس الإنكشارية كما يقول الدكتور الوردي أن جاء إلى تركيا من خراسان رجل صوفي علوي النسب اسمه الحاج محمد بكتاش ولي، فسكن في القرية التي تسمى باسمه اليوم على بعد (180) كم إلى الجنوب الشرقي من أنقرة. وقد حصل هذا الرجل على سمعة عالية جدا في المناطق المجاورة، وحين علم السلطان أورخان بأمره أراد أن ينتفع من بركته ليشمل بها جيشه الجديد، فقصده بنفسه ومعه أفراد من الجيش، وقام الحاج بكتاش بما ينبغي في هذا الشأن حيث وضع يده على رأس أحد الجنود، وقطع شيئا من قبائه فجعله على رأس الجندي، ثم قدم لهم علما أحمر يتوسطه هلال وسيف ذو الفقار، وأخذ يدعو الله أن يبيض وجوههم وأن تكون سيوفهم بتارة، وأن يفوزوا بكل غزوة بالظفر. وأطلق الحاج بكتاش على الجيش اسم (بني جري) أي الجيش الجديد، وهو الاسم الذي صار فيما بعد علما على الجيش، ثم حرف في اللغة العربية فأصبح الإنكشاري[104]. ومن هنا ظل أغلب الإنكشاريين يدينون بأفكار البكتاشية وعقائدها. هذه البكتاشية التي هي مزيج من التصوف والتشيع، كما كانت الصفوية من بعدها، يضيف الوردي قائلا: (يبدو أن الطريقة البكتاشية هي مزيج من التصوف والتشيع، فهم يؤمنون بالأئمة الاثني عشر إيماناً شديداً لايخلو من غلو، والملاحظ أن محور التقديس لديهم هو علي بن أبي طالب فهم يعدونه النموذج الأعلى للإنسان الذي تظهر فيه الحقيقة الإلهية، وهم كذلك يؤمنون بغيبة الإمام الثاني عشر ويترقبون ظهوره، ومن أدعيتهم المعروفة دعاء: «ناد علياً مظهر العجائب»، وهم يدعون به في النوائب اعتقاداً منهم أن علياً سينجدهم كما نجد النبي في معركة أحد، ففي عقيدتهم أن النبي عندما جرح في تلك المعركة قرأ الدعاء بأمر من جبرائيل فشفي، والبكتاشيون يتمسكون بمبدأ «التولي والتبري» المعروف عند الشيعة، أي الولاية لأهل البيت والبراءة من أعدائهم)[105] .

ويمكن اعتبار هذا الاشتراك من العوامل الأولى لنشوء نوع من الصراع والتزاحم بين الطرفين لكسب الأتباع والمريدين في الأناضول وإيران.

103 - د حميد حسينى: عوامل فرهنگی - مذهبی تنش بين صفويه وعثمانی، مجله سخن تاريخ تابستان 1388، شماره 5.

104 - الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، انتشارات المكتبة الحيدرية،1425 هـ الطبعة الثالثة، ج1 ص34.

105 - المصدر نفسه ص 36.

وعلى أية حال يلاحظ في الرسالة السابقة مجموعة من النقاط ذات الدلالة:

أولا/ وصف العلماء الذين أصدروا فتاوى التكفير، والتي برر من خلالها السلطان سليم عمليات القتل للشيعة وهجومه على الدولة الصفوية، بالمتعصبين. وأن ما ورد من وصف الصفويين بالإلحاد والرفض في تلك الفتاوى يفتقد إلى الدقة، وأن هذين المفهومين غير واضحين في الدلالة على حال الصفويين.

ثانيا/ إن الرسالة تشير إلى حالة من الإجبار على مقاتلة الدولة الصفوية، في وقت بررت بدبلوماسية موقفا للسلطان الذي تعرض للتضليل، ولأن المؤسسة الدينية كما هو مفروغ كانت تابعة للسلطة السياسية العثمانية فإن الجملة السابقة تعرض بموقف السلطان أكثر مما تبرر له واقعاً.

ثالثا/ عدم الرغبة في قتال الصفويين باسم الدين، وأن الغرض إنما هو سياسي محض، ويطرح كاتبو الرسالة وجهة نظرهم في أنه لا أهمية كبيرة لإيران في توطيد الملك العثماني. ما يعني أن هؤلاء النفر من الإنكشارية المتصوفة الذين يعودون إلى الطائفة البكتاشية لايحتملون وجود أية تهديدات مباشرة من قبل الصفويين على السلطنة والحقيقة أن هذه المضامين لا تبتعد عن الواقع، فإذا ما تأملنا في مواقف وسلوك الصفويين سنجد أنهم لم يكونوا ينطوون على رغبة توسعية في العالم الإسلامي كما هو الحال لدى الدولة العثمانية التي فرضت نفسها بعد سقوط المماليك باعتبارها الممثل الوحيد للخلافة الإسلامية، والعالم الإسلامي بأغلبيته السنية الساحقة. لهذا فإن تحرك الصفويين تحدد باتجاهات كانت ذات صلة بوجود الموالين، كما هو الحال في بعض مناطق الأناضول، أو بوجود المقدسات الشيعية المهمة، كما هو الحال في العراق، لكن الحساسية الطائفية والمذهبية عادة ما تترك آثاراً واضحة بغض النظر عن قضية التوسع الجغرافي والهيمنة السياسية، فهي ذات تبعات ونتائج طبيعية حتى لو كانت ممارسة داخل حدود الدولة، وهذا ما نجده حتى اليوم في عالمنا المعاصر. ومن هنا استفزت أفعال الصفويين لاسيما في بداية تأسيسهم لحكمهم الدول السنية الإقليمية، فمع وصول شاه إسماعيل إلى الحكم في تبريز أصدر عدة أوامر تصب في هذا الاتجاه، وهي:

- **أولا:** قراءة الخطبة باسم الأئمة المعصومين الاثني عشر.
- **ثانيا:** صك النقود باسم الأئمة.
- **ثالثا:** إضافة عبارات (أشهد أن عليا ولي الله) و(حي على خير العمل في الأذان).
- **رابعا:** لعن الخلفاء الثلاثة في المنابر والشوارع والأسواق، بل شكل فرقة عسكرية باسم تبرائيان لمعاقبة الرافضين للعلن.
- **خامسا:** معاقبة كل من يتخلف عن المذهب الشيعي في الصلاة والأذان واللعن والطقوس.
- **سادسا:** معاقبة كل من كان سبباً في إيذاء الشيعة في الحقب السابقة.

إن هذه السياسة المذهبية التي أخذت شكل التصفية الجسدية لأتباع المذهب السني، بلغت أخبارها الحكومات السنية البارزة في المنطقة وتحديداً العثمانيين والمماليك، وأحدثت ضجة في أوساطها السياسية والدينية والرأي العام آنذاك، كما أسهم العلماء السنة الذين تمكنوا من الهروب إلى الدولة العثمانية في رسم صورة دامية عن الأوضاع السنية داخل إيران في ظل حكم الصفويين، وبلا شك لم تخل من المبالغة. ويلفت النظر هنا أن بعض هؤلاء كالميرزا مخدوم كان من جذور شيعية ومن عائلة معروفة بالعلم والفضل، وقد كان خطيباً في تبريز ثم قربه الشاه إسماعيل الثاني إليه، ويبدو أنه قد أثر في الشاه فدفعه

إلى التخفيف من حدة الممارسات المتبعة ضد السنة وعقائدهم، بل يذكر السيد حسن الصدر في تكملة أمل الأمل ما ينبئ بشدة تأثيره على الشاه حتى إن الشاه إسماعيل الثاني تحول إلى المذهب السني في الليلة التي استدعى فيها السيد حسين بن ضياء الدين الكركي بإغواء من ميرزا مخدوم هذا[106]، ولمخدوم كتاب (نواقض الروافض) الذي كان من أكثر المؤلفات السنية تعصباً وتشدداً في مهاجمة العقائد الشيعية التي تم تأليفها في العهد العثماني، وقد ألف هذا الكتاب بعد إطلاق سراحه من السجن وهروبه إلى الدولة العثمانية عام 1587م، حيث نال فيها الحظوة والاهتمام وعين في مناصب رسمية عديدة.

إن سياسة الصفويين هذه كانت لها تأثيرات واضحة على العلاقة مع الدول السنية ولاسيما الدولة العثمانية، الجارة القوية المتمكنة ذات النفوذ، ولا شك أن هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن أذهان الكثيرين في إيران آنذاك، بل كان بعض حاشية الحكام الصفويين قد حاولوا الدفع باتجاه سياسة أكثر اعتدالاً وتقارباً مع السنة لتحسين العلاقات الخارجية مع العالم الإسلامي، وعلى سبيل المثال فإن بعض حاشية الشاه طهماسب اقترح عليه إيقاف لعن الخلفاء الثلاثة للحفاظ على العلاقات الودية مع الجوار، وهو أحد السادة الذي كان يسمى «القاضي أحمد»[107]، بيد أن هذا الاقتراح أزعج الشاه وأمر بقتله فورا، ثم تراجع بسبب سيادة الرجل واكتفى بإبعاده عن البلاط.

على الجانب الآخر لم تقف الدولة العثمانية مكتوفة الأيدي تجاه السياسات المذهبية للدولة الصفوية، فردّت بسياسات مماثلة في قسوتها وعنفها، وتجلى ذلك عبر:

- إصدار فتاوى تكفير الصفويين والشيعة عموماً.
- ملاحقة آلاف الشيعة وقتلهم وتهجيرهم.
- اعتبار الممارسات الصفوية إحدى أهم ذرائع الحرب مع الصفويين.
- فرض شروط لمنع لعن الخلفاء في معاهدات الصلح.

وقد شهدت مراحل عديدة من الحكم العثماني استمراراً لسياسة الاضطهاد والقتل ضد الشيعة في المناطق التي تقع تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية.

إن موقف العثمانيين من المذهب الشيعي سواء قبل الصفوية أو بعدها كان موقفاً عدائياً بشكل عام، خاصة بعد إسقاط الحكم المملوكي وجعل العثمانيين أنفسهم الممثل الوحيد الذي يعتبر امتدادا للخلافة العباسية، ذلك أن المذهب الشيعي لا يجيز خلافة غير القرشي، بل لايعترف بالخلافة كما هو مفهومها لدى المذاهب السنية، ويحصر تمثيل الأمة شرعياً وسياسياً بالإمام المعصوم، وهذا بخلاف المذاهب السنية ولاسيما المذهب الحنفي الذي اتخذه العثمانيون مذهباً رسمياً لكونه يجيز خلافة غير العربي، والخليفة مفترض الطاعة باعتباره ولي الأمر لدى جميع مذاهب السنة. في حين يرى الشيعة وجوب طاعة الإمام المهدي الغائب عن الأبصار، وطاعة من ينوب عنه من العلماء المجتهدين، وينقل الدكتور علي الوردي بهذا الشأن قول الشيخ سليمان ظاهر العاملي من أن المجتهدين جامعي شروط الاجتهاد هم نواب الإمام،

---

(106) - السيد حسين الصدر: تكملة أمل الآمل، تحقيق: د. حسين علي محفوظ، دار المؤرخ العربى، بيروت، ج1 ص130.

(107) - التفتازاني المذكور هو سيف الدين أحمد بن يحيى بن سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الهروي. تولى القضاء بمدينة هراة ما يقرب من ثلاثين عاما في دولة السلطان حسين ميرزا البايغرا. له مؤلفات في المنطق وعلم الكلام منها: تعليقة العقائد النسفية، وشرح تهذيب المنطق لجده التفتازاني، الخوانساري: روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، طهران، 1957 م، ج 1، ص 343.

ومـن وظيفتهـم أن لايقـروا ظلـم ملـك ظـالم في الرعيـة، وأن لا يكتمـوا حكـماً مـن أحـكام الشريعـة شريطـة التمكـين، وأن لايجـر إلى فسـاد وإراقـة الدمـاء [108].

لقـد أسـهمت العديـد مـن الممارسـات الطائفيـة في شـحن وتأجيـج الـصراع بـين الدولتـين الصفويـة والعثمانيـة، وهنـاك المزيـد مـن مظاهـر السياسـة المذهبيـة التـي كانـت عامـلاً مـن عوامـل الـصراع الصفـوي - العثـماني، ففضـلاً عـن القتـل المتبـادل لأتبـاع المذهبـين كان هنالـك مـن الممارسـات التعسـفية نبـش قبـور السـابقين وحـرق جثثهـم أوقتـل العلـماء، ومـن بينهـم شـيخ الإسـلام التفتـازاني، فبعـد مقتـل شـيبيك خـان الأوزبكـي عـلى يـد شـاه إسـماعيل، فـرض الجيـش الصفـوي سـيطرته عـلى خراسـان ودخـل مدينـة هـراة فاتحـاً في عـام (916هــ/ 1510م) ولكـن دخـول المدينـة رافقهـا عمليـات همجيـة فسـجل مقتـل عـدد مـن الخطبـاء السـنة الذيـن لم ينصاعـوا لأوامـر القـوات الفاتحـة، كـما قتـل عـلى رأسـهم شـيخ الإسـلام سـيف الديـن أحمـد بـن يحيـى التفتـازاني، وكان مقتلـه مدعـاة لـلأسى والأسـف عنـد الشـيعة أنفسـهم، فقـد نقـل عـن المجتهـد عـلي بـن عبدالعـالي الكـركي المعـروف بالمحقـق الثـاني أنـه عندمـا دخـل مدينـة هـراة في تلـك المرحلـة، وعلـم بمقتـل التفتـازاني اعـترض قائـلا: «لـو لم يقتـل لأمكـن أن يلـزم عليـه بإقامـة الحجـج القاطعـة والبراهـين السـاطعة بأحقيـة مذهـب الإماميـة وبطـلان مذاهـب غيرهـم، فيكـون ذلـك سـبباً لهدايـة سـائر أهـالي تلـك البـلاد» [109].

وكان التفتـازاني هـذا مـع خمسـة مـن كبـار علـماء السـنة قـد اجتمعـوا في دار الإمـارة لاسـتقبال الشـاه إسـماعيل قبـل دخولـه المدينـة، ولكـن الشـاه أمـر بقتلهـم جميعـا [110].

وذهـب الشـاه الصفـوي خطـوة أخـرى في سياسـاته المذهبيـة التـي ألقـت بظلالهـا عـلى العلاقـات بـين الدولـة الصفويـة والعثمانيـين، ففـي عـام (916هــ/ 1510م) احتـل شـاه إسـماعيل الصفـوي مدينـة بغـداد، وهـو احتـلال أثـار حفيظـة السـلطان بايزيـد الـذي عجـز عـن إقنـاع الـدول السـنية الأخـرى: (المماليـك في مـصر، الأوزبـك في مـا وراء النهـر) لمواجهتـه، وبالتـالي تعامـل مـع الأمـر الواقـع و اعـترف بالسـلطة الصفويـة عـلى إيـران والعـراق مـن خـلال رسـائل تهنئـة واعـتراف.

وبعـد دخـول الشـاه إلى بغـداد قـام بنبـش القبـور وتخريـب المراقـد الدينيـة للسـنة في المدينـة، يذكـر ابـن شـدقم أن: (شـاه إسـماعيل فتـح بغـداد، وفعـل بأهلهـا النواصـب ذوي العنـاد مـا لم يسـمع بمثلـه قـط في سـائر الدهـور بأشـد أنـواع العـذاب، حتـى نبـش موتاهـم مـن القبـور، وكان حـين يتوجـه لبلـد يأمـر بـالأذان في الطـرق بــ «حـي عـلى خـير العمـل»، و «محمـد وعـلي خـير البـشر»، وذكـر الأئمـة الاثنـي عـشر عـلى رؤوس المنابـر، وكان يفخـر بهـذا حتـى إن كثـيراً مـن النـاس نسـبوا هـذا المذهـب إليـه، ونسـبوه إلى الكفـر والضـلال، وهـذا مـن بـاب الحسـد والبغـض والتعصـب والجهـل المحـض)[111].

ومـما يتصـل بالعامـل المذهبـي تـبرز محاولـة الشـاه إسـماعيل نـشر التشـيع في الأناضـول، والـذي كان مـن بـين التحـركات التـي سـاعدت السـلطان سـليم عـلى تدعيـم موقفـه المعـادي للصفويـين، إذ لم يكتـف الشـاه إسـماعيل

(108) - د. علي الوردي، لمحات اجتماعية ج3، دار كوفان، لندن، 1992، ص 82.

(109) - محمد باقر الخوانساري: مصدر سابق، ج 1 ص 343.

(110) - د. جودت القزويني: تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية من العصر البويهي إلى نهاية العصر الصفوي الأول، دار الرافدين، بيروت، 2005 م، ص 275.

(111) - ابـن شـدقم: تحفـة الأزهـار وزلال الأنهـار في نسـب السـادة الفاطميـة الأطهـار، الورقـة 217، المؤسسـة العامـة للآثـار، مكتبـة الآثـار العراقيـة (رقـم المخطوطـة 10692).

بفرض ونشر التشيع في إيران، بل بدأ بحملة لجمع شتات الشيعة وأتباع الطريقة الصفوية في الأناضول، واستثمارهم كعيون ومبلغين له ولطريقته ولحكمه وللتشيع، مما أثار حفيظة الدولة العثمانية السنية.
وقد استثمر شاه إسماعيل التراتبية الصوفية الخاصة بطريقة أسرته في تنظيم الشيعة في الأناضول من خلال تنصيب شخصيات تحت عنوان «خليفة»، ينظمون الشيعة سياسياً وعسكرياً. ولتلافي إيجاد تكتلات تابعة لإيران أصدر السلطان بايزيد الثاني تعليمات لحكام المناطق الحدودية بـ:
- منع دخول أي فرد تحت عنوان صوفي أو درويش من إيران إلى الداخل العثماني.
- تهجير أعداد كبيرة من أتباع الطريقة الصفوية إلى الداخل العثماني، وإبعادهم من الحدود.
وعلى إثر هذه التعليمات الصارمة ثارت مجاميع صفوية بقيادة أحد خلفاء إسماعيل في الأناضول لكن تم قمعهم وتشريدهم.
ومن جهة أخرى أرسل شاه إسماعيل في زمن السلطان سليم رسالة يطالبه فيها بأن يفسح الحريات أمام أتباع أسرته في الدولة العثمانية لممارسة طقوسهم، مما أثار غضب السلطان سليم الذي أصدر أوامره بإحصاء الشيعة بشكل سري في الأناضول ثم قام بقتل (40) ألفا منهم في حملة واحدة كما سبقت الإشارة إليه، وتم وسم جباه الباقين بالحدائد لكي يتم تمييزهم عن باقي المواطنين السنة.
إن هذه العوامل تضافرت لتشكل منذ بداية تأسيس الدولة الصفوية أسباباً مباشرة للصراع بينهما، وقد خفت وتيرة هذا الصراع في مراحل معينة ولم تشهد العلاقة تطورات مهمة لاسيما في زمن بعض الحكام الصفويين الذين كانوا أكثر تسامحاً من الناحية المذهبية، كما حدث في زمن الشاه عباس الثاني، الذي مال لأسباب مجهولة نحو المذهب السني، ومنع الشعارات المناهضة للسنة وانتقد العداء المذهبي بين الطائفتين، وأبعد عددا من علماء الشيعة من بلاطه، وأمر بإزالة الشعارات التي تتضمن سباً للخلفاء الثلاثة أو مدحاً لعلي من سائر الأماكن[112]. ورغم وضوح ميله ورغبته صوب التغيير المذهبي في بلاده إلا أنه لم يفرض ذلك على الناس بل ترك الحرية لكل شخص أن يتصرف بما يشاء. وكان من الطبيعي أن ينتهي مصيره نهاية مأساوية نتيجة تمرده على ما درجت عليه الصفوية في الحكم، فقد قرر قادة القزلباش تنحيته وعزله في اجتماع ضم أبرز وجوههم، ولكنهم تراجعوا عن ذلك وأنكروه من أنفسهم حين تم استدعاؤهم من قبل الشاه، وفي النهاية تم اغتياله وهو نائم في فراشه ويبدو أن ثمة اختلافا بين المؤرخين والدارسين حول الكيفية التي قتل بها، ومن كان وراء ذلك، حيث يرى الكثيرون أن أخته پريخان خانم[113] التي يعود لها الفضل في تربعه على العرش الصفوي، قد دست له السم في علبة الأفيون الذي كان يتعاطاه باستمرار منذ كان في السجن، ويذكر آخرون أنه تعاطى جرعة زائدة من الأفيون وربما هي التي أودت بحياته، وعموما فإن مصدر هذا

(112) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 113.

113 - بريخان خانم هي بنت السلطان شاه طهماسب الأول، كانت عاقلة مدبرة عارفة بسياسة الملك ولما مات أبوها طهماسب اختلف أعيان الدولة فيمن يكون بعده، فبعض مال إلى حيدر ميرزا، وبعض إلى إسماعيل ميرزا وهما أولاد طهماسب، وكان إسماعيل محبوساً في قلعة قهقهة فأبت هي إلا إسماعيل وأزالت جميع الصعوبات التي كانت تصدها عن ذلك وكانت هي التي تدبر شؤون المملكة في المدة التي بين موت أبيها وجلوس ولده إسماعيل فلما جلس إسماعيل على عرش الملك في قزوين أخلت يدها من التدخل في شؤون المملكة، ولما مات السلطان الشاه إسماعيل وأجمع الناس على أن يكون المتولي بعده الشاه محمد والد عباس الكبير وكان في شيراز وكانت إدارة المملكة بيدها من وفاة الشاه إسماعيل إلى أن تولى الشاه محمد، فلما تولى أمر بقتلها فقتلت. (محسن الأمين العاملي: مصدر سابق، ج3 ص 557.

الاختلاف فيما يبدو هو أن أحدا لم يحقق في موت الشاه وأغلق هذا الملف الذي لم يفتح أساسا[114].
تم بعد وفاة إسماعيل الثاني اختيار الشاه محمد خدا بنده، وكان هذا الشاه يكن عداءً شديدا للعثمانيين بسبب ظنه أن لهم يدا طولى في إثارة القلاقل الداخلية والنزاعات التي عصفت بالبيت الصفوي، وربما كان الشاه خدا بنده يفكر بالطريقة المعتادة على مر تاريخ الدول التي ترى أحيانا ضرورة إشعال الخلافات مع الخارج لتقوية الجبهة الداخلية، وخلق حالة من التماسك بين أقطابها، لكن في المقابل لم يكن العثمانيون دعاة سلام في تلك اللحظة، بل كان المستفيدون من الحرب على الجانب العثماني كثيرين [115]، فوالي أضروم كان يتطلع لقيادة حملة عسكرية ضد الصفوية، وتوقع السلطان العثماني أن الحرب ستكون سهلة هذه المرة لما اعترى الجانب الصفوي من وهن داخلي، ولعله أيضا فكر في رفع الروح المعنوية لجنوده العائدين من هزائم منكرة في أوروبا، فضلا عن أن معركة ليبانت البحرية[116] التي خسرها العثمانيون أدت إلى فقدان السيطرة البحرية التي كانت بأيديهم الأمر الذي دفع السلطان للتفكير في اجتياح إيران لتوفير موارد إضافية للدولة تعوضها عن الخسائر التي تكبدتها في المعركة المذكورة [117]، وإزاء هذه المعطيات كانت الأمور تسير نحو الصدام المسلح وجولة معارك جديدة بين الدولتين. وقد بدأت المواجهة بتحرشات واسعة من قبل العثمانيين الذين دفعوا القبائل الكردية لمهاجمة الصفويين ومؤيديهم، وبالفعل استولوا على مناطق عديدة بين أذربيجان وبحيرة وان، وقتلوا الآلاف من الأبرياء، وأرسلوا رؤوسهم إلى السلطان مراد الثالث الذي استلم الحكم بعد وفاة سليم عام 1574م، وسرعان ما جهز السلطان مراد جيشاً من مائة ألف مقاتل واتجه به إلى جورجيا، بادر الشاه خدا بنده إلى إرسال رسالة ودية إلى السلطان مراد وللاستيضاح حول نقض معاهدة أماسية، لكن حرس الحدود العثماني ألقى القبض على المبعوث ومنعوه من دخول الحدود[118]، فضلا عن أن الجيش العثماني كان قد دخل جورجيا بالفعل. فلم يكن أمام الشاه سوى الأمر بتشكيل جيش من القزلباش الأذربيجانيين، بيد أنه هزم وتبدد بعد انتصارات أولية عند بدء هجومه على العثمانيين. أعقب ذلك توجه العثمانيين إلى الكرج، وتقدموا داخل إيران، وفي عام (1585م) دخلوا تبريز وقتلوا من المدنيين الشيعة ثمانية آلاف في مذبحة صادف وقوعها في شهر رمضان. استمرت المواجهات العسكرية ستة أعوام بعد احتلال تبريز، تم خلالها عزل الشاه محمد خدا بنده وتولية الشاه عباس، والذي استلم السلطة بعد تنازل أبيه عام (1588م)، وبعد فترة من توليه قرر عقد الصلح مع الدولة العثمانية، ودفعه إلى ذلك أمران مهمان، الأول التهديدات الكبيرة التي شكلها الأوزبك ولم يعد بالمستطاع إلا التفرغ لهم. والثاني لم يكن الجيش الصفوي في موقع يمكنه من انتصارات مهمة على العثمانيين ولهذا لم يكن ثمة خيار أمام عباس سوى كسب الوقت واستكمال بناء قواته وتجهيزها بالأسلحة الحديثة.

---

114 - الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق، ص 103.

(115) - محمد عبد اللطيف هريدي: مصدر سابق، ص 71.

116 - هي معركة بحرية وقعت في 7 أكتوبر سنة 1571م، بين العثمانيين وتحالف أوروبي تشكل على إثر رسالة البابا بيوس إلى ملك أسبانيا، وكان أسطول التحالف مكونا من 295 سفينة فيما الأسطول العثماني تألف من 184، وجرت المعركة عند ميناء ليبانت اليوناني وانتهت بهزيمة ساحقة لحقت بالعثمانيين.

(117) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 120.

(118) - المصدر السابق نفسه، ص 121.

ولهذا وقّع الطرفان اتفاقية إسطنبول الأولى عام 1590م، والتي تأسست على أساس قبول الشاه بمبدأ statu quo أي القبول بالوضع الراهن[119]، ولهذا فقد احتفظت بموجبها السلطات العثمانية بسيطرتها على أذربيجان وتبريز وقره باغ وقارص وتفليس وشهرزور ونهاوند ولورستان، فضلا عن شرط عثماني جديد تمثل في توقف الخطباء ودعاة الشيعة عن سب الخلفاء الثلاثة والسيدة عائشة [120].

كان الشاه طوال السنوات التي أعقبت اتفاقية إسطنبول ملتزماً ببنودها حتى إنه كان يستهل رسائله إلى العثمانيين بالسلام على الخلفاء الأربعة[121] بيد أنه في الوقت نفسه كان يبذل جهودا حثيثة لبناء قدراته العسكرية وتطويرها وتجهيزها بأحدث الأسلحة، ومد جسور التفاهم مع الأوربيين بغية الوصول إلى تحالف عسكري ضد الدولة العثمانية، حيث أرسل عام (1599م) مبعوثين له إلى أوروبا لأجراء مفاوضات عسكرية واقتصادية، واستقبل الوفد بحفاوة كبيرة من قبل إمبراطور فيينا، واطلع على الرغبة الصفوية بتشكيل تحالف مع الروس والجورجيين، وبذل جهوداً لتوحيد ملوك أوروبا، ولم تكن تلك المساعي خافية على السلطان العثماني، ولهذا كتب إلى الشاه رسالة شديدة اللهجة آذنت بجولة صراع جديد، حيث كتب إليه قائلا: (علمنا بتصرفات لا تصدر عن عاقل قط، فلم يعد خافياً علينا أمر سفاراتك إلى الكفرة، ونحن نعرف أيضا أن الهدف من هذه السفارات هو إرضاء هوى في نفسك وإشباع توسعية تتغلب عليك، وهي تتفق وأهداف الكفرة الأعداء، وإنك مع الكفرة على اتفاق ومع المسلمين الموحدين على نفاق)[122]، والواقع أن تصرفات الشاه عباس كانت مبررة لأن ثمة مساحات شاسعة من إيران خضعت للسيطرة العثمانية، والجدير بالذكر هنا أن الحدود التي رسمت بعد معارك الشاه مع العثمانيين فيما بعد هي التي استقرت عليها الخارطة الحالية لكل من إيران وتركيا. وهكذا فقد انتقل عباس الثاني من الدفاع إلى الهجوم عام (1603م)، واستطاع استرجاع أذربيجان والقوقاز من قبضة العثمانيين الذين انسحبوا إلى الأناضول.

خاضت الدولتان فيما بعد عدة جولات من الصراع العسكري الدامي، تخللها بعض المعاهدات وتبادلا السيطرة على بعض المناطق كبغداد و تبريز وأذربيجان، واستمر ذلك حتى عام (1049هـ/ 1639م) حيث وقعت اتفاقية قصر شيرين التي أعقبت استعادة العثمانيين لمدينة بغداد بعام واحد في عهد الشاه صفي، وكان ذلك في معركة تعد واحدة من أدمى المعارك التي جرت بين الصفويين والعثمانيين، حيث سقط قتلى بالآلاف من الجانبين ومنهم قادة وضباط كبار، وشهدت أحداثاً جسيمة كمحاصرة عشرين ألفاً من الجنود الصفويين داخل القلعة واستمروا بمقاومة شرسة كبدت الجيش العثماني خسائر فادحة إلى أن قضوا جميعهم، كما عمد الأهالي الشيعة إلى تفجير مخزن بارود أدى إلى قتل (800) جندي عثماني، وعلى أثرها انتقم الأتراك من العراقيين الشيعة في بغداد وقتلوا وسجنوا منهم أكثر من ألف وأربعمائة شخص، ثم جرى نفي الأهالي الشيعة من بغداد إلى مناطق في وسط وجنوب العراق[123]. ولم تخل اتفاقية شيرين من مطالبة إلزام الجانب الصفوي بالكف عن سب الخلفاء الراشدين والسيدة عائشة وجميع الصحابة [124].

(119) - يلماز أوزونا: مصدر سابق، ج-1 ص 420.

(120) - محمد عبد اللطيف هريدي: مصدر سابق، ص72.

(121) - المصدر نفسه.

122 - د. خليل إينالجيك: مصدر سابق، ص 69.

(123) - يلماز أوزوتا: مصدر سابق، ج-1 صص 481 - 482.

(124) - محمد عبد اللطيف هريدي: مصدر سابق، صص 76-75.

المؤسسة الدينية والصراع الصفوي - العثماني

أولا/ مؤسسة مشيخة الإسلام العثمانية

إن الصراع بين الدولتين وكما يبدو للباحث أنه صراع لأغراض سياسية، جرى فيه استخدام الدين والمذهب كغطاء لتبرير تلك المصالح والأغراض. ولكن علاقة كل من طرفي الصراع بالمؤسسة الدينية التي ينتمي إليها مذهبياً تبدو مختلفة، فعلى الجانب العثماني لا يكاد يوجد خلاف بين الدارسين لحقيقة أنها مؤسسة تابعة للسلطة، وتبدو وظيفتها تلبية ما ينسجم مع المصالح العليا للسلطة والتي غالبا ما يقدرها السلطان نفسه. ويجدر هنا إلقاء نظرة على طبيعة العلاقة بين المؤسسة الدينية والسياسية في الدولة العثمانية.

إن العلاقة بين الديني والسياسي بدأت منذ انطلاق الإسلام، وفي القرآن ثمة ما يتوفر كأدلة لإثبات العلاقة العضوية بين الجانب الديني والسياسي، وكما أكدتها كذلك الخلافة الراشدة عند الفقهاء السنة، وصيغة الإمامة لدى الفقهاء الشيعة، وهو ما جعل الانفكاك بين الحيزين - الديني والسياسي- أمرا مستحيلا[125].

وقد مضى نظام الخلافة وفق وجهة النظر السنية باعتباره واقعاً عاشته الأمة لقرون طويلة وانتهى إلى العثمانيين بعد إسقاطهم المماليك الذين كانوا يكتسبون شرعيتهم من وجود خليفة صوري يمثل امتداداً للخلافة العباسية. وقد استمرت الخلافة لدى العثمانيين زهاء خمسة قرون حتى ألغيت عام (1924م) بعد خطوات متوالية كان أهمها فصل الخلافة عن السلطنة بمعنى أن يكون الخليفة عنوانا ذا دلالة روحية مجرداً من الصلاحيات، وقد تضمن قرار المجلس الوطني التركي القول: إن بحث قضية الخلافة من قبل مفكري الإسلام في كتب العقائد لا يعني أنها منها وإنما للرد على أفكار تحيط بها ولا ترتبط بها، فالخلافة مسألة دنيوية سياسية أكثر منها دينية، ولهذا السبب خلت النصوص الشرعية من إيضاحها بالتفصيل، بل إن الرسول لم يبينها مع حرصه على بيان وصاياه بالنسبة لأبسط الآداب والعادات[126]، وهذه بطبيعة الحال وجهة نظر العلمانية الأتاتوركية.

إن السلطنة العثمانية عند تأسيسها كانت قد لمست الحاجة إلى إقامة نظام يجعلها على تواصل تاريخي مع الخلافة العباسية، وثمة ظروف دفعتها إلى استحداث مناصب شبيهة بتلك التي استحدثها العباسيون منذ هارون الرشيد، ومنها منصب قاضي القضاة، وهكذا فإن نشاة المؤسسة الدينية في الدولة العثمانية كانت وليدة حاجات ملحة لإقامة الدولة وحفظ نظامها العام، ومرت بمرحلتين، كانت المرحلة الأولى على يد مؤسسها السلطان عثمان الذي أسس نظام المفتي عام (725هـ)، وأوكله إلى شيخ صوفي يدعى (إده بالي). أما مشيخة الإسلام فقد ظهرت في عهد السلطان مراد الثاني، وارتبطت نشأتها مع تكليف الشيخ فناري أفندي، الذي حمل عنوان المفتي الأكبر وشيخ الإسلام. وكان ظهور المشيخة لأول مرة عام (828هـ / 1425م)، وفي مركزها الأول في مدينة «بروسة»، ومنها انتقلت إلى مدينة «أدرنة»، ثم تم نقلها إلى «إسطنبول» بعد فتحها سنة (1453م)[127]. ويبدو أن دواعي إنشاء المشيخة كمؤسسة شرعية للإفتاء في الدولة العثمانية هو توحيد مواقع الفتوى والحد من فوضاها، بعد ظهور ومواجهة بعض الحركات والنحل

---

(125) - وجيه كوثراني: مصدر سابق، ص22.

(126) - د. مصطفى حلمي: نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، دار الكتب العلمية - بيروت، ص 447.

(127) - عبد الكريم السمك: مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية، مقال منشور، تاريخ النشر: 2014\3\22.

التـي ظهـرت في الأناضـول، ولترسـيخ الملمـح السـني في تنظيـم الدولـة سـيراً عـلى خطـى الخلافـة العباسـية[128]. ومـن الواضـح أن وجـود مشـيخة الإسـلام بوصفهـا مؤسسـة إفتـاء دينيـة وفـق المذهـب السـني وتحديـداً المذهـب الحنفـي كان لأجـل تدعيـم السـلطنة ومنحهـا الشرعيـة، وكانـت معنيـة بإصـدار الفتـاوى السياسـية والإداريـة للدولـة العثمانيـة.

والواقـع إن تسـمي السـلاطين العثمانيـين بـدءا مـن السـلطان سـليم بالخليفـة لم يكـن أمـرا يثـير الحـرج لديهـم، فقـد فرضـوا سـطوتهم بعـد احتـلال مـصر والشـام، وفرضـوا سـيطرتهم عـلى عمـوم المنطقـة، واعتـبروا أنفسـهم الوارثـين الشرعيـين للخلافـة الإسـلامية. وبالتـالي فـإن الشرعيـة التـي ألجأتهـم إلى مشـيخة الإسـلام لا تتصـل بتبريـر خلافتهـم التـي هـي أمـر واقـع عـلى كل حـال، ولم تـثر الكثـير مـن المشـاكل، بـل تتجـلى الحاجـة كـما يـرى كوثـراني في واقـع مـا عليـه السـلطنة مـن كونهـا كانـت تذهـب معزولـة في سـياقها الشـعبي والتعبـوي عـن الأمـة أوالجماعـة التـي تدعـي تمثيلها، نحـو حكـم علـماني دنيـوي قـد يختلـف عـن أحـكام الشريعـة، وجـاء حـل هـذا الإشـكال عـلى اليـد السـلاطين العثمانيـين عـن طريـق الاقـتراب مـن ذات السـياق الشـعبي والتعبـوي، والتقـرب مـن ممثـلي الحالـة الإسـلامية التـي تعيشـها الجماعـة، أي الفقهـاء والعلـماء ومشـايخ الصوفيـة، واقـتران السـلطان بأسـماء مظاهـر تـبرز فيهـا معـاني التقديـس والتديـن جنبـا إلى جنـب مـع معـاني التعظيـم والتفخيـم [129].

علاقة شيخ الإسلام بالسلطان

شـيخ الإسـلام أو المفتـي العـام هـو أحـد الفقهـاء البارزيـن ويتـم تعيينـه مـن قبـل السـلطان، وقـد تعاقـب عـلى هـذا المنصـب في عهـد بايزيـد الأول وحتـى سـليمان القانـوني الفقهـاء التاليـة أسـماؤهم: (الشـيخ محمـود الفنـاري، فخـر الديـن الأعجمـي، أحمـد بـن فرامـرز، أحمـد بـن عثـمان الغـورائي، المـولى عبـد الكريـم، عـلاء الديـن العـربي، حميـد الديـن الحسـني، شـمس الديـن كـمال باشـا، سـعد اللـه أمـير خـان، محـي الديـن بـن إليـاس، المـولى الفنـاري، أبـو السـعود أفنـدي). إن موقـع المفتـي لـدى السـلطان فيـما يبـدو واضحـا هـو موقـع متميـز، حيـث يقـدم عـلى الـوزراء احترامـا وتبجيـلا بـل يـكاد أن يكـون نـدًا للسـلطان، وتـرد بضعـة حكايـات وأحـداث تـدل عـلى مـا كان يتمتـع بـه المفتـي مـن جـرأة في الـرد وعـدم مهادنـة في الأحـكام الشرعيـة، ولكـن لم يكـن ذلـك ليوجـد اختلافاً وتضارباً حـول القضايـا الكبرى والتـي تمـس نظـام السـلطنة، فضـلا عـن أنهـا لم تكـن حالـة عامـة، فقـد عـرف مثـلاً أبـو السـعود أفنـدي بكونـه لينـا يميـل إلى أرضـاء السـلطان في كل الأحـوال[130]. وقـد أمـضى أبـو السـعود فـترة طويلـة في خدمـة النظـام العثـماني، وأفتـى بمـا وافـق سياسـات السـلطان سـليمان القانـوني، وبـرر كل سياسـات السـلطنة وتأكيـد شرعيتهـا الدينيـة الإسـلامية، ومنـذ مرحلـة أبي السـعود دخـل منصـب الإفتـاء داخـل إطـار المؤسسـة القانونيـة والإداريـة تحـت عنـوان مشـيخة الإسـلام، مـن خـلال مكاتـب ومراسـيم وموظفـين، وبهـذا تـم انتقـال وظيفـة الإفتـاء مـن دور ذي طابـع إسـلامي اجتهـادي مسـتقل ومنفتـح إلى دور ذي طابـع إداري ومؤسـسي منضبـط داخـل قوانـين الدولـة ومراكـز القـوى فيهـا، وقـد تـم ذلـك في عهـد السـلطان سـليمان وترسـخ في الأدوار اللاحقـة[131]. وعـلى أيـة حـال كانـت مشـيخة الإسـلام مؤسسـة دينيـة

128 - المصدر السابق.

(129) - كوثراني: مصدر سابق، ص 64.

(130) - ينظر: كوثراني، مصدر سابق، ص 69.

(131) - المصدر نفسه.

حكومية، تخضع لإشراف السلطان العثماني، وكانت وقفاً على أتباع المذهب الحنفي فقط، ما شكل سابقة في تاريخ الخلافة السنية، حيث أخرجت المذاهب السنية الأخرى من دائرة الحماية الحكومية، ومع ترسيخ مشيخة الإسلام كمؤسسة ضمن الإطار الحكومي تحول الفقهاء إلى موظفين في الدولة ينتظرون تعليماتها وينطقون بلسانها ويفتون لصالحها، ومن باب حماية هذه المراكز الوظيفية والامتيازات التي ترتبط بها أتخذ فقهاء الدولة موقف العداء الصريح من الفقهاء والأنشطة والتيارات التي لا تخضع لهم، وتنازعهم دورهم وتهدد نفوذهم، وتوقع بينهم وبين الحاكم[132]. إن أهمية مشيخة الإسلام كمرجعية في الإفتاء بالنسبة إلى الدولة العثمانية كانت على ما بيّناه آنفاً تتصل بالأغراض السياسية وترسيخ نظام الدولة ومنحها الشرعية، وما يؤكد ذلك بوضوح أن السلطان لم يول أهمية لما عداها في المناطق الأخرى التي تقع تحت سيطرته، كالأزهر الذي ظل طوال الحكم العثماني متمتعاً بهامش واسع من الاستقلالية المالية والإدارية، فلم تعين الدولة العثمانية أي عالم عثماني في منصب شيخ الجامع الأزهر طوال حكمها، ولم تتدخل في اختيار أحد من المصريين لمنصب المشيخة، ولم تحتم أن يكون الشيخ حنفي المذهب، بل تركت اختيار شيخ الجامع مطلقاً من كل قيد مذهبي ومنوطة بالمشايخ أنفسهم. وعلى الرغم من أن السلطات العثمانية كانت تفضل بطبيعة الحال أن يكون شيخ الأزهر حنفي المذهب، فإن أحداً من علماء الحنفية لم يحتل منصب مشيخة الأزهر طوال العصر العثماني[133].

موقف مشيخة الإسلام من الدولة الصفوية

يتبين مما سبق أن موقف مشيخة الإسلام من الدولة الصفوية كان متماشياً تماماً مع موقف السلطان العثماني، وكانت المشيخة أداة طيعة ووسيلة لدعم الموقف السياسي وتبريره الشرعي، لقد صدرت فتاوى عديدة من علماء السنة في الدولة العثمانية جاعلة من الصفويين مرتدين وكفرة، بل طال الحكم عموم الشيعة سواء داخل إيران أو خارجها، يقول الشيخ ابن عابدين في تنقيح الفتوى الحامدية: (وقد أكثرَ مشايخ الإسلام من علماء الدولة العثمانية من الإفتاء في شأن الشيعة المذكورين، وقد أشبعَ الكلام في ذلك كثير منهم وألفوا فيه الرسائل وممن أفتى بنحو ذلك فيهم المحقق المفسر أبو السعود أفندي العمادي، ونقل عبارته العلامة الكواكبي الحلبي في شرحه على منظومته الفقهية المسماة الفرائد السنية، ومن جملة ما نقله عن أبي السعود بعد ذكر قبائحهم على نحو ما مر فلذا أجمعَ علماء الأمصار على إباحة قتلهم)[134]، ومن الأمثلة التي تعكس مواقف متطرفة للغاية ما ذكره ابن عابدين في مؤلفه المشار إليه من فتوى للشيخ نوح الحنفي، حيث يقول: (ورأيت في مجموعة شيخ الإسلام عبد الله أفندي حفظه الله لملك السلام حين زارني في الجنينة وقت قدومه من المدينة المنورة، على منورها أفضل الصلاة وأتم السلام سنة (1146م) ما صورته: ما قولكم - دام فضلكم ورضي الله عنكم ونفع المسلمين بعلومكم - في سبب وجوب مقاتلة الروافض وجواز قتلهم هو البغي على السلطان أوالكفر؟ ويجيب الحنفي قائلاً: «من توقف في كفرهم وإلحادهم ووجوب قتالهم وجواز قتلهم فهو كافر مثلهم، وسبب وجوب مقاتلتهم وجواز قتلهم البغي والكفر معاً، فيجب قتل هؤلاء الأشرار الكفار تابوا أولم يتوبوا، لأنهم إن تابوا وأسلموا

---

(132) - حمد صدقي شقيرات، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، منشور الكترونياً.

(133) - هاني السباعي: أسباب تهميش واحتواء دور المؤسسات الدينية، مقال منشور، مركز المقريزي للدراسات.

(134) - محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي: العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية مخطوطة المكتبة الأزهرية. ص 95.

قُتلوا حداً على المشهور وأجري عليهم بعد القتل أحكام المسلمين، وإن بقوا على كفرهم وعنادهم قُتلوا كفراً وأجري عليهم بعد القتل أحكام المشركين)[135].

كما كانت فتاوى كمال باشا باعتباره شيخ الإسلام في الدولة العثمانية في صدارة الفتاوى ذات التأثير السياسي والاجتماعي، حيث حكم بتكفير الشيعة، ومما جاء في فتواه تلبية لرغبة السلطان قوله: (إن أنواع كفرهم المنقولة إلينا بالتواتر مما لا يعد ولايحصى، فنحن لا نشك في كفرهم وارتدادهم، وأن ديارهم دار حرب وإن نكاح ذكورهم وإناثهم باطل بالاتفاق، فكل واحد من أولادهم يصير ولد زنا لامحالة وما ذبحه واحد منهم يصير ميتة، وإن من لبس قلنسوتهم الحمراء المخصوصة بهم من غير ضرورة كان خوف الكفر عليه غالباً؛ فإن ذلك من أمارات الكفر والإلحاد ظاهراً، ثم إن أحكامهم كانت من أحكام المرتدين حتى إنهم لو غلبوا على مدائنهم صارت هي دار الحرب، فيحل للمسلمين أموالهم ونساؤهم وأولادهم، وأما رجالهم: فواجب قتلهم إلا إذا أسلموا، فحينئذ يكونون أحراراً كسائر أحرار المسلمين، بخلاف من أظهر كونه زنديقاً فإنه يجب قتله البتة، ولو ترك واحد من الناس دار الإسلام، واختار دينهم الباطل فلحق بدارهم فللقاضي أن يحكم بموته، ويقسم ماله بين الورثة، وينكح زوجته لزوج آخر. ويجب أن يعلم أيضاً أن جهادهم كان فرض عين على جميع أهل الإسلام الذين كانوا قادرين على قتالهم)[136]. إن الشائعات التي أطلقتها السلطة العثمانية وتوظيفها للفتاوى الدينية لدعم سياساتها بلورت موقفاً سنياً شديد التطرف ضد الشيعة بشكل عام وليس ضد الصفوية فقط وبعد أن استقرت صورة الصفويين وفق ما أراده العثمانيون نجد أن العلماء والمؤرخين السنة في تلك الفترة وما بعدها قد نسخوا بعضهم عن بعض ذلك الموقف المتشدد، فعلى سبيل المثال يقول العاصمي (ت: 1111هـ) في ترجمته للسلطان بايزيد العثماني: (وفي أيامه في سنة ثمان وثمانين أو خمس وتسعين وثمانمائه ظهر من بلاد العجم شاه إسماعيل ابن حيدر الصفوي وكان له ظهور عجيب وفتك في البلاد، وسفك دماء العباد، فأظهر مذهب الرفض والإلحاد، وغيّرَ اعتقاد أهل العجم إلى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد، وأخرب ممالك العجم، وأزال من أهلها حسن الاعتقاد، والله تعالى يفعل في ملكه ما أراد، وتلك الفتنة باقية إلى الآن في جميع البلاد)[137]. إن مما لا شك فيه أن هذه الفتاوى كان لها تأثيرها الكبير على طبيعة العلاقة بين الصفويين والدول المجاورة حكومات وشعوباً، وكان الهدف منها على الصعيد السياسي هو إثارة الحماسة الدينية لدى الناس والجنود، وتكوين رأي عام يتقبل حالة الصراع الدموية التي استمرت لسنوات وضمن مراحل مختلفة بين الدولة الصفوية ودول جوار السني والعثمانيين بشكل خاص. وهكذا فإن علماء وخطباء السنة بصورة عامة في قلب الدولة العثمانية كانوا قد اتفقوا على تكفير الشيعة واستباحة قتلهم، وابتدعوا في ذلك وسائل مختلفة من التأثير في مخاطبة الناس، يورد شريعتي مثالا لذلك بالقول: «... كان أحدهم يرتقي المنبر ويشمّر عن ساعده إلى المرفق، ويغمرها في قارورة مملوءة بالشيرة، ثم يخرجها ليغمرها في قارورة أخرى مملوءة بالذرة، ويخرجها

---

(135) - المصدر نفسه.

(136) - ابن كمال باشا: خمس رسائل في الفرق والمذاهب، تحقيق: سيد باغجوان، منشورات دار السلام للطباعة والنشر: 2005م، صص 195-196.

(137) - عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي: سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 - 1998م. ج4 - ص 80.

مـرة ثانيـة ويتوجـه بهـا إلى مخاطبيـه بالقـول: كـم مـن الـذرة علقـت بيـدي هـذه؟ وعندمـا يحـار الحـاضرون في الجـواب نظـراً لكـثرة العـدد يـضرب صاحبنـا ضربتـه بعـد أن نجـح في التأثـير النفـسي عليهـم، فيصـدر فتـواه بـأن مـن يسـتطيع أن يحظـى برافـضي ويقتلـه فـإن نصيبـه مـن الحسـنات سـيكون بقـدر الـذي علـق بسـاعده»[138].. ويمكننـا القـول بمراجعـة لغـة تلـك الفتـاوى التكفيريـة وصياغتهـا والأدلـة التـي اسـتندت إليهـا بأنهـا أعطـت زخـماً مضاعفـاً للتكفـير في المنطقـة، تواصـل طـوال القـرون اللاحقـة وحتـى يومنـا هـذا.

ثانيا / موقف المؤسسة الدينية الشيعية

يختلـف موقـف هـذه المؤسسـة عـن مثيلتهـا السـنية، ليـس مـن حيـث الأطـر الفقهيـة وتأسـيس الشرعيـة للحكـم ومـا يتصـل بقضايـا الخلافـة والإمامـة، ولا مـن حيـث نـدرة بـل انعـدام فتـاوى التكفـير لعمـوم السـنة وحسـب، بـل اختلفـا أيضـا مـن حيـث موقعهـما في سـاحة الـصراع المحتـدم بـين العثمانيـين والصفويـين، ومـا شـكله ذلـك مـن عوامـل ضغـط متباينـة بينهـما. ففـي الوقـت الـذي كانـت فيـه مشـيخة الإسلام محتضنـة في قلـب عاصمـة الحكـم العثـماني، كانـت المرجعيـات الفقهيـة الشـيعية موزعـة بـين العـراق في النجـف وكربـلاء، وفي جبـل عامـل الخاضـع للسـيطرة العثمانيـة، ولاشـك أن موقـف الشـيعة المنتشريـن في الولايـات العثمانيـة كان موقفـاً حرجـاً بفعـل الضغوطـات التـي تعرضـوا لهـا، إذ طالتهـم ردود فعـل انتقاميـة عنيفـة مـن قبـل السـلطات العثمانيـة، ولاسـيما عندمـا كان يحتـدم الـصراع الصفـوي - العثـماني، ويتعـرض الصفويـون للسـكان السـنة في إيـران، وكنتيجـة مـن نتائـج السياسـات السـلطانية والشـاهانية المدعومـة والمـبررة مـن شـيوخ الإسـلام لـدى كل مـن الطرفـين (إيـران- تركيـا) يؤكـد كوثـراني أن المسـلمين الشـيعة مـن العـرب ولاسـيما في بـلاد الشـام وفي جبلهـم التاريخـي الأسـاسي جبـل عامـل، عانـوا مـن حالـة القلـق والحـذر الأمـر الـذي دفعهـم أكـثر فأكـثر إلى ممارسـة التقيـة التـي تقـضي بعـدم الإعـلان عـن معتقدهـم في مسـألة الإمـام، وهـو المعتقـد الـذي يـؤدي عمليـا إلى اعتبـار السـلطات القائمـة غـير شرعيـة، وذلـك بهـدف الانخـراط في الاجتـماع السـياسي القائـم والتعايـش مـع السـلطات القائمـة حفظـاً للنظـام العـام واسـتمرارية المعتقـد عنـد الجماعـة [139].

عندمـا بـدأ الشـاه إسـماعيل الصفـوي بنـشر المذهـب الشـيعي في إيـران احتـاج لغـرض إنجـاح هـذا المـشروع إلى مسـاعدة العلـماء والفقهـاء، وكان جـلّ هـؤلاء يقطنـون في المـدارس العلميـة في العـراق وجبـل عامـل، ولا يبـدو أن عـدداً كبـيراً مـن علـماء الشـيعة قـد التحقـوا بخدمـة الدولـة الجديـدة [140]، بـل إن أغلبيـة علـماء النجـف - وهـي أبـرز الحـواضر العلميـة والفقهيـة الشـيعية - لم يشـتركوا ولم يسـاعدوا الصفويـين في مسـاعيهم تلـك، وقصـارى الأمـر أنهـم قبلـوا بالحكـم الصفـوي كأمـر واقـع، وكانـت جهودهـم تنصـب في مسـعى تقويـة المذهـب لاخدمـة النظـام السـياسي الصفـوي.

ورغـم أن المعلومـات الـواردة في المصـادر التاريخيـة التـي ألفـت خـلال نصـف القـرن الأول مـن العهـد الصفـوي لا تسـاعد عـلى تكويـن صـورة دقيقـة عـن علاقـة الشـاه إسـماعيل بفقهـاء الشـيعة الذيـن لم يدخلـوا ضمـن المؤسسـة الدينيـة الرسـمية، إلا أن المصـادر التـي ترجمـت للشـيخ عـلي الكـركي بشـكل خـاص، وهـي في الغالـب

(138) - علي شريعتي: التشيع العلوى والتشيع الصفوي، ترجمة حيدر مجيد، مكتبة الأمير، الطبعة الثانية 2007، ص 76.

(139) - كوثراني: مصدر سابق، ص76.

(140) - توفيق السيف: نظرية السلطة في الفقه الشيعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002 م ص 124.

ترجع إلى زمن متأخر، تتحدث عن دور واسع له ولتلاميذه في صياغة الجانب الديني للدولة الجديدة[141]، ولهذا فلا بد لنا من إلقاء الضوء على موقف الكركي ودوره المثبت له سياسيا في ظل الصفويين.

ولد الشيخ نور الدين علي بن الحسين بن عبد العالي العاملي الكركي في كرك نوح التابعة لجبل عامل، عام (868هـ وقيل 870هـ)، وقد هاجر إلى مصر ومكة ودمشق والنجف في طلب العلم، وكانت مرحلة وجوده في النجف استمرت ما بين عامي (909هـ و916هـ). أما هجرته إلى إيران فكانت أواخر سنة (916هـ)، ليعود بعد عامين إلى النجف، ويستمر فيها حتى عام (936هـ) إذ عاد الكركي ثانية إلى إيران في عهد طهماسب، وبقي هناك ثلاثة أعوام، ليعود بعدها من جديد ويستقر في النجف حتى وفاته عام (940هـ). وقد التقى الكركي في هذه الزيارات بالشاه إسماعيل، والشاه طهماسب. ولكن المرحلة الأبرز في عمل الكركي السياسي ترجع إلى الفترة التي قضاها مع الأخير، والتي منحه فيها صلاحيات واسعة. وهذا ما أغضب أمراء البلاط وأركان الحكم الذين صارعوا الكركي، حتى اضطروه للعودة إلى النجف، وكانت ذروة تلك الصراعات في عام (936هـ) حين حاول الكركي إلزام الميرزا غياث الدين منصور باتباع تعليماته الدينية ورفض الأخير الخضوع[142]. وقد بذل الشاه جهودا في إقناع الكركي بالعودة وتقليده صلاحيات أوسع من تلك التي كان قد تقلدها، إلا أن الكركي كان قد حسم الأمر وأصر على البقاء في النجف حتى وفاته، وقيل بل تم اغتياله بالسم على يد أولئك الذين أضر بمصالحهم في البلاط الصفوي[143]. ولكن كيف برر الكركي موقفه الداعم والمتعاون مع الحكم الصفوي؟ إن الموقف الذي كان سائداً في النجف كما في غيرها من الحواضر العلمية الشيعية هو الموقف التقليدي الرافض للاعتراف بشرعية أية سلطة سياسية في عصر غيبة الإمام المهدي، ولهذا كان الفريق الآخر من علماء النجف الذي ترأسهم الشيخ إبراهيم القطيفي قد عارضوا بشدة تعاون الكركي مع الشاه إسماعيل وقبول هداياه، على أساس أن أية حكومة لا يتولاها الإمام المعصوم بنفسه هي ظالمة يحرم الدخول في خدمتها، وأن الخراج الذي تجبيه تلك الحكومة من الناس يعد غصباً لا يجوز للفقيه أن يأخذ منه شيئاً[144]، ويبدو أن أنصار الفريق الثاني كانوا كثيرين، ولهذا يعد مبرراً للقول إن غالبية علماء الشيعة في العراق كانوا يرفضون التعامل مع الشاه إسماعيل الأول[145]. لكن موقف هذا الفريق المعارض لم يكن موقفاً عدائياً تماماً للصفويين، ولا يلغي حقيقة أن بعض من علماء الشيعة تعاونوا مع الحكم الصفوي، حيث رأوا أن الملك الصفوي يحكم باسم الأئمة والتشيع الإمامي الاثني عشري، ويعمل على احترام شعائر المذهب، فبادروا إلى التعاون السلمي معه دون أن يعني ذلك اعترافاً بالشرعية الكاملة للحكم، لأنهم يعتبرونه في كل الأحوال، غاصباً لحق الإمام الغائب. إلا أن هذا الغصب لايصدر عن سوء نية واستغلال لذلك يمكن غض الطرف عنه[146]، وطبيعة هذا التعاون المذكور كان ينصب على تقوية أركان المذهب لا أركان السلطة، وإن استلزم ذلك عملياً دعمها بطبيعة الحال، وكأن

(141) - المصدر السابق، ص 123.

(142) - المصدر السابق، ص 126.

(143) - ينظر: الأمين، مصدر سابق، ج-41، ص 174.

(144) - حسن عيسى الحكيم: المفصل في تاريخ النجف، المكتبة الحيدرية، قم المقدسة، الطبعة الأولى 1428هـ ج 4، ص 165.

(145) - الشيخ محمد كاظم رحمتي: الصيرورة المذهبية في إيران، استراتيجية السلطة في العصر الصفوي، ترجمة: محمد عبد الرزاق، بحث منشور بتاريخ 31 ديسمبر 2014.

(146) - سالم مشكور: علماء جبل عامل في بلاد فارس لماذا هاجروا وماذا قدموا - جريدة النهار، 20 كانون أول / ديسمبر 2001 م.

المسألة هنا تبدو متعلقة بالنوايا، ولاضير في ذلك ما دمنا نتحدث عن موقف شرعي في إطار يتعلق بقضية دعم الظالم الغاصب لما هو حق منحصر بالإمام المعصوم وحده. والحقيقة أن الكركي لم يخرج كثيراً عن هذه الرؤية حول طبيعة الحكم الصفوي وشرعيته، بل ينحصر الأمر في شرعية التعاون معه، وبفعل سلطته كفقيه نائب للإمام، وهي الرؤية التي بدت نقلة نوعية في تاريخ الفكر السياسي الشيعي. فقد طور الكركي نظرية النيابة العامة للفقيه وجعلها تلامس الجانب السياسي، بعد أن كانت نظرية محدودة وجزئية يدور موضوعها حول قضايا غير سياسية، ويبدو أن دافع ذلك هو الظروف المستجدة التي أنتجها قيام الدولة الصفوية، وغياب موجبات التقية. يقول الكركي في هذا الشأن: (اتفق أصحابنا رضوان الله تعالى عليهم أن الفقيه العدل الإمامي الجامع لشرائط الفتوى، المعبر عنه بالمجتهد في الأحكام الشرعية، نائب من قبل أئمة الهدى عليهم السلام في جميع ما للنيابة فيه مدخل.. فيجب التحاكم إليه والانقياد إلى حكمه وإلى آخر ما يثبت للمنصوب من قبل الإمام عليه السلام)(147). وفي جامع المقاصد يؤكد الكركي على أن للفقيه في حال غيبة الإمام أن يقيم الحدود (148). وأجاز للفقيه المجتهد الجامع للشرائط تولي القتل والجرح إذا تطلبهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(149). وكان للكركي خطوة أخرى متقدمة فيما يخص صلاة الجمعة، حيث قال في رسائله: (لا يقال: الفقيه منصوب للحكم والإفتاء، والصلاة أمر خارج عنهما، لأنّا نقول: إن هذا في غاية السقط، لأن الفقيه منصوب من قبلهم عليهم السلام حاكما في جميع الأمور الشرعية)(150). ولكن أهم ما جاء به الشيخ الكركي هو حلية الخراج، وكتب في ذلك رسالته (قاطعة اللجاج) التي عبر فيها عن موقفه بالقول: (ثبت بطريق أهل البيت: أن أرض العراق ونحوها مما فتح عنوة بالسيف لايملكها مالك خاص بل للمسلمين قاطبة، يؤخذ منها الخراج والمقاسمة ويصرف في مصارفه التي بها رواج الدين بأمر إمام الحق من أهل البيت، كما وقع في أيام أمير المؤمنين. وفي حال غيبته عليه السلام قد أذن أئمتنا «ع» لشيعتهم في تناول ذلك من سلاطين الجور)(151). وبهذه الصلاحيات التي أثبتها الكركي للفقيه أسقط شرعية الحاكم الصفوي، وادعاءه بأنه نائب عن الإمام، وهي ادعاءات نهضت على مزاعم شخصية لإسماعيل الصفوي، كرؤيته للإمام المهدي في أحد الكهوف، أو رؤيا تجلى فيها الإمام علي يدعوه للثورة وما شابه ذلك، وعليه فلا مكان لافتراض أن الكركي كان داعماً لشرعية النظام الصفوي، وبلا شك أن هذا من العوامل الأساسية التي جعلت الشاه إسماعيل يتجنب دعوة الفقهاء الشيعة من حوزة النجف على وجه الخصوص، فالصفوية منذ نشأة دولتها لم تكن لتنتظر اعترافاً يمنحها الشرعية من المؤسسة الدينية الشيعية، فالشاه إسماعيل كان ينظر إلى نفسه نائباً لله وخليفة للرسول والأئمة وإنه نائب الإمام المهدي، ولهذا فلم يحرص على إقناع واحتضان أي مرجع أو فقيه شيعي في النجف طوال مدة حكمه، سوى ما أمضاه في إيران الشيخ الكركي لفترة قصيرة امتدت لعامين وبضعة أشهر، وبعيداً عن تبريز عاصمة الشاه كان إسماعيل منشغلاً بنشر وترسيخ التعاليم الشيعية، ففي هذه

(147) - رسائل الكركي، ج1، تحقيق الشيخ محمد الحسون، مطبعة الخيام، ص 142.

(148) - الكركي: جامع المقاصد، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ج1 ص378.

(149) - المصدر السابق، ص490.

(150) - المصدر السابق، ص153.

(151) - رسائل الكركي: مصدر سابق، ص 238-237.

المرحلة لم تكن السياسة الصفوية ساعية إلى جذب الفقهاء الإماميين والاعتماد عليهم لعدم حاجة الصفويين لهم فكرياً وتعبوياً[152]. بل هناك ما يدل على أن الكركي نفسه قد تم طرده وإلزامه بالإقامة في النجف، إذ يرد في رسائل الكركي قوله: (إنا لما لزمنا الإقامة ببلاد العراق، وتعذر علينا الانتشار في الآفاق لأسباب ليس هذا محل ذكرها...)[153]. ويذهب الشيخ جعفر المهاجر في كتابه الهجرة العاملية إلى القول بأن إبعاد الكركي كان قد تم من قبل الشاه إسماعيل نفسه، بسبب أن الأخير خشي من نفوذ الكركي وإنشاء سلطة مقابل سلطة الشاه. يقول المهاجر: (...ونقدر أيضا خشية الشاه إسماعيل من امتداد نفوذ رجل استطاع أن يوجه الحياة العقلية لشعب بأكمله. خاصة وأننا نعرف أفكاره في ولاية الفقيه، وهي أفكار الشهيد الأول من قبل، بالإضافة إلى ما دخل عليها من تطوير. ولا بد من أنه نشر أفكار كهذه، وهو أمر قد حدث حتماً، كان يعني إنشاء سلطة أخرى في مقابل سلطة الحاكم نفسه، إن لم نقل إنها تدّعي الاستعلاء عليها. خاصة وأننا بما نعرفه عن الشاه إسماعيل وشخصيته بما تمازج فيها من عناصر صوفية وعسكرية إلى شيعية ساذجة، بالقياس إلى ما يمثله الكركي، سنستغرب حقاً لو رأيناه ينقاد له)[154]. أما ما ذهب إليه جودت القزويني في تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية من: (.. أن الشاه طهماسب بن الشاه إسماعيل استدعى الكركي إلى إيران مرة أخرى، إبان نشوب الخلافات بين بعض زعماء القزلباش، وقيامهم بالاعتراض على - السلطة الصفوية نفسها، وولّاه مهاماً دينية عليا، مما يدل على أن قرار إبعاد الكركي عن إيران إبّان حكم أبيه كان صادراً عن جهات متنفذة أخرى، ولم يكن متعلقاً بالشاه إسماعيل نفسه، وإلا لما سمح له الوضع السياسي باستدعائه إلى إيران)[155]. فلا يبدو للباحث أن هذا الرأي يستند إلى دليل يمكن أخذه بالاعتبار، كون ظهور النزاعات بين القزلباش في عهد الشاه طهماسب لا توفر أية مبررات للاعتقاد بأنه في عهد والده إسماعيل كانت ثمة مراكز قوى اتخذت قرار إبعاد الكركي، نعم استمر الشاه إسماعيل بإرسال الهدايا والدعم المادي للشيخ الكركي والذي تقبلها دون تردد، ما قد يلقي بظلال من الشك على الرأي القائل إنه طورد من قبل الشاه إسماعيل، خاصة وأنه في تلك الفترة التي قضاها في النجف والتي امتدت لخمسة عشر عاماً عكف على تأليف كتابه الذائع جامع المقاصد، ويلاحظ أنه احتوى في مقدمته التي كتبها الشيخ على ثناء منقطع النظير بحق الدولة الصفوية، حيث جاء في المقدمة: (.. لما كان هذا الكتاب منّا من الله علي بإنشائه في حرم سيدي ومولاي أمير المؤمنين، وسيد الوصيين صلوات الله عليه تترى، بعد أخيه صفوة الله من النبيين وآلهما المعصومين، واقعاً في أيام الدولة العالية السامية، القاهرة الباهرة، الشريفة المنيفة، العلية العلوية، الشاهية الصفوية الموسوية، أيدها الله تعالى بالنصر والتأييد، وقرن أيامها بالخلود والتأبيد، ولا زالت جباه الملوك والسلاطين معفرة على اعتابها، ورؤوس العتاة والمتمردين من الجبابرة ملقاة على أبوابها، ولازال الدهر ساعداً على ما يطلب في أيامها الزاهرة، من إقامة عمود الدين، والقدر موافقاً لما يرام في أزمنتها الباهرة، من إعلاء معالم اليقين بمحمد وآله الأطهار المعصومين. أحببت أن أجعله تحفة، أؤدي بها بعض

(152) - جودت القزويني: مصدر سابق، ص 283.

(153) - رسائل الكركي: المصدر السابق: ص 237.

(154) - جعفر المهاجر: الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي، مطبعة الروضة - بيروت 1989م ص 124.

(155) - القزويني: مصدر سابق، ص 278.

حقوقها عندي، ووسيلة لاستحصال الدعاء لها على مرور الأعصر، وذلك غاية جهدي. وأرجو أن تهبّ عليه نسمات القبول، ويفوز من وفور المرحمة، وعميم المعاطفة، بغاية المأمول وسميته بجامع المقاصد في شرح القواعد، وإلى الله أرغب في تيسير المراد)[156]. ولكن ما يلاحظ هنا أنه مدح وأثنى على الدولة الصفوية دون أن يأتي على ذكر الشاه نفسه، بينما كان قد ذكره وأثنى عليه في مؤلفات سابقة كتبها خلال تواجده في إيران، كرسالته المسماة بـ (نفحات اللاهوت)، حيث تضمنت المقدمة ثناء بالغا على الشاه إسماعيل [157]، فمما ورد في مقدمة هذه الرسالة قوله: (.. قصدت بذلك التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وإلى نبيه وإلى الأئمة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والخدمة لناصب لواء هذه الدولة القاهرة إذ كان غصنا من شجرتهم وفرعا من نبعتهم)[158]

والحقيقة أن رجلاً مثل الكركي يبدو لديه الهم المذهبي مقدماً على كل قضية أخرى فإن فهم موقفه هذا ليس صعبا، فهو يرى في الدولة الصفوية نموذجاً مقبولاً يستحق الدعم، ما دامت قد ارتدت ثوب التشيع وفسحت المجال لتثبيته ونشر تعاليمه، حتى وإن كانت ناقصة الشرعية. فلم يكن ليؤثر فيه أن طورد في بلادها على يد الشاه أو غيره من مراكز القوى في الدولة. وعلى أية حال فإن اعتماد الصفويين على العلماء الشيعة العرب بدأ في منتصف حكم طهماسب، ويبدو أن نزعة طهماسب للاستعانة بالعلماء ومنهم بشكل خاص الكركي كانت لأجل تدعيم السلطة الصفوية ولأجل تأكيد الجانب العقائدي لها، وربما كانت رغبة الشاه طهماسب تنحصر بالحصول على مرجعية إفتاء على غرار ما لدى العثمانيين، ويدل على ذلك إطلاق لقب (شيخ الإسلام) على الكركي. وكذلك يمكن احتمال أن الميل نحو استقدام الفقهاء من قبل طهماسب كان بدافع شخصي وسياسي لمحو الصورة الثابتة عن أبيه وعنه في المرحلة الأولى من حكمه، وهي صورة بعيدة عن الالتزام الديني حيث معاقرة الخمر ومراودة النساء وعدم الالتزام بالواجبات الدينية العادية. ومهما قيل عن صلاحيات أعطاها الشاه طهماسب إلى الكركي فهي تبقى دون مستوى القول إنها صلاحيات مطلقة أو إن الشاه قد تنازل عن سلطته كملك للدولة. إذ أن قناعة الحكام الصفويين كانت قناعة راسخة بأنهم يحكمون بمنطق الحق الإلهي نيابة عن الأئمة، وهو ما يتعارض مع قناعة أي فقيه مثل الكركي يؤمن بنيابته عن الإمام المهدي، مما لايترك مجالا للشك في أن الموقف المنقسم في النجف حيال الصفويين لم يكن متعلقا بشرعية حكمهم بل بمشروعية التعاون معهم.

لقد رأى الكركي بعد أن صاغ رؤيته الفقهية المتقدمة بخصوص نيابة الفقيه للإمام المهدي أن التعاون مع الدولة الصفوية أصبح مشروعاً ومبرراً، وبناءً على قناعته ورغبته في إظهار شأنها وبقائها، فتوسل طريقاً لدعمها مبنياً على اجتهاده الفقهي، فهو ومن موقع نيابته لكونه كان يرى نفسه مستوفياً للشروط المطلوبة لنيابة المجتهد عن الإمام، يستطيع والحال هذه أن يجعل من الشاه وكيلا بإجازة منه.. وهذا ما حصل بالفعل. حيث يذكر المحقق البحراني في كتابه (لؤلؤة البحرين) أنه لما قدم الشيخ الكركي إلى أصفهان وقزوين في عصر السلطان العادل طهماسب مكنه من الملك والسلطان وقال له: أنت أحق بالمُلك لأنك

(156) - الكركي: مصدر سابق، ص 72.

(157) - جودت القزويني: مصدر سابق، ص 152-309.

158 - الكركي: نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت، تقديم د. محمد الأميني، مكتبة نينوى الحديثة طهران، ص42.

النائب عن الأمام، وإنما أكون من عمالك، أقوم بأوامرك ونواهيك[159]، وبموافقة الشيخ فقد أعطى الشاه طهماسب إجازة لحكم البلاد بالوكالة عن نفسه، باعتباره نائباً عن الأمام المهدي، ويرى الدكتور توفيق السيف أن أهمية هذه الخطوة تكمن في عنصرين جوهريين: الأول/ أنها كانت أول ممارسة فعلية لدور النائب العام عن الإمام في الجانب السياسي من الولاية، بما يتعدى الشرعيات من فتيا وقضاء وتبليغ. والثاني/ أنها قدمت أداة جديدة يمكن بواسطتها تصحيح الحكم الجوري وتحويله إلى صفة العدل.

ويضيف الدكتور السيف قائلا ما يأتي: وفي هذا الجانب خصوصا، ينبغي الإشارة إلى أن معظم الفقهاء بمن فيهم الكركي نفسه تجنبوا طرح الموضوع. فلم يوضحوا ما إذا كان إذن الفقيه- الكركي في هذه الحالة- وسيلة مقبولة لتعديل الحكم الجائر. لكن من المنطقي أن نعتبرها نحن كذلك لأسباب عديدة. أحدها هو مبرر صدور الإذن، فهو يتضمن على أقل التقدير تصحيح تصرفات الوالي، وإن لم ينزع صفة الغصب عن ولايته. وتصحيح تصرفاته لا يختلف واقعيا عن كون حكمه عادلا من الناحية الشرعية. ومن الناحية الفقهية فإن هذا الإذن يشبه الوكالة عن نائب الإمام، فالحاكم يقوم على تدبير أمور الناس وسياستهم بوصفه وكيلاً أو مفوضاً عن نائب الإمام، فلا يتوقع مع هذه الصفة أن يوصف حكمه بالجور[160].

و ما يراه الباحث هو أن جهود الكركي انصبت على محاولة إضفاء قدر من قبول الدولة الصفوية باعتبارها تمثل التشيع، وتمنحه فرصة للانتشار والتعبير عن نفسه، وقد كان الكركي مدركا لصعوبة إضفاء الشرعية التامة عليها، لأنها في كل الأحوال لم تكن منسجمة مع الموازين العقدية والشرعية المنصوص عليها في عصر الغيبة، فالحاكم الصفوي لا يمكن أن يكون إلا غاصبا لحق الإمام في السلطة، ولكن اعترافه بنيابة الفقيه وإعطاء هذا الفقيه الرخصة له في إدارة الشؤون العامة، فضلا عن كون الغصبية هنا لم تجر بسابق إصرار وترصد أي بسوء نية، سيسهم في رفع محذور التعامل مع الدولة الصفوية في هذه الحال. نعم وصف العديد من الفقهاء من تلامذة الكركي والذين أتوا بعده ولاسيما الذين أرخوا له الحاكم الصفوي - تحديدا إسماعيل وابنه طهماسب - بالملك العادل، ولكن قد يفهم من ذلك انصراف هذا الوصف إلى توصيف حالة الشاه وليس الدولة، باعتبار الرعاية والاهتمام الذي قدماه وبشكل خاص طهماسب للعلماء والمراقد المقدسة ونشر التشيع وما يخدمه بصورة عامة. ويدلنا على ذلك أن ما ورد من مؤلفات تلك المرحلة في النجف لم تأتِ على ذكر للدولة الصفوية يوازي أهمية حدث قيامها ونشوئها، يقول الشيخ جعفر المهاجر: والغريب أننا لا نجد فيما صدر عن تلك المراكز في تلك الأيام ما يشعر أن شيئا خطيرا يحدث، ربما لأن طريقة الشاه إسماعيل العنيفة في معالجة الأمور لم تترك فسحة لإسهام كهذا[161]. كما أنه من الممكن القول إن استخدام وصف الملك العادل بحق الشاه إسماعيل وطهماسب وعباس وغيرهم كان يستند إلى مبرر شرعي يتمثل بوصف النبي الكريم للنجاشي ملك الحبشة بكونه ملكا عادلا، ومع هذا لم يمنع ذلك أن بعض فقهاء الشيعة كانوا قد تحاشوا تماما التعامل مع الصفويين إلى درجة الامتناع عن زيارة مرقد الإمام الرضا، الذي تمثل زيارته عملا عباديا رفيعا لدى الشيعة، فقد ورد: (أن السيد الجليل محمد صاحب المدارك والشيخ المحقق الشيخ حسن صاحب المعالم قد تركا زيارة المشهد الرضوي على

(159) - الشيخ يوسف البحراني: لؤلؤة البحرين، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، مكتبة فخراوي، ص 148.

(160) - د. توفيق السيف: مصدر سابق، ص 131.

(161) - المهاجر: مصدر سابق، ص 106.

ساكنه أفضل الصلاة، خوفا من أن يكلفهم الشاه عباس الأول بالدخول عليه، مع أنه كان من أعدل سلاطين الشيعة، فبقيا في النجف الأشرف ولم يأتيا إلى بلاد العجم احترازاً من ذلك المذكور)[162].

بقي أن نؤكد على التعاون الذي أبداه بعض فقهاء الشيعة مع الدولة الصفوية قد أسهم بشكل واضح في تخفيف غلواء التطرف الصفوي، حيث كانت عقيدة الصفويين الذين أعلنوا انتسابهم إلى التشيع الاثني عشري مبنية على فقر عقائدي وفقهي واضح، وتتحكم بها أفكار الطريقة الصوفية الساذجة، ولهذا يردد الكثير من الدارسين لتاريخ الدولة الصفوية أنها كانت في بداية تأسيسها وفرضها المذهب الشيعي الاثني عشري على عموم مناطق نفوذها في إيران بحاجة إلى تثبيت العقيدة الشيعية وتعليم الناس لأحكامها عن طريق جلب العلماء الشيعة، ففي بداية فرض التشيع من قبل الشاه إسماعيل الصفوي واجهت الناس مشكلة غياب ما يرجعون إليه في فهم أحكام المذهب الاثني عشري، ويقال إن هذه المشكلة قد حُلّت جزئيا حينما قام القاضي نصر الله الزيتوني بإخراج نسخة من مكتبته لكتاب قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام للعلامة الحلي، فاتخذه الشاه إسماعيل دستورا للدولة والبلاد[163]. ولكن نرى أن الصفويين لم يكونوا ولسنوات بعد تأسيس الدولة في معرض الاهتمام الجدي بجانب الأحكام الفقهية والمسائل العقائدية المختلفة، وكانت رؤيتهم حول المذهب الشيعي تنحصر ببعض المسائل الأساسية، وهي مؤطرة ضمن الرؤية الصوفية القائمة على الرؤى والكشوف والتجليات التي يزعمها أتباع الطرق الصوفية. ومن هنا فلولا جهود العلماء العرب من العراق وجبل عامل والبحرين لسار التشيع الصفوي تحت عنوان الاثني عشرية وبمضامين صوفية مغالية، وكان له أن ينتهي إلى إيجاد نموذج شيعي مغالٍ جدا في إيران اليوم.

وإذا ما بدا واضحا لدينا الآن موقف المؤسسة الدينية في العراق وأن هذا الموقف تجلى تأييدا للدولة الصفوية بالصورة التي عرضنا لها متمثلة بموقف الكركي، الذي ينحدر أساسا من جبل عامل، واعتراضا وتحفظا من قبل غيره، فإنه لا بد من التأكيد على دور علماء آخرين من جبل عامل أيضاً، حيث بدا موقفهم مختلفا عن العراقيين، ومسايرا لموقف الكركي، وقد يبرر ذلك أن جبل عامل كان خاضعا للعثمانيين بعد أن كان تحت السيطرة المملوكية قبل معركة مرج دابق، وكان لاعتناق العامليين للتشيع أثره الكبير في طبيعة تعامل السلطة العثمانية معهم، طالما أن مذهبهم يوافق المذهب الرسمي للعدو الشرقي للدولة العثمانية. وقد خضعت هذه المعاملة لعوامل عديدة منها[164]:

• العداء بين مستغلي المذاهب والفتن المتصلة بهذا العداء القائم بين العثمانية والصفوية.
• الوحدة المذهبية التي تجمع بين الصفويين وأعداء الدولة العثمانية في الشرق وبين الشيعة الإمامية الخاضعين للدولة العثمانية لاسيما في مناطق الحدود بين الدولتين وبلاد جبل عامل.
• الصراع الصفوي العثماني وتأثير ذلك على علاقة الشيعة الاثني عشرية بالدولة العثمانية وبالعكس.

ونتيجة لذلك فقد اتسمت معاملة الدولة العثمانية لأهالي جبل عامل بالقسوة والاضطهاد خاصة عندما

(162) - عباس القمي: الكنى والألقاب، ج2، منشورات مكتبة الصدر، طهران، صص 388، 389.

(163) - السيد رضا الصدر، مقدمة كتاب العلامة الحلي: نهج الحق وكشف الصدق، تعليق الشيخ عين الله الحسني، منشورات مؤسسة الهجرة للطباعة والنشر، مدينة قم، 1421ه، ص 18، نقلا عن كتاب تاريخ الأدب في إيران (أربعة أجزاء)، للمستشرق إدوارد براون ج 1، ص 56.

(164) - على إبراهيم درويش: جبل عامل بين 1516 - 1697م، الحياة السياسية والثقافية، منشورات دار الهادي، بيروت. ط1، 1993م. ص 31.

تكون السلطنة في حالة حرب مع الدولة الصفوية، وتخف الوطأة في فترات عقد الصلح واتفاقيات السلام بين الدولتين[165].

وأيا يكن فلا يبدو أن العلماء الشيعة الذين هاجروا من جبل عامل كانوا يختلفون عن متبنيات الشيخ الكركي، فقد توافد على الدولة الصفوية مجموعة من العلماء الكبار منهم الشيخ حسين بن عبد الصمد والد البهائي الذي كانت له مشيخة الإسلام في عصره، وابنه الشيخ البهائي، والميرزا حبيب الله الموسوي الذي أقام في خراسان، وكان شيخ الإسلام فيها، وكذلك الشيخ حسن بن محمد بن علي الجبعي، والشيخ المشغري ومنهم الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي والشيخ علي بن محمد بن الحسن بن الشهيد الثاني الملقب بالأصفهاني[166]. وجميع هؤلاء معدودون من فلاسفة وفقهاء الشيعة الكبار.

المطلب الرابع

العلاقة الصفوية مع الدول في العالم العربي (المماليك، الآق قيونلو)

أولا\ العلاقة الصفوية - المملوكية

كانت الدولة المملوكية أو دولة المماليك هي القوة السنية الثانية في العالم آنذاك إلى جانب العثمانيين، أو بعبارة أكثر دقة هي الدولة الأولى بالنظر إلى أنها سبقت قيام الدولة العثمانية ومثلت امتدادا ولو شكليا للخلافة العباسية وكانت أكثر اقتدارا عسكريا واقتصاديا في مرحلتها الأولى، وقد كانت العلاقة بين الجانبين علاقة متوترة على خلفية التنافس المحتدم بينهما في تمثيل العالم الإسلامي السني، وهو صراع بدأ منذ ظهور الدولة العثمانية على الحدود الشرقية لدولة المماليك التي كانت تحكم بلاد الشام فضلا عن مصر، خاصة بعد أن اتخذ الحكام العثمانيون ألقابا سلطانية ترمز إلى التحول من الدولة المحلية إلى الدولة العالمية فكان من الطبيعي أن تتدهور العلاقات و يكون الصراع على زعامة العالم الإسلامي هو السبب الأساس والرئيس للنزاع بينهما[167].

إن قيام الصفوية جاء في العهد الأخير للمماليك، ولم يتزامن وجود الدولتين أكثر من خمسة عشر عاما، حيث انتهت الدولة المملوكية في عام 1517م على يد العثمانيين. وبالتالي فإن الفترة التي تزامن فيها وجود المماليك مع الدولة الصفوية تعد فترة قصيرة، وهو ما يجعل الحديث عن العلاقة بينهما حديثا محدودا قياسا لما تتطلبه في المقابل دراسة العلاقات بين الصفويين والعثمانيين كما مر بنا في هذا البحث. ليس هذا فقط، بل ثمة عامل آخر يجعل نطاق الحديث أكثر محدودية ويتمثل في موقف دولة المماليك نفسها من الصفويين، كونها نأت بنفسها واكتفت بالمراقبة في أغلب الفترات، ما جعل العلاقة بينهما تفتقر إلى الأحداث والتطورات التي يمكن الإشارة إليها، وكانت أقرب إلى كونها علاقة باردة خالية من الأحداث والتطورات الجديرة بالبحث والدراسة والتحليل، ولعل سبب ذلك الموقف شبه المحايد لدولة

(165) - المصدر السابق: ص 32.

(166) - على إبراهيم درويش: مصدر سابق، ص137.

(167) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 76.

المماليك يعود إلى رغبتها في أن يقضي أحد الطرفين - الصفويين والعثمانيين على الآخر ولم تكن هناك أية رغبة للوقوف إلى جانب أي منهما. بل رفضت دعوات وإشارات كليهما التحالف معه ضد الآخر. ومع هذا فلا يمكن تجاوز طبيعة ذلك الموقف والمواقف الأخرى التي اتخذها المماليك، كما أن دراسة العلاقة الصفوية المملوكية لا ينفك عن الحديث عن علاقة المماليك بالدولة العثمانية.

لقد انقسم عهد المماليك كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق إلى قسمين، عهد المماليك البحرية، ويسمي بدولة المماليك الأولى، وعهد المماليك البرجية، دولة المماليك الثانية، وهي الدولة التي عاصرت ظهور الصفويين، وكان إطلاق هذا الاسم «البرجية» نسبة إلى البرج الذي كان يقيم فيه المماليك ويتدربون فيه وهو برج القلعة في القاهرة، حيث كان مقرهم فيه ليكونوا حماة للسلطان، و لذا أطلق عليهم تسمية المماليك البرجية [168] كما تسمى أيضا بدولة الشراكسة لأن المماليك فيها يعودون إلى أصول شركسية، ولهذا يسمى أحيانا العهد المملوكي الثاني بعهد الشراكسة، وكان موطنهم الأصلي مرتفعات بحر قزوين والقسم الشمال الغربي من القوقاز، وأسكنهم أحد أمراء المماليك و هوالمنصور قلاوون في أبراج قلعته أي في مركز إقامة السلطان. وقد تأسست دولة المماليك البرجية عام 784 هـ/ 1382م، واستمرت إلى نهاية دولة المماليك عام 1517م.

وقد تميز العهد الشركسي بميزتين أساسيتين هما العصبية بكل اتجاهاتها، فكان لكل سلطان من سلاطين عصبيته من المماليك الذين ارتبطوا به، وبقدر ما تقوى عصبية السلطان ويزداد عدد مماليكه بقدر ما يستطيع الصمود في وجه منافسات الأمراء ومؤامراتهم، وهذه الظاهرة التي انفرد بها تاريخ المماليك أنتجت كثرة في أسماء الطوائف والمماليك وعصبياتهم، من صالحية وظاهرية ومنصورية وأشرفية. أما الميزة الثانية التي ميزت العهد المملوكي الثاني فهي الشدة والعنف فكان لا بد للسلطان أن يكون شديد البأس كي يفرض سيطرته ويلجم طوائف المماليك الأخرى[169]. ولهذا لا يدعو إلى الاستغراب أن يتحول السلطان قنصوه الغوري، وهو آخر سلاطين المماليك، من رجل لين مسالم إلى سلطان في منتهى القسوة، ينقل صاحب نزهة الناظرين ابن يوسف الكرمي أنه في يوم الاثنين الذي صادف عيد الفطر في مستهل شوال سنة 906 هـ تولى الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري بعد أن هاب الأمراء الجلوس على تخت الملك، وجعل بعضهم يحيل على بعض في الجلوس عليه، ثم اتفقوا على الغوري لأنهم رأوه لين العريكة سهل الإزالة في أي وقت أرادوه، ويضيف الكرمي: (وليس الأمر كما ظنوه فقال لهم أقبل بشرط أن لا تقتلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتكم فاستوثق منهم، وبويع بقلعة الجبل بحضرة الخليفة المستنصر بالله والقضاة الأربعة، وأصحاب الحل والعقد، فأقام سلطانا خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، وكان ذا رأي وفطنة كثير الدهاء والتعسف، قمع الأمراء وأذل المعاندين حتى اشتد ملكه وهيبته)[170].

وقد تميز الوضع السياسي قبل قانصوه الغوري بالاضطراب وعدم الاستقرار، وتظهر شدة الصراعات والمنازعات من كثرة السلاطين الذين يعتلون العرش وسرعة زوالهم، حتى إن البعض لم يكن يمضي سوى

(168) - المقريزي: السلوك لمعرفة دولة الملوك: مصدر سابق، ج 1 ص 327.

(169) - محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام، مصدر سابق، ص 325.

(170) - أميرة فهمي محمد: نزهة الناظرين في من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، لمرعي بن يوسف الكرمي، رسالة دكتوراه، جامعة النجاح، فلسطين، نابلس، منشورة الكترونيا، حقوق النشر محفوظة بمكتبة الجامعة الأردنية، التاريخ غير محدد، ص224.

بضعة أيام أو شهور، وعلى أية حال يبدو أن أخبار قيام الدولة الصفوية وردت لأول مرة إلى القاهرة عاصمة المماليك في صفر سنة 908 هـ، حيث يذكر ابن إياس الحنفي بأن الأخبار جاءت من حلب أن خارجيا تحرك على البلاد يقال له شاه إسماعيل الصوفي، فلما جاءت هذه الأخبار إلى القاهرة اضطربت الأحوال وجمع السلطان الأمراء وضربوا مشورة في أمر الصوفي[171]، والملاحظ في الخبر الوارد التعبير عن الشاه إسماعيل بالخارجي الصوفي الذي يوجب اضطراب السلطان و اضطراره لتجهيز قوات مدافعة لإرسالها إلى حلب. وكان لا بد أن ينشغل المماليك بالتطورات التي حدثت في إيران، وذلك سبب رئيسي ومهم يتجلى في أن الدولة المملوكية ترى نفسها راعية للسنة في العالم وقد استقبلت السلطات الكثير من السنة الفارين من هناك، كما ظهر سبب آخر يتعلق بالأماكن المقدسة وتحديدا مكة المكرمة، حيث شاع خبر رغبة إسماعيل الصفوي بكسوة الكعبة والحج إليها، ينقل لنا ابن طولون ضمن أحداث سنة 917هـ/ 1511م: (وفي هذا اليوم شاع بدمشق أن الحج بطل بإذن المقام الشريف لكونه قيل إن الخارجي إسماعيل الصوفي أعد للكعبة ثوبا وأنه يأتي للحج ويلبسها إياه)[172]. الأمر الذي زاد من اهتمام المماليك بما باتت تشكله الصفوية من خطر على مكانتها ومحاولة نزع السلطة الدينية منها عبر فرض رعايتها على الأماكن الإسلامية المقدسة. إلا أن السلطان المملوكي لم يتخذ إجراءات مهمة سوى التأهب والاستنفار قبل أن يكفيه مؤونة التصدي للشاه أمير دلغادر علاء الدولة عام 1507م وقد ألحق بجيش الشاه هزيمة فادحة، وأرسل علاء الدولة عددا من رؤوس القتلى من بينهم أحد كبار أمراء إسماعيل الصفوي إلى مصر، وأمر السلطان بأن تعلق رؤوسهم على باب زويلة[173].

ويعود سبب تراخي ردة فعل الغوري تجاه تطورات إيران لكثرة المشاكل والتحديات الداخلية التي يواجهها وخارجيا غارات العرب البدو الذين دأبوا على قطع الطرق والتمرد على سلطته والاعتداء على أطراف المدن والحواضر المهمة، بل كانوا قد قتلوا وسلبوا القوافل المتجهة إلى الحج، والأهم من ذلك صراعه البحري مع البرتغاليين، الذين اصطدم معهم في معركة جرت عام 1508م، ثم توالت المواجهات إلى أن هزم المماليك في معركة ديو عام 1509م في المحيط الهندي[174]. رغم أنه في نفس العام حدث أن استولى إسماعيل الصفوي على بغداد وجرت على أثرها مناوشات بين الجيشين الصفوي والمملوكي على الحدود جهة الشام، ولكن بقيت تحركات الجيش المملوكي تلك أقرب إلى المناورات العسكرية، بخاصة وأن احتلال العراق لم يكن يمثل بالنسبة للمماليك شيئا جديدا، فقد اعتادوا أن ينظروا إلى العراق أنه على الدوام تحت حكم مغولي أو فارسي أو تركماني[175]. على أن العديد من الدارسين والباحثين حتى هذه للحظة لم يقتنعوا بالأسباب والمبررات التي أشرنا إليها حول موقف السلطان الغوري وعدم جديته في التعاون والتحالف مع العثمانيين لمواجهة الدولة الصفوية. ولكن على الأغلب أن المبرر الأقوى لموقف الدولة المملوكية هو ربما كانت تعول على إضعاف منافستها العثمانية فيما لو دخلت صراعا داميا مع

(171) - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: مصدر سابق، ج-4 ص 39.

(172) - شمس الدين محمد بن علي بن طولون: مصدر سابق، ص 293.

(173) - د. علي بن صالح المحيميد: الامارات الحدودية شمال الشام ودورها السياسي في العصر المملوكي إمارة دلغادر أنموذجا، بحث منشور.

(174) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 60.

(175) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 60.

الدولة الصفوية، ويبدو أن هذا ما فهمه الشاه إسماعيل من موقف قانصوه الغوري وعليه أرسل إليه وفدا يطلب منه التحالف معه لإيقاف سير الدولة العثمانية، مبينا له أنه إن لم يتفقا حاربت الدولة كلا منهما على حدة وقهرته(176).

لقد ساءت العلاقات بين المماليك والعثمانيين على خلفية عدم تحالف المماليك مع الدولة العثمانية ضد الشاه إسماعيل، وبدأت ملامح توتر هذه العلاقة عام 1510 هـ على خلفية السماح لوفد من الدولة الصفوية بالعبور عبر الأراضي المملوكية إلى أوروبا وتحديدا إلى البندقية، يذكر ابن طولون في حوادث سنة 916هـ \ 1510م: (... وكان يومئذ قد وصل إلى دمشق من حلب وغيرها جماعة صحبتهم من الإفرنج قيل معهم مكاتبات مخبأة في عكاكيزهم من الإفرنج إلى إسماعيل المذكور)(177). لقد تسبب سماح المماليك للشاه بعبور مبعوثيه عبر أراضي الدولة إلى أوروبا غضبا كبيرا لدى السلطان بايزيد الذي أرسل إلى السلطان الغوري شكوى ومعاتبة فأراد قانصوه أن يسترضيه فأمر بحبس البنادقة الذين كانوا آنذاك في مصر وسوريا، ومع أنه أطلق سراحهم بعد سنة خوفا من انتقام البندقية بقيت العلاقة بين الدولتين العثمانية والمملوكية حتى ذلك الوقت ودية نوعا ما(178).

كانت المراسلات في تلك المرحلة بين الشاه إسماعيل والسلطان المملوكي قانصوه الغوري قد اتسمت بنبرة متفاوتة بين الجانبين، ففي وقت كان الغوري يميل إلى اللهجة الهادئة والودية بدت رسائل الشاه إسماعيل طافحة بالتحدي والكبرياء، وكان من بعض رسائل التي أرسلها عام 1511م يتمثل بالأشعار العربية كقوله:(179)

السيف والخنجر ريحاننا   أف على النرجس والأس

شرابنا دماء أعدائنا   وكاسنا جمجمة الراس

فكان رد الغوري عليه:

العلم والحلم ريحاننا   والجود والإحسان للناس

شمسنا العدل لكل الورى   مع شدة القوة والباس

والغوري في رده يشير هنا بلا ريب إلى ما عرف من اهتمامه بالقراءة والعلوم والفنون، حتى أن الشاه نفسه أرسل إليه هدية تمثلت بكتاب عن تاريخ التتار(180).

لقد كانت البعثات المتبادلة تحمل الهدايا والخلع الثمينة بين الرجلين، جاء في كتاب مجالس السلطان الغوري: (وفي يوم السبت عشرية دخل من مصر إلى دمشق رجل خاصكي قيل اسمه سودون الخندي بخلعة بطراز خاص وصحبته نحو عشرة أنفس خاصكية ووشاقية بخيل خاص وأبهة حافلة قيل أرسله السلطان إلى الخارجي إسماعيل الصفوي)(181).

---

(176) ـ فريد بك المحامي: مصدر سابق، ص 189.

(177) - ابن طولون: مصدر سابق: ص 277.

(178) - السير وليم موير: مصدر سابق، ص 186.

(179) - ابن طولون: مصدر سابق: ص 288.

(180) - عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغوري، صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري، منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م، ص 33.

(181) - المصدر السابق نفسه. ص 277.

شكلت موقعة جالديران منعطفا تاريخيا كما سبق ذكر ذلك ليس على العلاقة الصفوية العثمانية بل على عموم المنطقة، ولهذا كثيرا ما يتم النظر إلى العلاقة الصفوية المملوكية على أنها ذات شطرين أو مرحلتين، الأولى ما قبل جالديران والثانية ما بعدها، بل يمكن تعميم ذلك أيضاً على العلاقة المملوكية العثمانية.

فقبل تلك المعركة يبدو أن الطابع العام لعلاقة المماليك بالصفويين قد ابتنت على أساس موقف الحياد والترقب، أما بعد تلك المعركة التي انهزم فيها جيش إسماعيل الصفوي كما مر بنا تفصيل ذلك فقد اتسمت بطابع مختلف، حيث كانت البداية منذ انطلاق الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول، إذ ضايق علاء الدولة أمير ذو الغادر والمتحالف مع المماليك الجيش العثماني، ومنع وصول المؤن إليه، ولهذا ما إن عاد سليم منتصرا من تبريز حتى قاد جيشه صوب إمارة دلغادر وقتل علاء الدولة وأرسل رأسه إلى قانصوه الغوري[182]. ويميل البعض إلى توصيف العلاقة بين المماليك والصفويين بعد جالديران بعلاقة التحالف بين الطرفين، وأحيانا بالتحالف الخفي غير المعلن[183]. ولكن لا يبدو للباحث ما يؤكد مثل هذا التحالف بين الصفويين والمماليك، لاسيما وأن إسماعيل الصفوي بعد الهزيمة التي تعد الأولى منذ بداية انطلاق فتوحاته العسكرية في إيران كان قد مال إلى اللامبالاة، ولم يعد مهتما ليس بالخارج فقط بل حتى بمجريات الأمور الداخلية وترك تدبيرها للقادة القزلباش. وفي مثل هذا الوضع لم يكن متصورا افتراض وجود تحالف لا يقوم على أية مصلحة بالنسبة للمماليك. كما أن الدولة المملوكية لم تكن في تلك المرحلة سواء التي سبقت جالديران أوبعدها راغبة في أية مواجهة عسكرية مع العثمانيين، لا بل فعلت كل ما في وسعها لتجنب أي صدام، إذن فقد كان المماليك يتحاشون الحرب مع الدولة العثمانية ويعملون جهدهم لتفاديها[184]. نعم كانت قد بدرت رغبة سلطان المماليك الغوري في عقد تحالف عسكري مع الشاه، وذلك بعد أن سار الجيش العثماني باتجاه مصر في تموز عام 1516م، لكن الشاه إسماعيل رفض ذلك .[185]

وفي عام 1517م حدثت موقعة مرج دابق بين الجيشين المملوكي والعثماني، وانتهت لصالح العثمانيين وقتل فيها قانصوه الغوري، وفتحت مصر من قبل الدولة العثمانية. وهكذا انتهت دولة المماليك وأصبحت بلاد الشام ومصر تحت السيطرة العثمانية.

لم يكن الحكام المماليك يختلفون عن العثمانيين والصفويين في استغلال الدين كمظهر أساسي لشرعية الحكم والنظام السياسي، ولكنهم في الواقع تميزوا بدعمهم الكبير للحركة الفكرية والثقافية الدينية، حتى وصفت مصر المملوكية في ذروة ازدهارها من ذلك العصر بكونها محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء [186]، وتجلى ذلك الاهتمام بإقامة المدارس والجوامع والإنفاق السخي على العلماء، وكان السلاطين والأمراء يخضعون مماليكهم لمنهج في التربية الإسلامية يتضمن حفظ القران وقراءة الحديث، وغالبا ما يتم تعيين المؤدبين لهم

(182) - السير وليم موير: مصدر سابق، ص 187.

(183) - أ.د. نادية محمود مصطفى: مصدر سابق، ص 36.

(184) - يلماز أوزوتا: مصدر سابق: ص 221.

(185) - المصدر نفسه: ص 222.

(186) - السيوطي؛ حسن المحاضرة في تاريخ مر والقاهرة، تحقيق: محمد ابو الفضل، دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى 1968م، ج 2، ص94.

من قبل الفقهاء، والحقيقة أن المماليك اهتموا بهذه الجوانب بسبب شعورهم بأنهم غرباء عن البلاد، وأن الوسيلة الوحيدة لاسترضاء أهليها وإثبات الصلة بهم وتبرير شرعيتهم هو الاهتمام بالجانب الديني، ورعاية الفقهاء ولهذا لم يحدث ولو لمرة واحدة أن تصادم عالم أو فقيه مع السلطة. ولكن النشاط الديني في مصر المماليك كما يقول الدكتور سعيد عاشور كان موجها لخدمة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر المماليك، وقد لجأ سلاطين المماليك إلى استخدام العنف لكبت الشيعة، حتى أن الناس في ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع، فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يظهر التوبة[187].

ولكن يلاحظ أنه في الوقت الذي كان فيه المماليك قد انتهجوا سياسة شديدة في محاربة الشيعة وبقاياهم من الدولة الفاطمية، وقمعوا الكثير ممن يُشك بانتمائه إلى التشيع، إلا أنهم قربوا بشكل لافت المتصوفة، وفسحوا لهم المجال واسعا، فظهرت فرق عديدة من الصوفية كما وفد متصوفة من بلاد المغرب منذ القرن السابع عشر[188]. وبنيت العديد من الخانقاوات والزوايا التي كانت تشهد حلقات الدرس والذكر وتشتمل على خزائن الكتب والمصاحف القرآنية.[189]

وكانت هذه السياسة في دعم التصوف مبنية على محاولة ممنهجة لسحب المصريين من دائرة التشيع من خلال الطرق الصوفية التي تبنت المذاهب الأربعة والتزمت بها، فهناك طرق شافعية وأخرى مالكية وحنفية، إلا أنها ترفع شعار آل البيت وبذلك تحقق هدف الحكام بإدخال الجماهير المصرية في دائرة المذاهب الأربعة وسحبها من التشيع تدريجيا[190].

إن سياسة المماليك كانت في غاية العنف والقسوة ضد الشيعة سواء في مصر أو بلاد الشام «سوريا ولبنان»، وقد بلغ التعسف المملوكي ضد الشيعة أن قرر والي المماليك على الشام عام 674 هـ منع أهل صيدا وبيروت وأعمالها من البقاء على المذهب الشيعي، معتبرا أنهم يتدينون بالكفر الصراح، وسيجهز حملة عسكرية لتستأصل شأفة هذه العصبة الملحدة كما ورد في كتابه الذي نقله القلقشندي في كتابه صبح الأعشى[191].

وقد شهد العصر المملوكي ظهور فقهاء سنة على غاية من التشدد ضد الشيعة، ويبرز هنا اسم الشيخ ابن تيمية، الذي كان له دور بارز في تحريض المماليك على ارتكاب مجزرة كسروان، يحكي المقريزي في السلوك ضمن أحداث سنة 704 عن توجه شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية في ذي الحجة من دمشق، ومعه الأمير بهاء الدين قراقوش المنصوري، إلى أهل جبل كسروان يدعوهم إلى الطاعة فلم يجيبوا. فجُمعت العساكر لقتالهم[192]. وفي محرم من بداية السنة التالية يضيف المقريزي: (سار الأمير

---

(187) - د. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة، ط2، ص349.

(188) - المصدر السابق، ص 352.

(189) - منصور الصوفي: الأوضاع الدينية للمسلمين في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة غزة 2010م.

(190) - صالح الورداني: الشيعة في مصر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى - 1993م، ص 80.

(191) - ينظر: أبو العباس القلقشندي: صبح الاعشى ج13، مطبعة الأميرية - القاهرة، 1918، الصفحة 13 وما بعدها.

(192) - المقريزي، ج 2ص 377.

جمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام من دمشق في عساكرها لقتال أهل جبال كسروان، ونادى بالمدينة من تأخر من الأجناد والرجالة شُنق. فاجتمع له نحو الخمسين ألف راجل، وزحف بهم لمهاجمة أهل تلك الجبال، ونازلهم وخرب ضياعهم وقطع كرومهم، ومزقهم بعدما قاتلهم أحد عشر يوما، ووضع فيهم السيف وأسر ستمائة رجل، وغنمت العساكر منهم مالا عظيما، وعاد إلى دمشق في رابع عشر صفر)[193].

يتضح من ذلك وبحسب ما تبسطه المصادر التاريخية بخصوص العصر المملوكي أن المماليك نجحوا في اقتلاع بقايا الشيعة من مصر إلى حد كبير، وفيما مارسوا البطش والتنكيل بالشيعة في لبنان وسوريا، وكانت الأجواء العامة السياسية والدينية والاجتماعية في مصر آنذاك متشابهة وموحدة الاتجاه ضد الشيعة، والنظر إليهم كفرقة خارجة عن الإسلام، ولكن في أواخر حكم المماليك وبعد أن أصابهم الضعف وكثرة المشاكل السياسية تنفس الشيعة الصعداء إلى حد ما، ولهذا فحين قامت الدولة الصفوية في إيران ووصلت أخبارها إلى مصر المماليك لم يكن ثمة خلاف في أوساط الرأي العام والنخب السياسية والدينية حول الموقف من هذه الدولة التي ظهرت شرقا. فقد رسخ مبدأ تكفيرهم سلفا، ولم يكن التوجه العام سوى النظر إليهم كتهديد حقيقي للحكم المملوكي، وللإسلام السني والمقدسات التي يشرف عليها بفعل شرعية الخلافة العباسية، التي كانت الدولة تظهر نفسها كامتداد حقيقي لها.

ثانيا/ العلاقة الصفوية - الآق قوينلوية

مر بنا في الفصل السابق أن الشاه إسماعيل كان قد عزم على التحرك وتأسيس الدولة الصفوية بعد أن رأى حدوث النزاعات الحادة داخل الأسرة الآق قوينلوية والتي كانت أخبارها تصل إليه ولأتباعه، لذا قام بمراسلة خلفاء الطريقة في الأناضول طالباً منهم إعداد جيش قوي له من أتباعه، لغرض القيام وإسقاط حكومات الآق قوينلوية التي كانت قائمة في أجزاء واسعة من إيران والعراق وديار بكر وأذربيجان، وبالتالي فإن علاقة الدولة الصفوية بالآق قوينلو علاقة تتميز عن غيرها من الأطراف والحكومات القائمة آنذاك في كونها الدولة التي قامت الصفوية على عدد كبير من أشلائها المبعثرة، وانبثقت من داخل كياناتها الهشة، وبهذا فبعد اكتمال تأسيس الدولة الصفوية وإحكام الشاه إسماعيل لسلطانه عليها انزاحت حدود الدولة الآق قوينلوية واقتصرت على مناطق العراق، فضلا عن جزء في الأناضول وأجزاء من إيران سرعان ما ضمها الشاه إلى مملكته الناشئة.

لقد كانت الظروف مهيأة تماما أمام إسماعيل الصفوي ليحقق انتصاراته المتلاحقة، فلم يكن الخلاف بين الأمراء هو الظاهرة الوحيدة لضعف الآق قوينلو بل كانت المملكة في تلك الأيام قد نالها الخراب، وكثرت المجاعات فمات الكثير من الأهالي جوعا، وبسبب الطواعين والأوبئة تفرق الباقون شذر مذر وتركوا أوطانهم[194]. والحقيقة أن الظلم والتعسف الذي كان يطبع سياسة حكام الآق قوينلو ضد الناس جعل الجميع يتطلع إلى الخلاص، ولهذا وجد إسماعيل الصفوي ترحيبا واستبشارا من قبل الأهالي في كل المناطق التي فتحها وأطاح فيها بالحكومات الآق قوينلوية.

لقد كان الشاه إسماعيل يدرك أن ترسيخ دعائم الدولة الصفوية لا يعد أمرا مكتملا ما لم يلغ كل التهديدات الخارجية المحيطة بها، وكانت هذه التهديدات على أكثر من جهة، فمن الغرب بات العراق

(193) - المصدر السابق بتصرف بسيط.

(194) - عباس العزاوي مصدر سابق، ص 314.

الجزء الأهم المتبقي من دولة الآق قوينلو وإليه لجأ مراد بن يعقوب آخر أمراء الآق قوينلو، وأما في جهة الشمال الغربي فكانت الأناضول حيث الدولة العثمانية، كما أن التهديد كان قائما في الشمال الشرقي عبر قبائل الأوزبك بزعامة محمد الشيباني وهو آنذاك كان مسيطرا على خراسان وأجزاء من شرقي إيران. أما في الشرق فكانت قبائل الأفغان القوية والتي تقطن صحراء صعبة المسالك وتتوثّب لمهاجمة الأراضي الزراعية الخصبة[195]، إن القاسم المشترك بين كل هذه القوى هي أنها مختلفة مذهبيا عن الدولة الصفوية، فقد كانت تمثل قوى سنية تحيط بالدولة الشيعية الوحيدة التي فرض فيها المذهب الشيعي من قبل السلطة. وكان من المتصور أن يعمل الشاه على إلغاء هذه التهديدات المحيطة بدولته، وكان توسيع سيطرته لتشمل مناطق خارج إيران هو السياق الطبيعي المتبع في معالجة التهديدات الخارجية، بل تعد هذه الممارسات نمطا طبيعيا آنذاك في العلاقات بين الدول[196]. ولهذا فما أن انتهى الشاه من أمر الآق قوينلو داخل إيران حتى توجه إلى بقاياها في الخارج، وقد كان ما تبقى لها منطقتان هما العراق وأبلستين في الأناضول.

دشن الشاه إسماعيل أولى حملاته العسكرية الخارجية بالسير نحو كردستان للاستيلاء على هذه المنطقة التي تفصل ما بين الهضبة الإيرانية والعراق والأناضول، لكن هذه الحملة أخفقت في التغلب على المقاومة الكردية بقيادة صارم بن سيف الدين المكري، لكنها نجحت في إخضاع بعض الأمراء الأكراد[197]. وبعد عام واحد توجه الجيش الصفوي ثانية إلى المنطقة وعموم ديار بكر، وكان دافع تلك الحملة هو أن السلطان مراد بن يعقوب أمير بغداد كان قد خاف وهرب ولحق بعلاء الدولة ملك دلغادر، الذي زوجه ابنته، واتفقا على أن يتحالفا لمواجهة إسماعيل الصفوي، وهكذا توجها بجيش كبير إلى ديار بكر واحتلاها، فجهز الشاه قواته واندفع بها إلى هناك، ومزق جيش علاء الدولة الذي انسحب قبل المعركة إلى أبلستين[198]. وما أن عاد الشاه إلى إيران، وقد نصب خلفه محمد بيك ستاجلو حاكما على المنطقة، حتى أعد علاء الدولة جيشا هزمه ستاجلو.

وإلى هنا فإن ما يمكن الإشارة إليه في العلاقات الصفوية- الآق قوينلوية هو أنها وصلت ذروتها وفصلها الأخير بسرعة عندما بدأت استعدادات الشاه إسماعيل لاحتلال بغداد وطيّ صفحة الدولة الآق قوينلوية نهائيا. ولا بد هنا من الوقوف على ماهية الأسباب التي دعت الشاه إسماعيل إلى احتلال العراق. يرى الدكتور محمد سهيل طقوش أن ثمة دوافع مذهبية وسياسية واقتصادية دفعت الشاه إلى احتلال العراق، أما الدافع المذهبي فيتجلى من خلال أن حركة الشاه اعتمدت على المذهب الشيعي الاثني عشري، وأنها أي الدولة الصفوية عدت نفسها المدافع الأول عن هذا المذهب ومسؤولة عن انتشاره، ومن ثم فإن السيطرة على الأماكن المقدسة تعطي حركة الشاه دفعا قويا وتحقق هدفا مذهبيا[199]. ويضيف طقوش ما يلي: (كان الشيعة في العراق ينظرون إلى

---

(195) - محمد سهيل قطوش: مصدر سابق، ص 57.

(196) - د. نادية محمود مصطفى: مصدر سابق، ص 37.

(197) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 58.

(198) - عباس العزاوي: مصدر سابق، ص 346.

(199) - محمد سهيل طقوش: ص59.

شاه إيران على أنه الحامي لهم، يلجؤون إليه كلما نزل بهم ضرر أوأعوزتهم الأموال وكانت حكومة إيران تهتم بالقيام بإصلاحات معمارية في العتبات المقدسة، ما جعل شيعة العراق يعتقدون أن إيران تقف وراءهم إذا تدهورت العلاقات بينهم وبين المسلمين السنة في العراق، لذلك كان من الطبيعي أن يتطلعوا إلى اليوم الذي تحكم فيه إيران العراق) ويضع الدكتور طقوش إشارة في نهاية كلامه السابق تحيل إلى كتاب الدكتور محمد عبد اللطيف هريدي، الصفحتان (47-46)[200]. والحقيقة أن هذا التوصيف للعلاقة بين الصفويين وشيعة العراق لا ينطبق بشكل دقيق على الواقع التاريخي ومجرياته، وذلك من خلال ما يلي:

إن القول باعتبار الشاه لدى الشيعة العراقيين بمثابة الحامي الذي يلجؤون إليه كلما نالهم الضرر أوأعوزتهم الأموال قبل تاريخ دخوله إلى بغداد واحتلال العراق قول لا يؤيده أي دليل أو سند تاريخي، نعم كان العراقيون جميعا وغيرهم من الشعوب في المنطقة يتطلعون إلى الخلاص من ظلم السلطات ويرون في الشاه فرصة وبارقة أمل لاسيما مع تدهور مريع لأوضاعهم الاقتصادية وتعسف الحكام. وهذا ما نراه في مناطق أخرى فتحها الشاه وضمها إلى دولته. كما أن الحديث عن الأموال لا يعد منطقيا كسبب لترحيب العراقيين الشيعة بمجيء الصفويين، لأن هذه الأموال كان قد بدأ الشاه بدفعها بعد احتلال بغداد أولا، وثانيا إنما كان دفعها إلى العلماء وخدام المراقد، بغية التشجيع على نشر التشيع وإقامة المدارس الدينية وتوفير الخدمات العامة، ومن ذلك ما كان يرسله الشاه إلى علماء النجف ومنهم المحقق الكركي الذي كان ينفق على طلبته سبعين ألف دينار سنويا تصله من الشاه إسماعيل[201]. وحتى قبول هذه الأموال في الأوساط العلمائية الشيعية نفسها كانت محط خلاف كبير نتيجة للاختلاف الفقهي حول حليتها، وقد مر بنا في مبحث سابق موقف المؤسسة الدينية الشيعية من الدولة الصفوية.

- إن رعاية الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف من قبل الشاه كانت بعد دخوله إلى العراق وليست سابقة لهذا الحدث، فلا يوجد مسوغ منطقي لجعل رعاية هذه الأماكن - وهي رعاية متأخرة عن واقعة فتح بغداد- سببا في الترحيب بالشاه! نعم لا يمكن إنكار أن هذه الأماكن تحظى بقدسية خاصة لدى الصفويين وهم المعتنقون للمذهب الشيعي الاثني عشري، وكان الشيعة العراقيون يعرفون ذلك بالطبع.

ومع هذا فمن البديهي القول إن احتلال إسماعيل الصفوي للعراق يعد العامل المذهبي واحدا من دوافعه المؤكدة، ذلك أن العراق يشكل فيه الشيعة نسبة كبيرة تبلغ النصف[202]، وتوجد فيه سبعة مراقد وأضرحة مهمة لدى الشيعة الاثني عشرية، كما أنه لا ينكر ميل شيعة العراق إلى الدولة الصفوية آنذاك، وترحيبهم بقدوم الشاه، ولعل السبب الأهم في هذا الموقف هو الظلم والجور الذي مارسه أمراء الآق قوينلو، وهو ذات الظلم والجور الذي دفع الأهالي في مدن سنية داخل إيران وخارجها إلى الترحيب أيضا بالشاه إسماعيل الصفوي والتطلع إلى حكم رجل قوي يوقف حالة الانهيار الشاملة التي اعترت الدولة الآق قوينلوية .

أما الدافع الآخر لاحتلال العراق من قبل الشاه فهو العامل السياسي، فالتداخل الإثني بين الصفويين

(200) - المصدر نفسه.

(201) - محسن الأمين العاملي: مصدر سابق، ج8 ص209.

(202) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 59.

والعثمانيين دفع الشاه إلى دخول العراق، فقد كانت قبائل التركمان في جنوب الأناضول تدين للعائلة الصفوية، ولما اعتلى الشاه إسماعيل في تبريز كانت شعبيته في تصاعد مريع وباتت تشكل خطرا داخليا يتهدد الدولة العثمانية، خاصة وقد استطاع مؤيدوه هناك من الاستيلاء على مناطق عديدة، كما أن مسألة الحدود بين الدولتين الصفوية والعثمانية لم تكن محددة بشكل واضح، وهذان السببان كان لهما أن يثيرا مشكلات سياسية معقدة بين الطرفين، ليس أقلها الاعتداءات المتكررة على الحجاج الإيرانيين وعلى القوافل التجارية[203]. أما بخصوص العامل الاقتصادي فكان واضحا مدى الاستفادة من احتلال العراق للدولة الصفوية، حيث الأراضي الخصبة التي يمكن أن تسد احتياجات إيران كما أن امتلاك العراق يعني السيطرة على الطريق التجاري المار بديار بكر والموصل والذي يقطع عمق وادي الرافدين نحو الخليج العربي[204]. حين استعد الشاه إسماعيل للاستيلاء على العراق كان عامل الدولة الآق قوينلوية في بغداد هو باريك بك، وقد أرسل إليه في البداية الشاه إسماعيل أحد أبرز قادته وهو خليل بك كمبعوث من الشاه للوالي باريك، وقد استقبله باريك بك بحفاوة كبيرة، وأظهر التبجيل والاحترام الفائق لرسول الشاه، بل وأظهر الخضوع والانقياد للشاه إسماعيل، وعندما عاد مبعوث الشاه إلى همذان رافقه مبعوث الوالي محملا بالهدايا النفيسة، بيد أن الشاه أعرض عنها وحمل رسالة واضحة إلى والي بغداد نصت على أن الشاه في غنى عن الهدايا وإنما كان يأمل أن يأتي بنفسه ويظهر طاعته، فإن فعل نال كل عطف، وإن أبى وتوسل بالخداع فسينال جزاءه[205].

أظهر باريك موافقته وطاعته للشاه، وبعد أيام بدأ بإعداد التحصينات وبناء القلاع، وفرض الضرائب التي كانت باهظة للغاية على أهالي بغداد، حتى جمع من الحبوب والأطعمة ما يكفي جنوده لثلاث سنوات[206]. كان الشاه من جانبه قد أعد جيشا كبيرا بعد انصراف مبعوث باريك، وعين على رأس هذا الجيش حسن بك لالا، فيما سار هو متأخراً خلفه، فبدا أنه يقود جيشين[207]، ولما سمع باريك بذلك اضطرب أمره ولم يقر له قرار، ثم فضل الهروب ليلا إلى حلب[208].

وهكذا لم تواجه القوات الصفوية أية مشكلة في دخول بغداد، وتجمع الأهالي في ذلك اليوم واستبشروا بعهد جديد بعيدا عن ممارسات الآق قوينلو والظروف الاقتصادية والأمنية والسياسية المضطرب التي سادت لفترات طويلة، وتوافدوا عند وصول الشاه الذي نزل بغداد بتاريخ 25 جمادى الثانية سنة 914هـ المصادف 20 أكتوبر 1508م، وهو تاريخ انتهاء الدولة الآق قوينلوية. استقبل الشاه إسماعيل من السواد الأعظم من سكان بغداد بالذبائح والقرابين ابتهاجا وفرحا، ولم يذكر مؤرخو تلك الفترة أن هذا الاستقبال كان قصرا على الشيعة من بغداد، كما يؤكد عباس العزاوي في موسوعته تاريخ العراق بين احتلالين[209].

(203) - المصدر نفسه.

(204) - المصدر السابق نفسه.

(205) - عباس العزاوي: مصدر سابق، ص347

(206) - المصدر السابق نفسه.

(207) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 60.

(208) - عباس العزاوي، مصدر سابق، ص347.

(209) - المصدر نفسه.

المطلب الخامس

العلاقة الصفوية مع الأوزبك

تقترب طبيعة العلاقة الصفوية مع الأوزبك على صعيد امتدادها الزمني وخطورة الأحداث والمتغيرات التي اكتنفتها من طبيعتها مع الدولة العثمانية، بقدر ما تختلف عن العلاقة مع الآق قوينلو التي امتدت لما يقرب من سبعة أعوام فقط، ومن العلاقة مع المماليك التي تجاوزت بقليل 15 عاما. بدت العلاقة القائمة بين الصفويين والدولة التيمورية علاقة ودية حتى أطاح محمد خان الشيباني بالحكم التيموري وأقام دولة الأوزبك، حيث توترت العلاقة بين الجانبين، وكان من بدايات تجلي هذا الخلاف تلك الرسالة التي أرسلها محمد خان إلى الشاه، والتي قال فيها: (ليكن معلوما للأمير إسماعيل أننا ـ بالسعادة والإقبال - ننوي زيارة مكة المكرمة فمر رجالك لكي يصلحوا الجسور المهدمة التي قد تكون في طريقنا، وأنا لا أطمع في العراق الخراب أوأذربيجان، ولقد أمرنا أن تقوم حكومتكم بإعداد المؤن والولائم في كل مكان ننزل به، وكلما أحسنتم الخدمة نلتم رضانا وسوف نخلع عليكم الخلع الفاخرة، ولا يجب عليكم التهاون في هذا الأمر)[210]، وقد كان رد الشاه ليناً على مبعوث الشيباني، إذ كتب على ظهر الرسالة أبياتا من الشعر ثم خلع خلعة نفيسة على المبعوث. وقد استمرت الرسائل بين الطرفين متشددة من قبل محمد خان ولينة من قبل إسماعيل الصفوي، الذي كان فيما يبدو يبحث عن فرصة مناسبة للانقضاض على الشيباني والطريقة الفظة التي يتعامل بها مع الشاه. إن سبب هذا اللين من قبل الشاه هو انشغاله بترتيب الأوضاع الداخلية، ولهذا فحين هاجم محمد خان كرمان وقتل حاكمها خواجة شيخ محمد اكتفى الشاه بإرسال مبعوثين إلى السلطان الأوزبكي، عارضاً عليه إقامة علاقات ودية تتأسس على الاحترام المتبادل والسلام بين الدولتين، ولكن جوبهت هذه الرغبة بالرفض.[211]

أسباب الصراع والصدام بين الصفوية والأوزبكية

اندفعت الدولة الأوزبكية باتجاه إيران واحتلت خراسان عام 913 هـ/1507م، وكانت تتبنى المذهب الحنفي وتتعصب له بشدة[212]، وقد اتسمت سياستها الخارجية بالهجوم، حيث تشير المدونات التاريخية إلى تحرش واضح وسافر من الأوزبك بالدولة الصفوية[213]. ومن هنا يتضح أن الصدام بين الدولتين كان أمرا واقعا منذ نشأة الأوزبك، ويمكن إجمال أسباب هذا الصراع بما يلي:

- الاختلاف المذهبي بين الدولتين، حيث مثل كل منهما قطبا مذهبيا متشددا، حيث كانت السياسات المذهبية لكل من الأوزبك والصفويين متناقضة[214].

- السبب السياسي وتوسعة النفوذ، حيث كان محمد خان يرى أن إيران يجب أن تخضع لنفوذه باعتبار أنها كانت ذات يوم تحت حكم أجداده كونه ينتسب إلى جنكيزخان، كما ليس للشاه حق في حكم بلاد

(210) - نصر الله فلسفي، مصدر سابق، ص 33 من المقدمة.

(211) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 62.

(212) - عباس الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق ص38.

(213) - المصدر نفسه.

(214) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 62.

فارس. وقد وصلت قناعة محمد خان بحق امتلاك إيران وعدم أحقية الشاه بها إلى درجة أنه جادل الشاه في أحقيته الوراثية حول ملك إيران، (إذ أرسل إليه رسالة فنّد فيها حق الشاه بحكم إيران من واقع أن الملكية إذا كانت وراثية فإن الوراثة فيها تتعلق بالذكور من دون الإناث، أي أنها تتعلق بالنسل من ناحية الأب لامن ناحية الأم، ولما كان زواج الشيخ جنيد جد إسماعيل من أخت أوزون حسن سلطان الآق قوينلو فإن هذا لايعطيه الحق في حكم إيران، وبالتالي فإن ادعاء أحقيته في حكم كرمان لا أساس لها من الصحة، كما أشار إلى أن إقليم فارس كان تحت حكم والده أبي الخير، ومن ثم فإن ذكر اسمه في الخطبة وضربه على السكة أمر واجب)[215].

- لعبت رسائل محمد خان المستفزة والتي اتسمت بالتعالي والغرور والتأكيد على أن ليس للشاه أي حق في بناء دولة تحكم إيران دورا في استثارة الشاه إسماعيل، وإضماره العداء للأوزبك، وضرورة إثبات قوته ومكانته الدولية والدفاع عما يراه حقا ثابتا في حكم إيران.

جولات الصراع الصفوي الأوزبكي

في عام 1510 انطلق الشاه إسماعيل بجيشه من تبريز، وسار باتجاه خراسان. وحين علم محمد خان بتحرك الجيش الصفوي الجرار ترك حامية هراة وذهب إلى مرو. وصل الشاه بقواته قريبا من مدينة مشهد، وحين لاحت قبة الإمام الرضا ترجل من حصانه وترجل معه جيشه بأكمله وسار الجميع المسافة المتبقية والتي كانت عشرين كيلومتر[216]. ولما كان الأوزبك قد نهبوا المقتنيات الفاخرة والنفائس الموجودة في المرقد أمر الشاه بإعادة فرش الضريح وتجهيزه بأفخر السجاد والقناديل والثريات الذهبية. ثم واصل سيره بجيشه في تعقب الأوزبك، و يجدر هنا ذكر واحدة من الحوادث التي قد تلقي الضوء على ما كان يتمتع به الشاه من تأثير وما جلبه له الحظ السعيد ليكون ذلك القائد التاريخي المؤثر في مستقبل إيران والمنطقة ككل، إذ حينما قرر متابعة زحفه وراء الأوزبك نصحه قواده العسكريون بعدم السير بعد أن قطعوا كل تلك المسافة البعيدة مما أضعف الخيل وأرهق الجند، وعرضوا أن يستريح في مشهد لبعض الوقت، فرد الشاه إسماعيل الصفوي بالقول: (لقد ذكرتم ما رأيتم أنه الحق والمصلحة، ولكنني عبد لسيدي الذي لا أشرب جرعة ماء دون إذنه، وكل ما فعلته للآن كان بإذن منه وأمر، وسأبرهن لكم على هذا، وما علينا إلا أن نكتب رسالة إليه نطلب فيها الإذن لهذه الحرب، ونضعها فوق مرقد الإمام علي الرضا ونغلق باب الروضة بالقفل، وتتولون أنتم حراستها حتى اليوم التالي، لتتأكدوا أن أحدا لن يدخلها). ففعلوا ما اقترحه الشاه، حتى إذا جاء الصباح ذهب إلى الضريح هو ومعه أولئك القادة ليجدوا مكتوبا على ظهر هذه العريضة بالحبر الأخضر: نأذن لكم فاذهبوا فإن الفتح والنصر لكم»، حينها سجد الجميع وأخذوا بالبكاء، وتعهدوا بالسمع والطاعة وعدم مناقشة أوامره مستقبلا[217]. في تلك الأثناء وقبل تحركه كتب الشاه إلى محمد خان المتحصن في قلعة مرو، مذكرا إياه برسائله قائلا: أين ذلك الغرور حين كنت تأمرني بإصلاح الجسور في طريقك إلى الحج؟، ثم دارت معركة دامية حول القلعة قتل فيها

(215) - المصدر السابق نفسه.

(216) - نصر الله فلسفي: مصدر سابق، ص 34 من المقدمة.

(217) - يراجع المصدر السابق نفسه.

الآلاف من الأوزبك، ثم فكر الشاه بخدعة أن يوهم محمد خان بالانسحاب ليخرجه من المكان الذي تحصن فيه، فأرسل إليه رسالة قال فيها: (لقد وعدتنا باللقاء في خراسان ولم تفِ بوعدك بينما وفيت بوعدي وجئت إلى خراسان وقد اضطررت للعودة، وعندما تستعد للقتال فنحن حاضرون)، وهكذا تظاهر الشاه بالانسحاب بعيدا عن قلعة مرو وكمن على بعد عشرة أميال منها[218]. فيما انطلت الحيلة على محمد خان الذي فكر بمهاجمة الجيش الصفوي من مؤخرته وهو منسحب، بيد أن الشاه أطبق عليه، وقتل الآلاف من الجنود الأوزبك فيما فر محمد خان ليقع في مستنقع موحل فغرق فيه، وقيل قتل تحت أرجل الخيل وقيل أيضا أن الشاه أرداه بسهم[219].

يورد المؤرخون حكاية مفادها أن إسماعيل الصفوي قطع جثة محمد خان وأرسل أطرافها إلى بعض المتمردين، كما سلخ جلده وأرسله إلى السلطان العثماني بايزيد، أما جمجمته فقد طلاها بالذهب وراح يشرب بها الخمر[220]. وكان هذا الأسلوب متبعا في العهد العباسي، فمثلا قام المعتضد بالله بسلخ جلد أحد قادة الخوارج، واستخدمه أيضا المعز الفاطمي حين ألقى القبض على الفقيه أبي بكر النابلسي وسلخ جلده ثم حشاه بالتبن، كما أن العهد الأموي لم يكن بريئا من ممارسات كهذه، بل كانت بدايات هذا النوع من التنكيل قد ظهرت فيه، ومن أمثلة ذلك ما فعله الحجاج بن يوسف الثقفي بابن الزبير حيث قتله وسلخ جلده[221]. ودافع هذه الأعمال الوحشية هو شعور صاحبها بامتلاكه الحق المطلق وأنه يحظى بالعناية الإلهية لأنه يمثل ظل الله في الأرض وغير ذلك مما يقود إلى سادية ووحشية عجيبة كهذه.

بعد الهزيمة المريرة التي مني بها الأوزبك تعهدوا للدولة الصفوية بعدم تجاوزهم لحدودها وأن لا يتعدوا نهر جيحون مستقبلا، وكانت تلك الهزيمة قد ألقت بظلالها على الداخل الأوزبكي، فتفرقت كلمة الأوزبك ونشبت الصراعات فيما بين الأمراء، فحكم عبد الله خان بخارى، وجان بك القلعة ومحمد تيمور بن محمد خان الشيباني سمرقند. وقد وجد هؤلاء أنهم غير قادرين على مواجهة شاه إيران، وكان من الضروري إخراجه من الصراع والتفرغ لمواجهة طموحات بابر في بلاد ما وراء النهر، والذي كان يسعى لإعادة أمجاد الإمبراطورية المغولية ولهذا تم عقد اتفاقية بمساع حثيثة من قبل الوزير كمال الدين حسين الذي كان وزيرا في عهد محمد خان، ووقعت هذه الاتفاقية عام 1510م، وقد نصت على الاعتراف بسلطة الشاه إسماعيل على خوارزم والأراضي الواقعة على الضفة اليسرى للنهر، بالإضافة بالطبع إلى خراسان[222]. بيد أن الأوزبك ما أن شعروا باسترداد قوتهم وتنظيم صفوفهم حتى جهزوا جيشهم لاسترداد المناطق التي استولى عليها الشاه إسماعيل الصفوي، فأرسل الشاه أحد قواده المعروف بنجم الثاني الذي جمع قواته في خراسان، ولم يكن مخولا من قبل الشاه إسماعيل بمهاجمة حدود الأوزبك لكنه عبر النهر واحتل مدينة قارشي بمساعدة بابر، ودمر فيها

(218) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 63.

(219) - ينظر: نصر الله فلسفي، المصدر سابق، محمد سهيل طقوش، المصدر السابق.

(220) - المصدر السابق نفسه.

(221) - ابن طهر المقدسي: البدء والتاريخ، منشورات مكتبة الثقافة الدينية بور سعيد ج6 ص25.

(222) - محمد سهيل: مصدر سابق، ص 64.

ونهب ممتلكاتها، كما ظفر بأمير الأوزبكي هناك، شيخم ميرزا، وقد أزعجت هذه الممارسات الأمير بابر فانسحب بجيشه معترضا على ما أقدم عليه نجم الثاني من انتهاكات وضغوط على السكان لإجبارهم على اعتناق المذهب الشيعي. وكان هذا تحولا كبيرا في مجرى الأحداث، فسرعان ما أطبق الأوزبكيون على نجم وجنوده، وقتلوا منهم أعدادا كبيرة، حدث هذا في معركة غجيدوان عام 918هـ /1512م، فيما عادت بقية قواته إلى خراسان[223] وقد كان لهذه المعركة نتائج مهمة للغاية على صعيد العلاقة الصفوية الأوزبكية، ومن تلك النتائج بروز التعصب المذهبي لدى الطرفين، فقد كان واضحا أن هذا المحرك لعب دورا كبيرا في الحروب الناشبة فيما بين الصفويين والأوزبك، كما أن تلك الهزيمة القاسية للجيش الصفوي شجعت الأوزبك على استئناف توسعهم في أقاليم إيران الشمالية الشرقية، وبخاصة خراسان، وهكذا في الوقت الذي كان فيه الشاه يعاني من تبعات هزيمته في جالديران انقضوا لاجتياح خراسان التي احتلوها سريعا وخربوا مدنها وعاثوا فسادا فيها، ثم استولوا على المناطق القريبة من هراة وحاصروا المدينة، لكنهم لم يحرزوا انتصارا واضحا، واضطروا إلى إخلاء خراسان مرة أخرى[224].

بعد وفاة الشاه إسماعيل ظن الأوزبك أن رحيله سيكون سببا في ضعف الصفويين، والواقع أن الشاه طهماسب رغم حداثة سنه التي راهن الأوزبك على أنها عامل ضعف الدولة الصفوية بعد وفاة إسماعيل كان قد أدرك أن الأوزبك باتوا هم التهديد الأكبر للدولة الصفوية، بعد الهدوء على الجبهة العثمانية، حيث كما أشرنا سابقا إلى أن السنوات الأولى من حكم طهماسب كانت قد شهدت على صعيد العلاقات الصفوية العثمانية هدوءا واضحا، بفعل انشغال الصفويين بأوضاعهم الداخلية ومواجهة التهديدات التي شكلها الأوزبك، بينما كان العثمانيون منهمكين بأعمال التوسع في أوروبا. ولهذا كان طهماسب وقادة القزلباش يضعون الخطط والتدابير لأجل القيام بحملة عسكرية كبيرة ضد الأوزبك، بيد أن الأوزبكيين بقيادة عبيد الله خان استبقوا ذلك ولهذا قرروا مباشرة العودة من جديدة لاحتلال خراسان، كما جهزوا جيشا جرارا من مدينة بخارى زحف صوب هراة، وقد قاوم الجيش الصفوي مقاومة شديدة واستعصى فتحها على المهاجمين وعادوا من حيث أتوا[225]. ثم استولوا على مشهد وأستر آباد. إن الحدث العسكري الأبرز في هذه الفترة كان قد تمثل في معركة سهل جام. ففي عام 1528م جهز عبيد الله خان جيشا كبيرا اشتركت فيه معظم عشائر الأوزبك، واتجه بهم إلى المنطقة الفاصلة بين أفغانستان وإيران، وهناك التقى بالجيش الصفوي في سهل جام في يوم العاشر من محرم 935هـ وانتهت المعركة الشرسة بين الطرفين بهزيمة الأوزبك وانتصار الشاه طهماسب، وقد لعبت التجهيزات العسكرية المتطورة التي دخلت للجيش الصفوي دورا فاصلا في تحقيق هذا الانتصار[226]. ولم يكن طهماسب متحمسا لاستغلال هذا النصر والذهاب بعيدا في عمق الأراضي الأوزبكية، فقد تجمعت عدة أسباب وراء صرف النظر عن دخوله تلك الأراضي، ومن هذه

(223) - نصر الله فلسفي: المصدر السابق.

(224) - محمد سهيل طقوش: المصدر السابق.

(225) - عباس الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق، ص 58.

(226) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 90.

الأسباب أنه لم يكن الاستيلاء على الأراضي الأوزبكية ذا مغزى كبير فقد رأى أن لاجدوى من ضم الأراضي المعادية له والتي يقطنها سكان متعصبون لمذهبهم السني.
وهكذا عاد إلى عاصمته قزوين ليتجه بعدها صوب العراق، عندها انتهز عبيد الله الذي وصل إلى سدة الرئاسة في بخارى غياب الشاه طهماسب وانشغاله بجبهة العراق، ليشن حربا جديدة على الأقاليم الشرقية للدولة الصفوية، فتوغلت قواته إلى هراة ومشهد وأستر آباد، وظلت تجوس في أرجاء خراسان أكثر من عام تدمر وتخرب[227]. وقد ارتكبت قوات عبيد الله مذابح وحشية بحق السكان الشيعة لاسيما في هراة، وطالت حملات التصفية تلك حتى بعض السنة من الأغنياء لأجل أخذ أموالهم[228]، استمر الصراع الصفوي الأوزبكي في عهد الشاه عباس الأول، وزاد من خطورته ما ظهر من صراعات داخلية في بلاط الحكم الصفوي والملابسات التي أحاطت بتقلد عباس لمقاليد الحكم. وكان الأوزبك بقيادة عبد الله خان الثاني يتربصون بالدولة الصفوية وينتظرون توفر الظروف المناسبة التي يمكنهم خلالها من انتصار عسكري على إيران. فجرت طوال سنوات مواجهات وأحداث ليست حاسمة، وفي عام 1011 قاد الشاه جنوده فدحر الجيش الأوزبكي ثم واصل زحفه باتجاه مدينة بلخ، لكنه فشل في دخول هذه المدينة بسبب تفشي الوباء بين جنوده، كما تعرض لهجمات شرسة من بدو الأوزبك القاطنين في الصحارى المحيطة بالمدينة، فاضطر إلى تركها وعاد من دون تحقيق هدفه[229]. ويمكن القول إنه بعد هذه الأحداث هدأت الجبهة الأوزبكية ولم تعد تشكل تهديدا كبيرا، ولأجل تأكيد هذا الوضع قام الشاه عباس بتغيير ديموغرافي من خلال نقل أعدد كبيرة من الأكراد السنة من كردستان إلى حدود خراسان الشرقية، واتخذ منهم حاجزا يقي المنطقة من ضربات الأوزبك في المستقبل[230]. عندما توفي الشاه عباس الأول تقلد الحكم بعده حفيده صفي، وكان ذلك في شباط 1629م، وفي عهد الشاه صفي بقيت العلاقات متوترة وعدائية مع قبائل الأوزبك، وبلغت فيها ذروة الغارات التي شنها الأوزبك لأجل النهب والسلب غاليا، وكان يشترك في كل غارة ما يربو على الثلاثين ألفا. واستمرت الأمور على هذه الشاكلة فى حلول القرن الثامن عشر الميلادي حيث تعرضت الدولة الصفوية المتهالكة إلى غزو من قبل قبائل الأفغان، وقد ساندها الأوزبك بخمسة آلاف مقاتل، وتمكنت من إقامة إمارة في مدينة هراة، أعقب ذلك حدوث ثورات متوالية في سائر أنحاء إيران، لتخط بعدها نهاية الدولة الصفوية التي استمرت لأكثر من قرنين.

تقييم العلاقات الصفوية مع دول الجوار

لقد اكتنفت العلاقات الصفوية مع الدول الإقليمية توترات متصاعدة استمرت حتى نهاية وجود الصفويين في حكم إيران، وقد ثارت هذه التوترات وتحولت سريعاً إلي صراعات عسكرية بفعل الاختلاف المذهبي والتعصب الطائفي، فقد لعب هذا العامل دوراً مؤثراً وخطيراً في العلاقات الخارجية للدولة الصفوية ولاسيما مع دولة المماليك والسلطنة العثمانية والأوزبك، ولم يكن هذا العامل بعيدا

(227) - المصدر السابق: ص 91.
(228) - عباس النوري وكمال السيد: ص61.
(229) - محمد سهيل طقوش: ص 162.
(230) - المصدر نفسه.

عن العلاقات القصيرة للصفويين بعد إنشاء الدولة مع الآق قوينلو في العراق كذلك، فاحتلال العراق الشيعي الذي يضم المقدسات والأضرحة العائدة للأئمة الاثني عشرية إنما كان العامل المذهبي أحد دوافعه بلا شك. أما السياسة المملوكية فقد تميزت خلال السنوات الأولى من ظهور الدولة الصفوية باتخاذ سبيل المراقبة والحياد بانتظار ما يفضي إليه الصراع العثماني - الصفوي، ثم ظهرت بوادر للتحالف في نهاية المطاف سرعان ما تحولت في أواخر أيام المماليك إلى رغبة حقيقية في التحالف العسكري بوجه العثمانيين، بيد أنها كانت رغبة متأخرة، ولهذا فإن النتيجة لم تكن في صالح المماليك الذين ألغت الدولة العثمانية وجودهم عقب المعركة الفاصلة في مرج دابق. إن العلاقة بين المماليك الصفويين يصح وصفها بالعلاقات الفاترة في الشطر الأكبر من مدة وجود الدولة المملوكية قبل زوالها نهائياً عام 1517م، تخللتها فترات من التواصل الذي اتسم بطابع ودي أحياناً وبطابع تحدّ ومشاكسات أحياناً أخرى. ويرى الباحث أن التأكيد على حضور العامل الديني المتمثل بالاختلاف المذهبي العميق بين الدولة الصفوية وجيرانها لايعني بطبيعة الحال إلغاء فواعل أخرى في هذه العلاقة، إذ يسهل بوضوح استخلاص أن الصراع الصفوي العثماني مثلا كان قد اتكأ على عاملين هامين هما: التنافس الطبيعي بين قوتين كبيرتين متجاورتين لم يكن باستطاعتهما الانسجام وذلك بفعل عوامل الرغبة في النفوذ والسيطرة والمصالح الاقتصادية أما العامل الآخر فهو الاختلاف المذهبي بينهما، والذي تم توظيفه من قبل السلطات الحاكمة، ويبدو من الاستعراض لمراحل العلاقات بين الجانبين أن السلاطين الأتراك بدءاً من سليم الأول وانتهاء بمراد الرابع كانوا يولون الجانب المذهبي اهتماماً كبيراً في توجيه سياساتهم الخارجية مع الصفويين، تؤكد الدكتورة نادية محمود مصطفى أن ثمة تياراً كبيراً من التحليلات يتفق على أن السبب الأساسي للصدام بين الطرفين هو ظهور الصفويين كقوة شيعية موجهة ضد الأغلبية السنية[231]. وهو بطبيعة الحال لا يمنع المبررات الأخرى كتعزيز نفوذهم الداخلي، ومواجهة المشاكل والاضطرابات التي حصلت في مراحل مختلفة وإن كان ذلك يبدو ذا أولوية متدنية. أما على الجانب الآخر فلم يستطع الحكام الصفويون الإفلات أيضا من ذات الهاجس، وإن كانوا أميل إلى السلام والاستقرار في أغلب الفترات، وربما يمكن ملاحظة أنهم تهاونوا بخصوص القضية المذهبية وقبلوا في بعض المعاهدات تلك الشروط التي تخص قضايا مذهبية محددة كتحريم سب الخلفاء برغم أنها كانت بلا شك تسبب غضبا وعدم ارتياح في المؤسسات العسكرية والدينية والرأي العام داخل الدولة، كما أن طبيعة هذه العلاقة والعوامل الفاعلة فيها ألقت بانعكاساتها على طبيعة العلاقة بين الصفويين والدول الأوروبية المسيحية كما سيأتي ذلك مفصلاً في الفصل القادم بمشيئة الله.

---

(231) - أ.د. نادية محمود مصطفى: خبرة العصر المملوكي، من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، منشور الكتروني، مركز الحضارة للدراسات السياسية، ص34.

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية للدولة الصفوية مع أوروبا

لقد ارتكزت العلاقة بين الدولة الصفوية والدول الأوربية ومن بينها روسيا على ذات المحددات القائمة حتى اليوم فيما يختص بأهمية إيران، من ناحية الموقع الجغرافي وتأثيره في طرق التجارة الدولية ومحطاتها ومراكزها منذ القديم، ومن ناحية الثقل الإقليمي الذي شكلته الدولة الصفوية كمنافس قوي للعثمانيين، الذين شكلوا بدورهم تهديدا خطيرا لأوروبا بعد سقوط القسطنطينية العاصمة المسيحية الشرقية عام (857 هـ / 1453م)، وسنعمل في هذا الفصل على عرض علاقات الصفويين مع كل من الدول الأوربية وروسيا القيصرية، واخترنا من الدول الأوربية كلا من البرتغال وإسبانيا وإنكلترا وهولندا، وبحسب تسلسلها التاريخي، لما تميزت به علاقتها مع هذه الأطراف من فاعلية وتأثير في المنطقة آنذاك، محاولين إلقاء الضوء على طبيعة هذه العلاقات وتطورها والفواعل المتحكمة فيها. ومدى التأثير الذي خلقه الوضع الجديد المتمثل في الصفويين كقوة جديدة ظهرت في العالم الإسلامي وعلى خلاف مع العثمانيين، من بروز اختلافهما المذهبي، حيث حرص كل من الطرفين على ترسيخ زعامته وتمثيله للمذهب الرسمي الذي تعتنقه الدولة. وبطبيعة الحال فلن ينفك حديثنا عن تتبع مسارات هذه العلاقات عن الملمح الأبرز في تطوراتها وهو الجانب العسكري والاقتصادي، ودوافع الأوروبيين في دخول المنطقة والذين انتهجوا في أغلب المراحل التاريخية سياسة حاولوا من خلالها ضمان أقصى قدر من المصالح الاقتصادية والنفوذ السياسي في المنطقة، من غير أن يبدو واضحا أنهم بصدد التحالف الاستراتيجي مع أي من الطرفين ضد الآخر.

سنعرض في الصفحات القادمة المسارات وتطورات الأحداث وطبيعتها التي اكتنفت العلاقة الأوروبية مع الصفويين، بغية الوصول إلى تصور واضح حول تأثير العامل المذهبي للدولة الصفوية في هذه العلاقات، ولايمكن بطبيعة الحال تقصي تأثير هذا العامل إلا من خلال عرض الوقائع والأحداث التي اتسمت بكونها غالبا أحداثا سياسية وعسكرية. حيث يرى الباحث أنها الطريقة الوحيدة لفهم ما جرى في تلك الفترة المهمة من تاريخ المنطقة والعالم. ومن خلال الوصول إلى إجابات وتصورات حول ما يأتي:

- الأسباب التي دفعت الدول الأوربية للتواجد في منطقة الشرق الأوسط والخليج، وطبيعة المصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية من وراء ذلك التواجد .
- دوافع الأوربيين في إقامة علاقات مع الصفويين.
- دوافع الدولة الصفوية للتحرك باتجاه الدول الأوربية.

إن الوقوف على كل ذلك يعني بلا ريب وقوفا على العوامل والمؤثرات التي حكمت العلاقة الصفوية - الأوربية، وبالتالي تقدير مدى تأثير الفارق المذهبي الذي اتصفت به الدولة الصفوية نقيضا للعثمانيين.

المطلب الأول

علاقات الدولة الصفوية مع البرتغال

لقد كان للصفويين علاقات سياسية وتجارية مع الدول الأوروبية، ابتدأت منذ اللحظة التي امتد فيها النفوذ الأوروبي إلى الخليج والمحيط الهندي بحثا عن طرق ملاحية بديلة عن تلك التي كانت بقبضة المسلمين من الأتراك والمماليك. ولابد لكي نفهم بصورة أعمق مبررات تلك العلاقة وطبيعتها أن نتعرف على الأسباب التي دفعت أوروبا إلى التوجه صوب هذه المنطقة بعد أن كانت بعيدة عنها.

طرق التجارة بين أوروبا والشرق

كانت التجارة بين أوروبا والشرق تسير عبر ثلاثة طرق رئيسة، أولاً الطريق البري عبر آسيا الوسطى مرورا بإيران ومن ثم عبر العراق إلى حلب ومنها إلى موانئ البحر المتوسط، ولكن هذا الطريق كان عرضة للإغلاق بسبب كثرة الحروب في فترات مختلفة، لهذا كان التركيز جاريا على الطريقين الآخرين، إما عبر الخليج ومن ثم إلى نهر الفرات وصولا إلى حلب ومنها إلى شرق البحر المتوسط حيث تصل من هناك إلى أوروبا، أو عبر البحر الأحمر صعودا إلى السويس ومنها إلى القاهرة براً أو عبر قناة صغيرة باتجاه الإسكندرية ثم يتلقفها التجار الأوروبيون، وكلا هذين الطريقين يعنيان أن التجارة كانت بقبضة المماليك الذين يحكمون مصر وسوريا حتى منتصف العقد الثاني من القرن السادس عشر. وقد جنوا فوائد مالية ضخمة عبر فرض الضرائب واحتكار بعض السلع، ولهذا كان لاكتشاف البرتغاليين لطريق تجاري جديد مع شرق آسيا أن ترك آثارا اقتصادية هائلة تزامنت معها أزمات واضطرابات سياسية وانتشار الأوبئة وحتى انخفاض مناسيب النيل، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انهيار حكم هؤلاء المماليك[1]، وعلى أية حال فإن هذه الطرق الثلاثة كانت جميعها مهددة إثر اندفاع الدولة العثمانية بعد سقوط القسطنطينية غربا باتجاه وسط وشرق أوروبا، ثم مد حدودها بعد ذلك إلى البحر الأسود وإيران شرقا، وقد عمدت في تحركاتها العسكرية إلى سد الطرق التجارية لدواع أمنية، مما أثر فعلا في التجارة وطرقها بين آسيا وأوروبا[2]. وهكذا فقد كانت السفن التجارية لأوروبا تتعرض بين حين وآخر لاعتراضات واعتداءات الأسطول العثماني بداية من القرن الخامس عشر الميلادي، تبعا لتوتر العلاقات بين البندقية والباب العالي، لكن لم يؤد ذلك إلى حدوث انقطاعات طويلة الأمد في الحركة التجارية تضطر معها البندقية أن تتخلى عن علاقاتها بالبلاد الواقعة وراء الدردنيل[3]، إن سقوط القسطنطينية وتمدد النفوذ العثماني جعل التجارة الأوروبية تتحول تماما إلى موانئ مصر والشام والبحر الأحمر، ولكن لم يكن ذلك مُرضيا تماما للأوروبيين بسبب وقوع هذا الطريق بيد المماليك الذين يحكمون هذه المنطقة ويجنون من وراء سيطرتهم على طرق التجارة عبر الخليج والبحر الأحمر أموالا طائلة.

(1) - د. فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط في القرن السادس عشر، دار المعارف، ط2، الصفحات من 51 إلى 55.

(2) - د. نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى المكتبة العربية، طبعة 1972، ص 9.

(3) - ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة الدكتور أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994م، ج3 ص142.

بروز العامل الديني

كان البرتغاليون أول من وصل من الأوروبيين بسفنهم الحربية إلى منطقة الخليج وبحر الهند، وذلك في خضم البحث عن طرق جديدة للملاحة والتجارة مع الهند وشرق آسيا والسيطرة على طرق التجارة العالمية، وقد بدأ هذا الوجود البرتغالي في هرمز عام (1622م)، وانتهى في مسقط عام (1655م).[4] وقد أثير بعض الجدل بين الباحثين حول السبب الحقيقي الذي حدا بالبرتغاليين إلى مخر البحار والمضي فيما وراء أفريقيا، ويمكن الإشارة هنا إلى جملة تلك الأسباب وراء هذا الاندفاع، وهي:

1. اهتمامهم الكبير بالكشوف الجغرافية فيما وراء البحار، ويعود هذا إلى النمو الاقتصادي وتوسيع رقعة النفوذ وتصاعد الشعور القومي، وهو أمر بدأ في القرن الخامس عشر بعد الانتصارات التي تحققت على المسلمين في الأندلس وانتهت بطردهم منها[5].

2. العامل السياسي والاقتصادي من خلال الرغبة في امتلاك طرق تجارية بديلة عن تلك التي بيد المماليك في مصر وسوريا ومناطق النفوذ العثماني، وصولا إلى فرض النفوذ على الهند نفسها. إن البحث عن طريق تجاري بعيد عن سيطرة العثمانيين والمماليك من العوامل المهمة التي تأرجح الدارسون بينه وبين العامل الديني في جعله سبباً رئيساً للجهود البرتغالية، حيث كان طريق الخليج الفارسي وطريق البحر الأحمر الطريقين الوحيدين للتجارة مع الهند، بيد أنه ما لبث أن ملَّ الغرب الأوروبي من التعامل مع المماليك بسبب كثرة الضرائب وارتفاع رسوم الجمارك وقوة الاحتكارات، مما دفع الأوروبيين إلى البحث عن طريق آخر أكثر أمنا وأقل كلفة، ووقع هذا العبء على عاتق البرتغال، فاندفع بحّارتها يدورون حول أفريقيا ويندفعون إلى الهند، وهكذا كان وصول البرتغاليين بحرا إلى الهند قد أدى إلى أن أخذت تجارة الشرق الأقصى وأرباحها الهائلة تتحول من مصر والشام وموانئهما إلى أوروبا بالطريق البحري الجديد وبكميات متزايدة وأسعار معتدلة[6]. ولا يبدو أن هذا العامل هو الدافع الرئيس في نظر بعض الدارسين والمؤرخين، فامتداد النفوذ العثماني إلى آسيا الصغرى وحوض البحرالمتوسط ليس سببا جوهريا في بحث أوروبا عن طريق تجاري يربطها مع الهند، بسبب أن العثمانيين كانوا قد أبرموا اتفاقيات عدة مع الأوروبيين كالبندقية وجنوة وغيرهما لتسهيل عبور التجار واستيراد السلع التجارية من الهند، فقد أبرمت بين الأتراك والبندقية في (18 إبريل 1454م) اتفاقية كان المفهوم منها ضمنا أن سفن البندقية تستطيع أن تدخل ميناء القسطنطينية وتخرج منه دون صعوبات أو مضايقات، وهذا أيضا ما منحته معاهدة (1479م) من حرية عبور الدردنيل والبسفور دون عائق، رغم أنه مما لا ينكر هو أن الأتراك كانوا فخورين بتفوقهم العسكري الأكيد ويعاملون التجار الأجانب بكل وقاحة وغطرسة[7].

3. حضور العامل الديني وتزايد الرغبة في نشر المسيحية خارج أوروبا وبشكل خاص داخل البلاد التي يقطنها المسلمون، وهي فكرة ازداد الحماس لها في القرن السادس عشر، ويبدو أن الكنيسة الكاثوليكية

---

(4) - د. محمد حسن العيدروس: سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي، دار المتنبي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة الإماراتية، الطبعة الأولى، ص 8.

(5) - د. فاروق عثمان أباظة، مرجع سابق، ص 37.

(6) - د. نعيم زكى فهمى، مرجع سابق، ص 11.

(7) - ف. هايد، مرجع سابق، الصفحات: 177، 178، 179.

قد أيدت هذا التوجه وأسبغت عليه رعايتها، ففي عام (859هـ/ 1454م) أصدر البابا نيقولا الخامس منشورا يبارك فيه جهود الأمير هنري الملاح - الذي يعود إليه الفضل في تنظيم الرحلات البحرية لاكتشاف ممرات وأراض جديدة ومنها رأس الرجاء الصالح وإلا فهو نفسه لم يكن بحارا - ويعطيه الحق في أن يغزو جميع الشعوب والأقاليم التي يسودها أعداء المسيح. والواقع أن أغلب الأدلة التاريخية المتوفرة تشير إلى قوة حضور العامل الديني، كواحد من المحركات الأساسية وراء الكشوف الجغرافية التي حققتها البرتغال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وأبرزها اكتشاف الطريق البحري إلى الخليج والهند عبر السواحل الجنوبية للقارة السوداء. فمنشور البابا نيقولا الذي أشرنا إليه لم يكن التشجيع الوحيد من الكنيسة، فقد أصدر البابا كاليكستوس الثالث سنة (861هـ/1456م) مرسوما آخر بنفس المعنى، تضاف إليه ثلاثة مراسيم أصدرها البابا اسكندر الثالث سنة (899هـ/ 1493م)[8]. كما أن التحركات البرتغالية قبل اكتشاف الطريق البحري الجديد خلف أفريقيا باتجاه الهند، وتحديدا بعد سقوط القسطنطينية، كانت جميعها تستند إلى غطاء شرعي من البابا، ففي الثامن من يناير عام (858هـ / 1454م) أي بعد عام واحد من سقوط القسطنطينية، أصدر نيقولا الخامس براءة بأحقية التاج البرتغالي في امتلاك سبتة المغربية، ومنها انطلقت واستمرت الحملات البرتغالية في استكشاف الساحل الغربي لأفريقيا[9]. فيما أن ملك البرتغال أعلن بكل وضوح أن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق[10]. كما أن الحديث عن الغطرسة العثمانية وجشع المماليك باعتباره سببا في دفع الأوروبيين للبحث عن طرق ملاحية وتجارية أخرى لايمكن فصله عن شعور الأوروبيين بأنهم يتعاملون مع أعدائهم المسلمين آنذاك. هذا العداء الذي ترسخ بقوة منذ القرن الحادي عشر حيث الحروب الصليبية التي رفع فيها الأوروبيون شعار القضاء على الإسلام ونشر المسيحية باعتبارها الدين الذي يجب أن يسود كل بقاع الأرض، ولهذا كان الإسلام بالنسبة لأوروبا يمثل رقما في قائمة الأعداد الطويلة، أولئك الذين يتهددون المسيحية من كل ناحية، ولم يكن هؤلاء على استعداد للتمييز بين وثنية الأوروبيين الشماليين وتوحيد الإسلام، ولم يكن الإسلام يفترق بالنسبة لهم عن المانوية التي واجهتها المسيحية قديما[11]، والحقيقة أن موقف الأوربيين - ولاسيما البرتغاليون الذين خاضوا معارك عنيفة مع مسلمي الأندلس - وأفكارهم حول الإسلام في بداية القرون الوسطى كانت جميعها أسبانية المنشأ، ومعتمدة في قدر كبير منها على ما كتبه إيزيدورالإشبيلي[12].

وبرغم سقوط الأندلس وانتزاعها من المسلمين إثر استرداد غرناطة عام (1492م) فإن الموقف العدائي والحماسة المسيحية لم تفتر أوتتراجع، وتبدو لنا الصلة واضحة بين هذه العلاقة العدائية والخوف من المسلمين من جهة، والرغبة في الاكتشافات الجغرافية والسيطرة على البحار من جهة أخرى، من خلال

(8) - نوال حمزة يوسف، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الدراسات الإسلامية، الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 1980م، ص 56 و57.

(9) - د. فاروق عثمان أباظة، مرجع سابق، ص 38

(10) - علي محمد الصلابي: مصدر سابق، ص 193.

(11) - ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ترجمة: رضوان السيد، دار المدار، ص 51.

(12) - المرجع نفسه: ص 55.

رغبة أشهر الملاحين الأوروبيين في مهاجمة المسلمين في عقر دارهم، فقد أرسل البحار الشهير كريستوفر كولومبس رسالة إلى الملكين فريندادا وإيزابيلا عام (1501م) يحضهما على مهاجمة المسلمين عبر البحر وإنزال الهزيمة بهم[13]. وقد استعر هذا العداء والكراهية إلى أقصى حدودها بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح. يدحض المؤرخ الفرنسي رولان موسينيه الرأي القائل بأن ما دفع الأوروبيين للوصول إلى رأس الرجاء الصالح هو الابتعاد عن الطرق التجارية المعتادة التي وقعت بيد العثمانيين، الذين أعاقوا تجارة التوابل فأخذت تشح بشدة في البلدان الأوروبية، حيث يرى رولان أن حروب الأتراك قد شوشت التجارة أحيانا، ولكن الأتراك أنفسهم لم يقفوا موقفا عدائيا من التجارة مع الغربيين. فقد جددوا تكرارا وبكامل رضاهم المعاهدات التجارية مع حكومتي البندقية وجنوة، وتقيدوا بما كانت تنص عليه وحافظوا على حرية طرق القوافل المارة في بلاد فارس والطرق البحرية في الخليج العربي والبحر الأحمر، وما إن فتح سليم الأول مصر عام (1517م) حتى بادر إلى تجديد المعاهدات التي كان المماليك قد عقدوها مع البندقية، بل قام بتخفيض الرسوم التي كان يفرضها المماليك من (10% إلى 3%)[14]. ثم يختصر رولان دوافع البرتغاليين في ثلاث كلمات هي: الإنجيل والمجد والذهب[15]. ومع هذا فإن إسقاط العامل الاقتصادي لايبدو منطقيا، مع شدة حضور العامل الديني، ويتضح لنا ذلك من الرسالة التي وجهها الملك البرتغالي إلى البابا يوليوس الثاني عام (1505م)، والتي قال فيها إنه ليس عازما على قتل التجارة المملوكية فقط، بل إنه سيجاهد في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفا لمدافعه وجنوده.[16]

فرصة البرتغاليين في زرع الانقسام داخل العالم الإسلامي

لقد كانت التجارة في المحيط الهندي حتى القرن الخامس عشر مقتصرة على الدول التي لها سواحل تطل عليه، كالعرب والفرس والهنود والصينيين والأفارقة، ولم يحدث أن شاركت في هذا النشاط أية دولة خارج نطاقه عدا مصر لدورها المؤثر في حركة التجارة العالمية[17]. ولكن انتهى هذا الأمر بوصول البرتغاليين ومحاولتهم الاستيلاء على كل الموانئ التي تقع في طريقهم الجديد عبر رأس الرجاء الصالح من أفريقيا حتى الهند، وقد كان وصول البرتغاليين هذا إلى المنطقة هو بداية العلاقة مع الدولة الصفوية. يرتبط الغزو البرتغالي للخليج بالقائد البحري الفوسنو دي البوكيرك Albuquerque Alfonso de، حيث أبحر إلى الخليج في سبع سفن وأربعمائة وستين محارباً، وقد وصل إلى قلهات - الميناء العماني الرئيسي آنذاك - في أغسطس سنة (1507م) بعد أن مر على الساحل العماني ودمر العديد من الموانئ والسفن، وكان من المخطط أن يستولي على عدن لكنه عجز عن ذلك فقرر التوجه إلى جزيرة هرمز الواقعة على مدخل الخليج، وقد كانت هرمز مملكة تدفع الخراج للدولة الصفوية كما كانت تدفعه من قبل

(13) - د. صدفة محمد محمود: التطور التاريخي لدور الدين في العلاقات الدولية، بحث منشور، 2010 ص 28.

14 - رولان موسينيه: تاريخ الحضارات العام - القرنان 15 و16، ترجمة: يوسف داغر وفريد داغر منشورات عويدات، بيروت، ج-4 ص 422.

(15) - المرجع السابق، ص424.

(16) - مصطفى محمد زيادة: مصر والحروب الصليبية، ص 16.

(17) - د. شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية (904-41 هـ 1498-661 م)، إصدارات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت 1978، ص 35.

للأنظمة والسلاطين الذين حكموا إيران، وهي عبارة عن مدينة يتجاوز عدد سكانها أربعين ألف نسمة، يتمتعون بمستوى عالٍ من الرفاهية والثراء الفاحش، إلى درجة أن شوارع المدينة مفروشة بالسجاجيد، ويرتدي أهلوها الملابس القطنية والحريرية ويشربون الماء بأوانٍ من الفضة وكانت مصدرا لشراء أجود الخيول في العالم[18]، ولهذا كانت مملكة هرمز أقوى وأغنى كيان محلي قائم في المنطقة منذ القرن الحادي عشر الميلادي، إلا أنها وقبيل الغزو البرتغالي عاشت أوضاعا سياسية غير مستقرة بسبب الصراعات بين أفراد أسرتها الحاكمة، الأمر الذي شجع القبائل العربية المنتشرة على طول السواحل الشرقية للجزيرة العربية على التخلص من التبعية لهرمز[19]. وحين وصل البوكيرك مع سفنه تردد أولًا في محاولة احتلالها لما كان من فارق بين عدد سفنه وسفن هرمز وعدد مقاتليها الذين فاقوا الثلاثين ألف مقاتل كان بعضهم من المرتزقة الذين جاؤوا من إيران والمناطق العربية في الجزيرة، لكنه في نهاية المطاف تمكن من هزيمتهم بفضل الأسلحة النارية المتطورة، وعليه فقد أصبحت هرمز تابعة للتاج البرتغالي، ورفع فوقها العلم البرتغالي، ودفعت غرامة حربية وتقرر دفع خراج سنوي للبرتغاليين، بعد بضعة أشهر من ذلك طالب الشاه إسماعيل الأول بالخراج السنوي من أمير هرمز، وعندها أرسل البوكيرك رسالة إلى الشاه عبر مبعوث هرمز يعلمه بأن هرمز مملوكة للتاج البرتغالي، وليس من حق أميرها دفع الخراج لغير جلالة الملك إيمانويل، وإلا تم خلعه وإجلاس شخص آخر لا يخشى ملك إيران، وقد أرسل مع هذه الرسالة بيد المبعوث إلى الشاه عددا من طلقات المدافع والبنادق والبارود موصياً أمير هرمز بدفعها للشاه بدلا من الخراج، لأن ملك البرتغال أمرنا بأن لانجيب الأعداء إلا بمثل هذه الأشياء. وبعد أن أنتهي من قلعة هرمز سوف أهجم على السواحل الفارسية ونستولي على كل موانئها وبلدانها الساحلية التي تخضع الآن للشاه إسماعيل ونضمها لاسم ملك البرتغال [20]. وتعكس هذه الرسالة التي أرسلت عام (1507م) النوايا الحقيقية للبرتغاليين في مد نفوذهم وسيطرتهم على هذه المنطقة، كما لايبدو أنهم يحتفظون بأي فارق في أذهانهم حتى تلك اللحظة بين الصفويين والعثمانيين، ونظروا إليهم نظرة واحدة على السواء من كونهم مسلمين وحسب، خاصة وأن ظهور الدولة الصفوية كان حديثا في ذلك الوقت ولم يمضِ عليه سوى بضعة سنوات. لكن هذه اللهجة البرتغالية الشديدة لم تستمر طويلا، ففي عام (1509م) أرسل البوكيرك وهو في الهند بيد مبعوثه روي جومير رسالة هادئة متوددة إلى الشاه الصفوي، جاءت فيها العديد من العبارات التي يجب التوقف عندها[21]. حيث تبدأ الرسالة بمخاطبة الشاه إسماعيل بالسيد العظيم جداً ذي القوة والسلطة بين المسلمين الشاه إسماعيل.

---

(18) - إبراهيم بشمي: هرمز الفقاعة الذهبية، مؤسسة الأيام للطباعة والنشر، ص30 و 31 و 32.

(19) - علي بن ابراهيم الدرورة: تاريخ الاحتلال البرتغالي للقطيف، المجمع الثقافي في ابوظبي 2001م، ص 184.

20 - نصر الله فلسفي: إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي، ترجمة: محمد فتحي يوسف، دارالثقافة للطباعة والنشر في القاهرة، 1989م، ص 13.

21 - نشرت هذه الرسالة ضمن ثلاث وثائق تاريخية تتعلق بالفونسو دي البوكيرك، وقد ترجمها إلى الانجليزية عن النسخ البرتغالية المنشورة عام 1774 الدكتور والتر جراي برش، كبير الخبراء في قسم المخطوطات والوثائق في المتحف البريطاني، ونشرت في كتاب تحت عنوان: (The commentaries of the great Alfonso Dalboquerque, second viceroy of India) عن دار The Hakluyt Society في لندن، وتوجد من الكتاب نسخة مصورة على الشبكة العالمية للمعلومات اعتمدنا عليها لمقارنة النص العربي الذي نشرته مجلة عالم المخطوطات والنوادر في المجلد الخامس، العدد الرابع، لأشهر إبريل - سبتمبر (2000م)، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، جامعة الملك سعود، الرياض، ص 260 و261.

ثـم يشيـد البوكـيرك بقـوة وسـيادة ملـك البرتغـال، وتؤكـد الرسـالة بعـد ذلـك أن لملـك البرتغـال رغبـة في التعـاون مـع الشـاه، حيـث تقـول الرسـالة: «إننـي أخـبرت بـأن سـيدي ملـك البرتغـال سـيكون مـسرورا للتفاهـم معكـم والتشـاور معكـم والدخـول معكـم في أمـور مشـتركة». وفي مقطـع آخـر يذكـر البوكـيرك مـا يـلي: « ستحاط علـما بشـكل جيـد كيـف حصلـت عـلى هرمـز، وكيـف أنـه مـن ذلـك الوقـت فصاعـدا عملـت عـلى الحصـول عـلى معلومـات عـن ملككـم وقوتكـم وقيادتكـم ورغبـت في إرسـال مبعوثـين لـك». والحقيقـة أن هـذا المقطـع يوضـح بجـلاء أن القائـد البرتغـالي قبـل وأثنـاء احتلالـه لهرمـز لم يكـن يملـك معلومـات كافيـة عـن طبيعـة الدولـة الصفويـة، بـل بـدأ بالتعـرف عـلى طبيعـة حكـم الصفويـين بعـد احتـلال الجزيـرة. وتضيـف الرسـالة فقـرة تعـد تراجعـا عـن التهديـد السـابق في رسـالة البوكـيرك الأولى، وهـذه الفقـرة هـي: «سـأعمل عـلى الالتقـاء بـك عـلى سـواحل مملكتـك وفي موانئهـا، لأن الصلاحيـات التـي خولنـي إياهـا سـيدي الملـك عـلى السـفن والبحـارة إنمـا هـي لتدمـير سـفن السـلطان وإخراجهـا». وتمـضي الرسـالة بالقـول: «وحيـث أننـي أخـبرت بـأن السـلطان عـدوك ويشـن الحـرب ضـدك فقـد أرسـلت إليـك هـذه الأخبـار، عارضـا عليـك أن أكـون أنـا وأسـطولي ورجـال سـيدي الملـك ضـده لندمـره، وسأشـن الحـرب ضـده عندمـا تطلـب منـي ذلـك». بيـد أن مـا أوصى بـه البوكـيرك مبعوثـه روي جومـير تضمـن قضايـا لافتـة أكـثر مـما ورد في الرسـالة، حيـث طلـب مـن جومـير أن يقـول للشـاه إسـماعيل عـلى لسـانه إنـه قـد بعثـه لشـهرته الفائقـة وعظمـة سـيادته وشـدة نفـوذه وتأثـيره وصفاتـه الحسـنة وشـمائله العظيمـة، ولأنـه يـأوي المسـيحيين ويسـبغ عليهـم تشريفـا ويغمرهـم بمآثـره [22]. وفي الوصيـة أيضـا أنـه عندمـا يهـب ويهاجـم الكعبـة - أي الشـاه - ليتملكهـا فسـوف أدخـل البحـر الأحمـر وأتجـه بأسـطولي إلى مينـاء جـدة، وسـأفعل الـشيء نفسـه إذا رغـب في اجتيـاح شـبه الجزيـرة العربيـة، وبحـرا عـلى سـواحل شـبه الجزيـرة والبحريـن والقطيـف والبـصرة، وسـأفعل كل شيء أقـدر عليـه لأجلـه.

إن هـذه الفقـرات تثبـت حقيقـة أن البرتغاليـين قـد اسـتوعبوا شـدة الخـلاف الدينـي المذهبي بـين العثمانيين والصفويـين، وراهنـوا عـلى إمكانيـة الاسـتفادة منـه لتعزيـز نفوذهـم في المنطقـة، فوصيـة البوكـيرك حاولـت التركيـز عـلى قضايـا مـن مثـل احـترام المسـيحيين وتقديرهـم مـن قبـل الدولـة الصفويـة، في إشـارة ضمنيـة إلى سـوء تعامـل العثمانيـين مـن منطلـق دينـي مـع المسـيحيين في مناطـق أوروبـا التـي خضعـت لنفـوذ الأتـراك. كـما ثمـة تشـجيع للشـاه عـلى احتـلال الكعبـة التـي تعتـبر الرمـز المركـزي الإسـلامي، وإن السـيطرة عليهـا لـه دلالاتـه الكبـيرة وأهمهـا إن مـن يفـرض السـيطرة عليهـا يعـد ممثـلا للمسـلمين وقوتهـم. فقـد كانـت مفاتيـح الكعبـة حينهـا بيـد الحاكـم المملـوكي المـصري الـذي يعتـبر امتـدادا حتـى ذلـك الوقـت للحكـم العبـاسي الشرعـي، ولهـذا فبعـد احتـلال العثمانيـين لمـصر أصبحـوا لأول مـرة وبشـكل رسـمي أصحـاب السـلطة الدينيـة والدنيويـة في العـالم الإسـلامي، بعـد أن اسـتلموا الآثـار النبويـة مـن الرايـة والسـيف والـبردة فضـلا عـن مفاتيـح الحرمـين الشريفـين [23].

وبـلا شـك فـإن مثـل هـذه القضيـة البالغـة الأهميـة كان البرتغاليـون عـلى علـم بهـا، وقـد بـدأت تتكشـف لهـم طبيعـة العلاقـة بـين الصفويـين والعثمانيـين وطابـع الـصراع الدينـي - المذهـبي بينهـما.

(22) - المصدر السابق. الوثيقة الثانية، وانظر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المرجع السابق، ص 263.

(23) - رزق الله منقريوس الصرفي: تاريخ دول الإسلام، دار الهلال مصر، 1325هـ/1907م، الجزء الثالث، ص114.

إذاً توحي هذه الرسائل بأن البرتغاليين فهموا أن ثمة تباينا كبيرا بين الصفويين والأتراك، وعليه فقد أرادوا بهذه الرسالة أن يستغلوا هذا الفارق وفق ما فهموه من تباين ضروري في العقيدة الدينية، لكل من الصفويين والأتراك، إن بعض الأدبيات العربية تجتزئ من تلك الوثائق البرتغالية بعض الفقرات للدلالة على وجود خطة متفق عليها بين البرتغاليين والصفويين لأجل تقاسم النفوذ والسيطرة على العالم الإسلامي منذ لحظة وصول السفن البرتغالية إلى المنطقة ، بل وتميل بعض الدراسات المنشورة إلى تقديم زمن هذه الرسالة على أحداث احتلال جزيرة هرمز لإثبات أن ثمة علاقة مسبقة بين الصفويين والقائد البرتغالي البوكيرك، وهو ما لاتؤيده الدلائل والمعطيات التاريخية ومجرى الأحداث، وعلى كل حال لم يستطع البرتغاليون البقاء في هرمز إلا لعام واحد بعد تمرد الجند على القائد البوكيرك الذي اضطر إلى الذهاب إلى الهند، وهناك وصله سفير الشاه إسماعيل الأول وعقدت معاهدة تفاهم مبدئية بين الطرفين، كما أن مملكة هرمز عادت لتخضع لحماية الدولة الصفوية وامتنعت من إعطاء الخراج للبرتغاليين سنة (1513م)، الأمر الذي دفع القائد البوكيرك للعودة والاستيلاء عليها بعد عامين. وأصبحت تابعة من جديد للتاج البرتغالي، وقد دفع اعتقاد الشاه إسماعيل بتفوق البرتغاليين وإمكانية التعاون العسكري معهم إلى إرسال مبعوث جديد لعقد اتفاقية جديدة، وقد نصت بنود هذه الاتفاقية التي جرت عام (1515م) على جملة من البنود التي تحدد لنا إطارا للصراع الدائر في المنطقة والضغوط التي أملت على الملك الصفوي السعي إلى هذا الاتفاق الذي توفر على ما يأتي:

أ. أنْ تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الصفوية في إخماد الانقلابات التي تحدث على سواحل بلوشستان ومكران.

ب. تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة في غزوها للبحرين والقطيف.

ت. تتحد الحكومة البرتغالية والصفوية في حربهما ضد الأتراك العثمانيين.

لقد كانت هذه الشروط[24] في مقابل أن تتخلى الدولة الصفوية عن مملكة هرمز الثرية وذات الموقع الاستراتيجي المميز. إن هذه الاتفاقية التي اتسمت بطابع اتفاقية تحالف عسكري استراتيجي بين الجانبين كان لها ما يبررها، فمن جانب السلطة الصفوية تقف عدة عوامل وراء موافقتها والسعي إليها وهي:

إنها جاءت بعد وقت قصير من سقوط تبريز بيد العثمانيين، حيث انهزم فيها الشاه إسماعيل، وتوسع النفوذ العثماني في مناطق غرب إيران والسيطرة على كردستان العراق. ولهذا رأى الشاه أنه في موقف أضعف من أن يضع حدا للنفوذ البرتغالي ويقف بوجهه في الخليج، خاصة وأن الدولة الصفوية لم تكن تمتلك قوة بحرية مناسبة. بل بمرور الوقت ومع ازدياد خطر العثمانيين على الدولة الصفوية وتوسع نفوذهم لم يكن للحكم الصفوي من خيار سوى التقارب مع الدول الأوربية بشكل عام، خاصة وأن العثمانيين انحرفت بهم بوصلة الأطماع التوسعية من الغرب إلى الشرق، وهو ما تسبب بضعف الطرفين - العثماني والصفوي - مقابل الدول الأوروبية.

استباق الخطوة العثمانية القادمة في ضم مصر والأراضي الواقعة تحت حكم المماليك، خاصة مع بدء

(24) - نصر الله فلسفي، مصدر سابق: ص 14، ومحمد سهيل طقوش:مصدر سابق، ص 84.

تواصل المماليك مع الدولة الصفوية بعد معركة جاليدران عام (1514م).[25] ففي تلك الأثناء رفضت إحدى الإمارات المملوكية في بلاد الشام تسهيل مرور القوات العثمانية وتزويدها بالسلاح وهي في طريقها لخوض معركتها مع الجيش الصفوي، ما دفع العثمانيين إلى غزوها وقتل حاكمها الذي أمر أيضا أتباعه بألا يبيعوا للقوات العثمانية المأكل أو يمدوهم بالماء وغير ذلك [26]. والحقيقة أن ظهوربوادر تحالف صفوي - مملوكي هو ما دفع السلطان سليم الأول إلى تجهيز جيشه الجرار وغزو مصر (1516م) بيد أن هذه الاتفاقية السابقة لم يجر تنفيذ بنودها، خاصة بعد أن توفي البوكيرك في العام نفسه بعد عودته إلى الهند. لكن من جانب آخر استمرت العلاقات التجارية بين الصفوية والبرتغال والأوروبيين عامة، لاسيما بعد أن فرضت الدولة العثمانية سيطرتها على الطريق الشمالي عقب معركة تبريز، ما اضطر التجار الإيرانيين إلى تحويل طريقهم باتجاه الموانئ الجنوبية، وقد اعتقد الأوروبيون والحال هذه أن الدولة الصفوية لها أن تمثل نقطة حراسة ومراقبة للطريق التجاري مع الهند[27]، وهو خيار أوروبي تبرره حالة العداء والصراع المتصاعد بين العثمانيين و الصفويين.

مرحلة العلاقات السياسية الفاترة

استمر البرتغاليون في سعيهم لجذب الصفويين إلى جانبهم كحلفاء في المنطقة للتصدي للمد العثماني، خاصة بعد احتلال مصر والقضاء على الحكم المملوكي عام (1516م)، والحقيقة أن ذلك كان مسعى الدول الأوروبية كالبندقية والبرتغال وإسبانيا، فقد أدى انشغال السلطان سليم في الجبهة الشرقية إلى تخفيف الضغط العثماني نسبياً عن الدول الأوروبية، ولهذا سعت إلى تثبيت عرى صداقتها مع الصفويين عبر اتفاقيات سياسية واقتصادية استفاد منها الشاه في توظيفها لصالحه وتوسيع سيطرته في المناطق الغربية لإيران[28] لدرء مخاطر التوسع العثماني، وإصرار الأتراك على مد نفوذهم في كل اتجاه. لكن هذه العلاقات مرت بمراحل من الفتور لاسيما في عهد طهماسب الأول (984-930هـ)، والذي أظهر براعة في التصدي للهجمات العثمانية المتوالية وكذلك التصدي للأوزبك الذين ألحق بهم الهزيمة، في ذلك العهد أرسل ملك البرتغال دون سباستيان السفراء إلى البلاط الصفوي، كان ذلك عام (1551م)، ومرة ثانية عام (1574م)، محملين بالهدايا الثمينة، ومعهم جمع غفير من الخدم والمرافقين، ولكن الشاه طهماسب استقبلهم ببرود ولم يأذن فيما بعد للسفير البرتغالي بالعودة حتى وفاته عام (984هـ).[29]

وكان من أسباب موقف الشاه هذا تجاه البرتغاليين هو تدينه الشديد، ونظرته السلبية والعدائية تجاه البرتغاليين، الذين تعاملوا في عهده مع المسلمين في هرمز وغيرها معاملة قاسية، حد أنهم أحرقوا نسخاً من القرآن الكريم ومنعوا بناء المساجد[30]، فضلا عما قام به البوكيرك في الهند بالوقوف إلى

---

(25) - د.نادية محمود مصطفى: مصدر سابق، ص 33.

(26) - د. زكريا سليمان: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، دار عالم المعرفة جدة، 1991م، الطبعة الأولى، ص 67.

(27) - محمد سهيل طقوش: مرجع سابق، ص 83.

(28) - المصدر نفسه.

(29) - نصر الله فلسفي: مصدر سابق، ص 19.

(30) - عباس الموسوي وكمال السيد : مصدر سابق، ص70.

جانب الهندوس ضد المسلمين. وقد كانت سياسة الاحتلال البرتغالي في الخليج لاتختلف عما حصل في الجزر الهندية، وقد وثق البوكيرك نفسه للعديد من الفظائع التي ارتكبها بحق السكان المحليين، فقد كتب إلى ملكه في البرتغال يفتخر بتلك الأعمال، ومما قاله: أعملت السيف في كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تُراق أياما عدة. وحيثما وجدنا المسلمين لم نوقر معهم نفسا، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيها النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت، وقد كان ذلك يا سيدي عملاً عظيما رائعا أجدنا بدايته وأحسنا نهايته [31].

ولهذا يرى الباحثون العلاقات الصفوية - البرتغالية في هذه المرحلة - بل وغيرها مع دول أوروبا لاسيما انجلترا- أنها قد تأثرت بفعل عامل التدين الشخصي للشاه طهماسب، لكن يمكن ملاحظة أن هنالك عوامل ربما تكون أقوى وأكثر تأثيرا من عامل شخصي كهذا، ومنها عقد اتفاقية صلح مع العثمانيين في (1554م) وإحراز الشاه لانتصارات باهرة على الأوزبك، ولعل من المناسب الإشارة إلى أن سكان الجزر والمناطق الجنوبية لاسيما جزيرة هرمز، والتي قيل إنها أوغلت في صدر الشاه الكراهية ضد البرتغاليين بسبب أعمالهم القاسية هو أنهم خليط متنوع من القوميات والأجناس والطوائف، من البلوش والفرس والتتار والعرب والهنود والترك، وتنوعت معتقداتهم الدينية بين المسيحية والإسلام من السنة والشيعة. وبالتالي فلم يكن محرك الشاه لموقفه ذاك هو العامل المذهبي المجرد، فسياسات المستعمرين الأوروبيين وممارساتهم الوحشية كان لها أن تكون بذرة التقاء بين العثمانيين والصفويين في هذه الفترة، لولا أن المصالح السياسية والغطرسة السلطانية قد أخذت مأخذها، كما أن البرتغاليين وغيرهم ممن جاء بعدهم لم يجدوا وسيلة لإضعاف مسلمي منطقة الشرق الأوسط والخليج وصولا إلى الهند أكثر ملاءمة من تعميق الصراع المذهبي العثماني الصفوي، حتى لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الصراع المذهبي في العالم الإسلامي تعمق بشكل واضح منذ ذلك العهد، وأن العثمانيين يتحملون وزرا في هذا الخلاف[32]. وعلى أية حال فإن سياسة طهماسب لم تبلغ حد التقاطع والعداء مع البرتغاليين، بل اكتفى بسياسة وسيطة، بين التحمس الذي كان يظهره والده إسماعيل الصفوي لتعزيز علاقاته بالبرتغاليين وبين الحذر من أن يدخل معهم ضمن حلف عسكري بوجه العثمانيين لاسيما بعد صلحه معهم [33]، أما العلاقات التجارية فكانت متنامية ولهذا فقد رفض الشاه العرض الإنكليزي الروسي بعد أن أرسلت الملكة إليزابيث ملكة بريطانية وفدا يمثل شركة التجارة الإنكليزية بهدف التعاون التجاري بين الجانبين، مفضلا التعاون التجاري والاقتصادي مع البرتغاليين[34].

(31) - موسوعة الغزو الفكري والثقافي وآثاره على المسلمين، كتاب إلكتروني، جمع واعداد علي بن نايف، ص314.

(32) - أنور الجندي: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ص 82.

(33) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 110.

(34) - المصدر السابق، ص 107.

المطلب الثاني
علاقات الدولة الصفوية مع إسبانيا

في عام (1580م) قامت إسبانيا باحتلال المملكة البرتغالية، وأصبحت البرتغال خاضعة وتابعة للتاج الإسباني في عهد الملك الإسباني فيليب الثاني، واستمر ذلك لمدة ستين عاما. وخلال هذه الفترة ضعف النفوذ البرتغالي في المستعمرات التي كانت تابعة لها، لحساب سيطرة الإسبان وبناء مراكز وقلاع محصنة لهم في مواقع استراتيجية عدة ومنها في منطقة الخليج والهند[35]، ولكنها، أي البرتغال ظل لها تواجد رسمي في مواقع نفوذها ومنها جزيرة هرمز، إذ تشكل ما يسمى بمجلس رعاية المصالح البرتغالية، والذي كان مشرفا على مستعمرات البرتغال، بيد أن سياسة ذلك المجلس تأثرت بالسياسة العليا للدولة الإسبانية إلى حد بعيد[36].

دوافع التحرك الإسباني

لقد تحركت إسبانيا باتجاه مواقع النفوذ البرتغالي، وراحت تسعى إلى إقامة علاقاتها مع إيران، حيث أرسل الملك فيليب الثاني سفيرا لها، انطلاقا من ثلاثة دوافع أساسية هي:

- كان فيليب معروفا بتعصبه للمذهب الكاثوليكي فبات يفكر في أن يمنح الشاه الصفوي حريات أكبر لأتباع هذا المذهب في إيران، خاصة وأن الصفويين كانوا حريصين على إظهار قدر كبير من الانفتاح تجاه المسيحيين في إيران، بل والتشجيع على الهجرة إلى إيران كما شيدت لهم مدينة مستقلة قرب العاصمة [37].
- حض وتشجيع الصفويين على الاستمرار بعداوتهم وقتالهم للعثمانيين.

---

(35) - د. محمد حسن العيدروس، مصدر سابق، ص 31.

(36) - رياض محمود الأسطل: الصراع الإسلامي البرتغالي وأثره في التجارة الدولية، رسالة دكتوراه جامعة السند، كلية الآداب - باكستان، ص 343.

(37) - د. علي شريعتي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ترجمة حيدر مجيد، منشورات دار الأمير، ص 206. والواقع أن الشاه إسماعيل الأول ومن بعده الشاه عباس كانا يعلنان بصراحة للوفود والسفراء الأوربيين أن أبواب إيران مفتوحة لاستقبال كل المسيحيين، حتى إن عباس الأول اصدر منشورا لكل رعايا الدولة بأن النصارى أصدقاؤه وحلفاء بلاده ويجب على كل شخص احترامهم وتقديرهم وإكرامهم أينما حلوا، ويبدو أن الهدف من ذلك هو تشجيع ملوك أوروبا على توطيد علاقاتها وبناء تحالف مع الدولة الصفوية، واستخدام مثل هذه الجالية المسيحية الكبيرة كورقة في مفاوضاته مع الدول الأوروبية، ولم يجر ذلك على اليهود الذين تعرضوا لحملات ومعاملات عنيفة لما كان شائعا في أوروبا من عداء ضدهم، حتى اضطر العديد منهم في إيران إلى إعلان إسلامه شكليا، وهي ما تعرف بمرحلة «التخفي» التي شهدت استثناء وحيدا في عهد الشاه عباس الثاني، وعلى الجانب الآخر كان الأمر يجري بصورة معكوسة في أرجاء الدولة العثمانية التي أظهرت حماية واضحة لليهود وتجارتهم، وفتح السلطان مراد الثالث الباب على مصراعيه بالهجرة إلى الدولة العثمانية دون قيد أوشرط وكذلك فعل بايزيد الثاني، لهذا يصف برنارد لويس مقارناً بين وضعي اليهود في إيران وتركيا العثمانية بالقول «إن يهود الدولة العثمانية كانوا يعيشون في الجنة»، وعلى أية حال فكلا السياستين للصفويين والعثمانيين غير بعيدتين بالطبع عن طبيعة تأثيرات العلاقة مع الدول الأوروبية، انظر في هذا الصدد: عباس الموسوى وكمال السيد، مصدر سابق، ص 149 و150. شاهين مكاريوس، دار الآفاق العربية، طبعة 2003م، ص154. د. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية ج2 ص189، دار الشروق، و: د.هويدا عزت: مختارات إيرانية - العدد 47 سنة (2004م)، وأحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، بغداد دار الشؤون الثقافية العامة، ص 30، وصالح حسن عبد الله: تهجير يهود العراق 1941 – 1952 رسالة ماجستير. جامعة تكريت، (2011م). ود. بان غانم الصائغ، سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية، مجلة التربية والعلم، المجلد 19، العدد (2)، سنة (2012م)، جامعة الموصل. ص13.

- الحصول على امتيازات تجارية خاصة لرعايا الإسبان.

إن هـذه الأسـباب الثلاثـة[38] كانـت وراء التحـرك السـياسي الإسـباني باتجـاه الدولـة الصفويـة، والـذي تـم في عهـد الشـاه محمـد خـدا بنـده، وتحديـدا بعـد أربـع سـنوات مـن توليـه الحكـم. وهكـذا فقـد أرسـل نائـب الملـك في الهنـد مبعوثـا إلى الشـاه وهـو الأب سـيمون موراليـس الـذي كان يتقـن اللغـة الفارسـية، فاسـتقبله الشـاه محمـد بكثـير مـن الترحيـب وجعلـه معلـما لابنـه حمـزة مـيرزا، واسـتجاب لطلبـه بوقـف المفاوضـات الوديـة والتغـاضي عـن الصلـح مـع العثمانيـين، وأثنـاء عـودة موراليـس إلى إسـبانيا أرسـل معـه سـفيرا لمقابلـة الملـك، بغيـة توطيـد العلاقـات بـين إيـران وأوروبـا بيـد أن السـفينة التـي أقلتهـم تعرضـت إلى الغـرق قـرب الشـواطئ الأفريقيـة، ومـات كل مـن فيهـا[39].

إن فـترة السـنوات القليلـة لحكـم محمـد خـدا بنـده لم تشـهد تطـورا مهـما عـلى صعيـد العلاقـات الصفويـة - الإسـبانية، ولكنهـا وضعـت الركائـز الأولى لهـا، والتـي توسـعت وتطـورت في عهـد الشـاه عبـاس الكبـير (حكـم مـا بـين 1588م- 1629م)، الـذي شـهد عهـده انفتاحـا واضحـا عـلى الـدول الأوروبيـة، ولم تقتـصر عـلى إسـبانيا فقـط، إذ أرسـل الشـاه سـفراءه إلى عـدد مـن دول أوروبـا، ودعـا الأوروبيـين إلى زيـارة إيـران، وعقـد الصفقـات التجاريـة معهـا، كـما اسـتقبل العديـد مـن البعثـات والسـفارات الأوروبيـة [40].

وهكـذا فقـد كانـت إسـبانيا مـن أوائـل الـدول التـي بـادرت إلى إرسـال مبعوثيهـا، ففـي عـام (1598م - 1007هــ) أرسـل الملـك بعثـة برئاسـة الراهبـين البرتغاليـين ألفونسـو كـردرو الفرنسيسـكاني ونيقـولا دي ملـو الدومنيـكاني الـذي كان يشـغل منصـب المبعـوث الخـاص للقـوات البرتغاليـة المرابطـة في جزيـرة هرمـز، حاملـين الهدايـا الثمينـة إلى الشـاه مـن ملـك إسـبانيا. ولم تخـل زيارتهـما مـن تلـك الطلبـات المتعلقـة بالقضايـا الدينيـة التـي تتصـل بالمسـيحيين في إيـران، حيـث طلبـا مـن الشـاه عبـاس السـماح لنصـارى إيـران ببنـاء الكنائـس وإقامـة شـعائرهم الدينيـة، فوعدهـما الشـاه بحسـن معاملـة النصـارى في إيـران[41].

والحقيقـة أن أيـة نظـرة شـاملة للعلاقـات الدوليـة آنـذاك لاسـيما بـين أوروبـا والدولـة الصفويـة كانـت تبتـدئ في مجملهـا بتنـاول القضايـا المتعلقـة بالأقليـات الدينيـة المسـيحية، كمقدمـة لتوطيـد تفاهـمات سياسـية واقتصاديـة. الأمـر الـذي يوضـح لنـا أهميـة العامـل الدينـي وحضـوره القـوي في عصـور كان الـصراع فيهـا يتسـم بهـذا البعـد الهـام والمؤثـر، حيـث مـن النـادر الفصـل بـين الديـن والسياسـية والاقتصـاد.

الصراع المذهبي وانفتاح الشاه على الدول الأوربية

في عـام (1007هــ). كان الشـاه عبـاس الأول قـد حقـق نـصرا حاسـما عـلى الأوزبـك في خراسـان، ولهـذا حـين عـاد إلى عاصمتـه أصفهـان[42] قـرر البـدء بعمليـة اسـتعادة المناطـق التـي تنـازل عنهـا في بدايـة حكمـه للعثمانيـين، وتجهـز للدخـول في معـارك معهـم. ولهـذا وجـد مـن الـضروري الاسـتعانة بالخـبرة العسـكرية والعلميـة الأوروبيـة

---

(38) - انظر: نصر الله فلسفي، مصدر سابق، ص 20.

(39) - المصدر السابق نفسه.

(40) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 186.

41 - المصدر السابق، ص187.

42 - كان الشـاه عبـاس قـد نقـل في حـدود الألـف الهجـري عاصمـة الدولـة مـن قزويـن إلى أصفهـان، انظـر: د. محمـد عـلاء الديـن منصـور: تاريـخ إيـران بعـد الإسـلام، دار الثقافـة والنـشر والتوزيـع في القاهـرة، ص 668.

في تجهيز وإعداد جيشه، وتسليحه بالأسلحة الحديثة من المدافع والبنادق وغيرها. ولهذا لم يجد سوى توطيد أقوى علاقات التعاون السياسي والعسكري والاقتصادي مع أوروبا، فأرسل الشاه أحد قُواده وهو حسين علي بك إلى هناك. والذي عرض على الأوروبيين خيارات العلاقة بين الجانبين، ومنها إبرام معاهدات تجارية لبيع الحرير الإيراني الذي كان الشاه عباس يحتكره شخصيا، خاصة وأن أسعار الحرير الإيراني في موانئ الخليج كانت أرخص مما هي عليه في الموانئ العثمانية[43].

والحقيقة أن تجارة الحرير كانت مثار صراع اقتصادي دولي، منذ فرض البرتغاليين هيمنتهم على معظم تجارتها مع فارس خلال القرن السادس عشر، وسط المحاولات العثمانية المتكررة التي فشلت في عرقلة ومنع هذه التجارة. واستمر الوضع حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر حيث وجه الإنكليز اهتمامهم للدخول في ميدان التجارة الواسع ما بين الهند وفارس طمعاً في الحصول على نصيب في تجارة الحرير الفارسي المريحة[44]. ولهذا كانت خطوة الشاه عباس هو إغراء الأوروبيين بالحرير وأرباحه الكبيرة لتحقيق هدفه الأول في تقوية وتسليح جيشه استعدادا لقتال العثمانيين. لقد كانت بعثة حسين علي بك قد مثلت رحلة مكوكية شملت أغلبية العواصم الأوروبية، فبدأت من روسيا ومن ثم ألمانيا وإيطاليا وأخيرا إلى إسبانيا، وقد حدثت في هذه الرحلة خلافات حادة بين بعض أعضائها فيما تعرض أحدهم للقتل على يد متعصب إسباني كاثوليكي، وقبل نهايتها حدث أن تنصّر ثلاثة من أعضاء البعثة ودخلوا في الدين المسيحي. كان أحدهم ابن أخ السفير نفسه، والملفت أنه بعد تعميده على المذهب الكاثوليكي وافق الملك الإسباني فيليب الثالث أن يكون أباه الروحي، فيما تبنت الملكة الإسبانية عضواً آخر وهو السكرتير الأول للبعثة الإيرانية [45]. وربما كانت هذه الأحداث سببا في إرجاء الوفد لزيارته لعواصم أخرى، كإنجلترا وفرنسا واسكتلندا وبولندا.

لقد استقبلت البعثة في رحلتها هذه بكثير من الحفاوة والترحاب من الملوك والحكام الأوروبيين، في روسيا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا ومن البابا أيضا. وكان الملك الإسباني أكثر هولاء المحتفين بالوفد الإيراني، فقد خلع عليهم الهدايا الجزيلة، ونقدهم الأموال كنفقات للسفر أثناء العودة إلى البلاد، وأهدى حسين بك سلسلة ذهبية تقدر قيمتها بثروة كبيرة، فضلا عن أحد عشر ألف دوقية[46].

لقد تمحورت مباحثات البعثة مع الملوك الأوروبيين حول مضامين أساسية حملتها رسائل الشاه إليهم، والتي عرضت تعاونا شاملا في المجالات السياسية والعسكرية، فعلى الصعيد السياسي عرض الشاه تعزيز أواصر الصداقة والاتحاد مع الدول المسيحية في مواجهة العدو المشترك المتمثل بالعثمانيين، وعليه فلا بد للزعماء الأوروبيين من:

- إلغاء أية معاهدات صداقة قد وقعت بينهم وبين الدولة العثمانية.
- أنْ تعمل الحكومات الأوروبية على إلغاء أية صفقات تسليح للدولة العثمانية أُبرمت من خلال تجار أوروبيين.

---

(43) - نصر الله فلسفي، مصدر سابق، ص 23.

(44) - عصام خليل محمد إبراهيم الصالحي: السياسة البريطانية في الخليج العربي الأهداف والنتائج 1600م - 1843م - مجلة مداد الآداب، العدد الرابع، ص 436.

(45) - نصر الله فلسفي، مصدر سابق، ص 36.

(46) - المصدر السابق نفسه.

- تجنب الصراع بين الدول الأوروبية وتقوية صفوفهم في مواجهة العدو المشترك.
- أنْ تكون هناك صيغة اتحاد سياسية وتوحيد للمواقف، وألا تقدم أية دولة على اتخاذ موقف إلا بعد التشاور مع الدول الأخرى.

أما على الصعيد العسكري، فقد عرض الشاه ما يأتي:

- إذا ما دخلت إيران في حرب فيجب أن تكون مطمئنة بأنها لن تترك لوحدها في مواجهة العثمانيين.
- استعداد الشاه لتجهيز ستين ألفا من جنوده فورا فيما إذا اتحدت الدول الأوروبية معه.
- إن الحرب الدفاعية غير مجدية وتدل على الضعف وتبديد الأموال والرجال.
- التعهد فيما إذا قام ملكا ألمانيا وإسبانيا وسائر حكام أوروبا بمحاربة السلطان والهجوم على الأراضي التركية من جهة الشرق، فإنه سيستقبل سفراءهم في إيران بتفويضات تامة، ولن يتخذ أية إجراءات عسكرية إلا بمشورتهم وتحت إشرافهم.

أما فيما يخص الجانب الديني فقد أبدى الشاه تعهدا في فتح كل مناطق إيران أمام أتباع الدين المسيحي وحركتهم، وأن يسمح لهم بالذهاب إلى أي مكان شاؤوا وأن يقيموا الكنائس ويمارسوا طقوسهم بحرية تامة ولكن مثل هذا الأمر مشروط بتحقق الاتحاد بين إيران والدول الأوروبية في مواجهة العثمانيين[47].

ومن الملاحظ هنا أن اقتراحات وعروض الشاه ركزت على الجانب السياسي والعسكري والديني، ولم تولِ الجانب الاقتصادي أهمية كالتي كان يشكلها بالنسبة للأوروبيين، إلا ما جاء ضمنا في سياق تلك المقترحات.

خيبة الأمل ونهاية العلاقات الودية

في نفس العام الذي عادت فيه البعثة الإيرانية حدثت تطورات عسكرية في الخليج، حيث جرت أحداث عدة في جزيرة هرمز والبحرين التي كانت تابعة لها، وانتهت تلك التطورات بسيطرة الإيرانيين على البحرين، بعد أن دارت معركة طاحنة بين الإيرانيين والجنود البرتغاليين انتهت بخروج البحرين من النفوذ البرتغالي ووقوعها تحت السيطرة الإيرانية في رمضان عام (1010هـ/ 1601م). وعلى أثر ذلك أرسل ملك إسبانيا مبعوثا خاصا هو أنطونيو دي جوفيا عام (1602م)، وكالعادة فقد اصطحب معه عددا من رجال الدين المبشرين، وكان صلب المباحثات يدور حول طلبات للملك الإسباني تقدم بها الوفد الذي التقى الشاه في مدينة مشهد، وكانت تلك المطالب تتمثل في ثلاثة هي:

- إعادة البحرين إلى السيادة الإسبانية، بعد أن استولى عليها الشاه عام 1601م.
- فك الحصار عن ميناء كمبرون الذي حاصرته القوات الصفوية لتخفيف الضغط عن البحرين.
- السماح للمبشرين بالعمل في إيران وبناء كنيسة يؤدي فيها النصارى شعائرهم الدينية[48].

وكان من الطبيعي أن يرفض الشاه عباس التنازل عن البحرين، ولكنه وافق على فك الحصار عن ميناء كمبرون، ووعد بتقديم تسهيلات للمسيحيين لكنه عرض الموضوع بطريقة رهنها بتعاون حقيقي بينه وبين الأوروبيين ضد العثمانيين. ومما قاله الشاه بهذا الخصوص للمبعوث جوفيا: (أنا مستعد لإقامة الكنائس في إيران وأرغب كثيرا في أن يأتي كل المسيحيين رجالا أو نساء إلى بلدي، ولكن رجال الدين عندي لايقبلون هذا، ويمنعونني وأخشى إن أقدمت على هذا أن يقتلوني، فإن كنتم تقبلون أن

(47) - المصدر السابق، ص 26 و27.

(48) - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 187.

أقوم بما ترغبون مع وجود هذا الخطر فلا مانع عندي، ولكنني أرى من الأفضل أن يقوم ملوككم بالدخول في الحرب مع الأتراك أولا وبعد ذلك تقومون ببناء الكنائس، وفي هذه الحالة تستطيعون إقامة الكنائس في جميع أنحاء إيران إلى جانب مدينة أصفهان، لأنه إذا أراد رجال الدين الاعتراض ومنع هذا العمل فسوف أقول لهم إنه لم يعد لهم حق الاعتراض أبدا، لأنني لا أستطيع العمل ضد رغبة وإرادة الأشخاص الذين يساعدونني ضد أعداء إيران)[49].

ويبدو ثمة اختلاف بين الدارسين حول تحديد أهداف هذه البعثة التي جرت كما أشرنا آنفا في عام (1602م)، ففي وقت يذكر طقوش تلك المطالب الثلاثة للملك البرتغالي، نجد أن نصر الله فلسفي يؤكد بأن المطالب الثلاثة تمثلت بما يلي:

- تقوية هيكل المصالح التجارية البرتغالية الذي كان قد أصابه الضعف نتيجة استيلاء إيران على جزر البحرين.
- أن يمتنع الشاه عباس عن عقد اتفاقيات تجارية مع الإنكليز، وألا يسمح لسفنهم بالمجيء إلى الخليج.
- الحصول على إذن من الشاه بالتبشير المسيحي في إيران[50].

ولكن يبدو للباحث أن هذه البعثة والبعثة الثانية التي جرت عام (1638م) كانتا متقاربتين من حيث الأهداف، وأن التركيز على الجوانب التجارية حدث في البعثة الأخيرة، والتي معها بدأ شكل إطار واضح للعلاقات بين الجانبين الإيراني والإسباني فضلا عن بقية الدول الأوربية، وهو إطار يرتكز على الجانب الاقتصادي أكثر من غيره، فيما كانت قضية التبشير المسيحي وحرية المسيحيين في إيران قاسما مشتركا للبعثتين، وكما رأينا من قبل في بعثات سابقة. ويبدو أن الشاه عباس أصبح على يقين بالتردد الأوروبي في شأن الحلف العسكري والتعاون معه في محاربة العثمانيين، وأن أكثر ما اهتم به الأوروبيون هو قضيتا المصالح التجارية في الخليج والتبشير المسيحي في إيران، لهذا لم تصل البعثات المتبادلة بين الطرفين إلى أية صيغ حقيقية ونهائية لتحالفهما العسكري بوجه الأتراك، وبقيت الوعود حبراً على ورق، ولم تعكس الأحداث وجودها الفعلي على الأرض، ولهذا فقد دخل الشاه عباس في أربعة حروب ضد العثمانيين ابتداء من عام (1012هـ) واستغرقت زهاء ربع قرن لم تشهد أية تدخلات عسكرية مباشرة إلى جانبه من قبل الدول الأوروبية، يستثنى من ذلك التعاون الإنجليزي والذي لم يكن موجها بالأساس إلى العثمانيين بقدر ما كان يستهدف الوجود البرتغالي في الخليج. وكل ما شهدته بداية تلك الفترة هو إرسال السفراء وتبادل البعثات، وكانت النهاية الطبيعية أن تنتهي العلاقة بفتور واضح ويشعر الشاه بعدم الجدوى من الاستمرار في توسل الدعم العسكري من إسبانيا على وجه التحديد، ففي عام (1612م) عادت بعثة دنكيز التي أرسلها الشاه من قبل وكان قد عاد معها جوفيا، فاستقبلهما الشاه ليأمر مباشرة بقتل دنكيز فاضطر ذلك جوفيا إلى الهرب نحو هرمز. وقد تزامنت هذه التطورات مع ظهور الإنكليز والهولنديين على مسرح الأحداث السياسية والاقتصادية في المحيط الهندي والخليج العربي، فمال الشاه إلى محاولة تقوية علاقاته معهما، وكان ذلك بداية النهاية للتحالف بين الصفويين والإسبان والبرتغاليين التابعين للتاج الإسباني[51]، وقد استشعر الإسبان آثار سياساتهم المترددة في وقت متأخر، فأمر الملك فيليب الثالث بإرسال بعثة إلى الشاه (1027هـ/ 1618م)، لعرض المساعدة العسكرية وإرسال السفن الأسبانية لمهاجمة البحرية العثمانية، وذلك مقابل

(49) - من مذكرات انطونيو دي جوفا، نقلا من نصر الله فلسفي، مصدر سابق، ص 41 و 42.

(50) - نصر الله فلسفي، مصدر سابق، ص 41.

51 - رياض محمود الأسطل: مصدر سابق، ص 345.

ذات الطلبات القديمة فضلا عن استعادة ميناء جمبرون الذي استولت عليه إيران عام (1614م)[52]، وعدم السماح للتجار الإنكليز بمنافسة التجار الأسبان. وقد جاء وصول رسالة الملك الإسباني بيد بعثته في وقت عقد الشاه معاهدة صلح مع الأتراك، وأطلق تعاونه مع شركة الهند الشرقية الإنكليزية. ولهذا كان موقفه هو الرفض لكل الطلبات والمقترحات التي قدمتها البعثة، بل وأبلغ الجانب الأسباني بأنه أمر بكسر احتكار شراء الحرير الفارسي من قبل التجار الأسبان والبرتغاليين، وبيعه لكل من يدفع ثمنا أعلى، كما أعلن أنه لايسمح بمخاطبته بشأن أصدقائه الإنكليز [53].

المطلب الثالث

علاقات الدولة الصفوية مع إنجلترا

تعود بداية العلاقات الصفوية- الإنجليزية إلى عام (1599م) من خلال الجهود التي بذلها بعض المغامرين الإنجليز بزعامة أنتوني شيرلي[54] وأخيه روبرت بالإضافة إلى خمسة وعشرين فارسا إنكليزيا تمكنوا من زيارة بلاط الشاه عباس، وكانوا يسعون إلى إقناعه آنذاك بالتحالف مع القوى الأوربية وإقامة علاقات تجارية بين إنكلترا وفارس، وتأسيس التجارة الإنكليزية على قواعد راسخة في الشرق[55]، لكن المساعي البريطانية في الوصول إلى المنطقة واكتشاف طرق مواصلات تجارية بعيدة عن النفوذ البرتغالي تعود إلى منتصف القرن السادس عشر، وقد حصل الإنكليز في عام (1580م) على أول امتياز تجاري لهم من الدولة العثمانية، ورافق ذلك اكتشاف طريق تجاري يمر عبر روسيا وبلاد فارس. وقد كان البريطانيون بدؤوا بالوصول إلى الخليج مطلع عام (1590م) عبر أسطول بقيادة القبطان ريموند مكون من ثلاث سفن وصلت واحدة منهن بقيادة جيمس لانكستر[56]، وبعد ذلك أخذت بريطانيا بمحاولة مزاحمة النفوذ البرتغالي، وكان من الطبيعي أن ينتهي هذا التزاحم والتنافس على المصالح إلى حالة من الصدام والمواجهات جرت على سواحل الهند بعد عام (1622م)، شاركت فيها هولندا كحليف للبريطانيين ضد البرتغال وإسبانيا. وبعد تحول السياسة الصفوية كما أشرنا في الصفحات السابقة في عهد الشاه عباس كان لا بد لإيران أن تغتنم الفرصة وسط هذا الصراع، وهكذا تمكنت من الاستيلاء على قشم وهرمز، وانتزاعها من يد البرتغاليين في عام (1622م).

---

52 - سقط هذا الميناء بعد محاصرته لعدة شهور من قبل إمام قلي خان، واستطاع هدم التحصينات البرتغالية، وأطلق على الميناء بعد تحريره اسم بندر عباس. رياض محمود، المصدر السابق، ص302.

53 - محمد سهيل طقوش: مصدر سابق، ص 189.

54 - هو السير أنتوني شيرلي رحالة إنجليزي ولد عام 1565 م وتوفي عام 1635 م، تلقى تعليمه في جامعة أكسفورد واكتسب خبرة عسكرية أثناء مشاركته مع القوات الإنجليزية في هولندا خلال رحلة استكشافية إلى نورماندي عام 1591، وفي عام 1598 قاد عددا من المتطوعين الإنجليز إلى إيطاليا ومن هناك قرر القيام برحلة إلى بلاد فارس بهدف مزدوج هو إقامة علاقات تجارية بين الإنجليز وإيران وإثارة الفرس ضد الأتراك، وقد استقبل بحفاوة من قبل الشاه عباس على ما سيأتي بيانه. المصدر: موسوعة وكيبيديا باللغة الانجليزية - الشبكة الدولية للمعلومات).

55 - د. عبد العزيز عوض: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، الجزء الأول، دار الجيل - بيروت، ومكتبة الرائد العلمية - عمان، ص88.

(56) - تاريخ الخليج والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تيخسيرا، نقله عن الانجليزية عيسى أمين مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، 1998م، ص40.

المصالح الاقتصادية وتأثيرها في العلاقات الصفوية - الإنجليزية

كانت المحاولات الأولى لإقامة علاقة بين الطرفين تعود إلى عهد الشاه إسماعيل، وقد حصل على اتفاق لمهاجمة العثمانيين، لكن وفاته حالَت دون تنفيذه. وفي عهد ابنه طهماسب بادر الإنجليز إلى إقامة علاقات تجارية مع الدولة الصفوية، فأرسلت مبعوثا حمل رسالة من الملكة إليزابيث عام (1523م)، وقد بدأت تلك الرسالة بالعبارات التالية: «من إليزابيث ملكة إنجلترا المؤيدة بالتأييد الإلهي إلى الأمير العالي القوي الصوفي الكبير ملك ملوك إيران وشعب مادوبارث وجرجان وكرمان ومرو والقبائل على شاطئ دجلة وكل الشعوب التي تقطن ما بين الخزر والخليج الفارسي أبعث وافر السلام وأماني السعادة والإقبال»[57]. بيد أن هذا الإطراء الباذخ والذي يلفت النظر فيه مخاطبة الشاه بالصوفي الكبير، لم يكن حافزا لدى طهماسب صوب المرونة، فاستقبل المبعوث أنتوني جنكنسون بجفاء بعد أن علم بمسيحيته وقال له:

(أنتم الكفرة لاحاجة لنا بصداقتكم. ثم أمر أحد خدم قصره بإلقاء التراب على خطوات انصراف المبعوث لتطهير الأرض من نجاسته. إن التشدد الذي كان يبديه طهماسب لعب دورا كبيرا في اتخاذ العلاقات الصفوية - الأوربية لمجرى مختلف في عهود الشاه محمد خدا بنده وبعده الشاه عباس،. وقد كان من الممكن للعلاقات الصفوية الأوروبية أن تتخذ شكلا آخر ويتغير معها مجرى التاريخ في الخليج لو أن الشاه طهماسب كان قد تعامل بطريقة مختلفة أكثر مرونة، وعمد إلى تقوية علاقاته التجارية بالإنجليز وروسيا التي لم تكن بعيدة عن مساعي المبعوث جنكنسون، والذي اضطر بعد تلك المقابلة الجافة والمخيبة للآمال من العودة إلى موسكو، وأمضى فيها بضعة أشهر ليعود ويكرر محاولته في إقامة علاقات تجارية بين الطرفين، إلا أنه فشل كذلك ولم يتمكن من مقابلة الشاه طهماسب.

أما في عهد الشاه عباس فقد كانت زيارة أنتوني شيرلي وأخيه روبرت البداية التي رآها الشاه عباس أنها تبشر بأفق واسع في بناء علاقاته مع الدول الأوروبية ومنها إنكلترا، ويبدو أنه لم يكن يفرق كثيرا بين ملوكها ودولها، وذلك على أساس النظرة إليها كونها دولا مسيحية مناوئة للعثمانيين، وقد استقبل الأخوين شيرلي بحفاوة بالغة، وكان مما أسمعهم إياه أن نعل أي مسيحي عنده أفضل من أكبر رجل عثماني[58]. وهو ما يدل دلالة واضحة على أن الصراع المذهبي بين الصفويين والعثمانيين كان له أبلغ الأثر في الرغبة الكبيرة التي اتسمت بها سياسة الشاه عباس الأول لإقامة علاقات تعاون واسعة مع الأوروبيين، بقدر ما كان الأوروبيون من جانبهم يعولون على ذلك الصراع لإشغال وإبعاد العثمانيين عن تهديدهم، وبالفعل فقد أفاد العالم المسيحي بالمجمل من هذه السياسة، إذا أدى تركيز طهماسب مثلا على محاربة العثمانيين إلى انقطاع سليمان القانوني عن شن هجماته على الغرب، ووجه حملاته نحو فارس. وفي ذلك كتب السفير فرديناند في القسطنطينية يقول: إن فارس هي التي تقف حائلا بيننا وبين الدمار[59]، وكذلك تكرر الأمر في عهد الشاه عباس ومن بعده إلى أن تضعضع

(57) - نصر الله فلسفي: مصدر سابق، ص 133.

58 - فلسفي: ص 144.

59 - يراجع: ول يوارنت: قصة الحضارة، مجلد -13 جزء 26، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، ص94.

الحكـم الصفـوي وانهـار في نهايـة المطـاف، والجديـر بالإشـارة هنـا أنـه برغـم الدوافـع العدائيـة ضـد العثمانيـين فـإن إنجلـترا عـلى وجـه التحديـد كانـت تسـعى إلى علاقـات تجاريـة واقتصاديـة مـع الصفويـين، إذ في تلـك المرحلـة مـن نهايـة القـرن السـادس عـشر وصـل العـداء بـين إنكلـترا والبرتغـال إلى أوجـه، وكاد الإنكليـز يدخلـون في تحالـف عسـكري مـع العثمانيـين ضـد إسـبانيا والبرتغـال، وكان ذلـك في عهـد الملكـة إليزابيـث والسـلطان العثـماني مـراد الثالـث، إلا أن الملكـة أظهـرت احتقـارا لمثـل هـذه الفكـرة كونهـا تعـد وصمـة عـار في جبـين إخلاصهـا للمسـيحية، لكنهـا تحصلـت عـلى امتيـاز خصـوصي لتجـار بلادهـا في البـلاد العثمانيـة[60]. إن حصـول التجـار الإنكليـز عـلى امتيـازات تجاريـة كالتـي كان يتمتـع بهـا الفرنسـيون بموجـب هـذه الاتفاقيـات (امتيـاز عـام 1580 وامتيـاز آخـر عـام 1583) كان لـه تأثـيره عـلى العلاقـات التـي أريـد لهـا أن تنشـأ بـين الإنجليـز والصفويـين والجهـود التـي بذلهـا الأخـوان شـيرلي، فبعـد أن غـادر روبـرت شـيرلي إيـران ووصـل إلى إنكلـترا اجتمـع بالملـك جيمـس الأول وسـلمه رسـالة مـن الشـاه عبـاس تضمنـت اعتـماده سـفيرا ومفوضـا بإجـراء مباحثـات سياسـية وتجاريـة مـع الملـك، فعـرض شـيرلي توقيـع معاهـدة صداقـة مـع الشـاه تتضمـن عـدة نقـاط منهـا تقديـم التسـهيلات للرعايـا البريطانيـين، والسـماح بإنشـاء مركزيـن تجاريـين لبريطانيـا عـلى سـواحل الخليـج، وشراء سـفن مفككـة يجـري تركيبهـا في إيـران، واسـتعداد الشـاه لمنـح التجـار الإنكليـز احتـكارا لبيـع الحريـر الإيـراني، ونقلـه عـبر رأس الرجـاء الصالـح دون المـرور بـالأراضي العثمانيـة، كـما تضمنـت الرغبـة بعقـد معاهـدة عسـكرية[61] بيـد أن الملـك الـذي أبـدى اهتمامـه الكبـير بذلـك أوصى بتشـكيل لجنـة مـن كبـار التجـار ورفـع تقريـرا برأيهـا، وقـد رفضـت اللجنـة الموافقـة عـلى تلـك المعاهـدة المقترحـة، ويبـدو أن مصالـح التجـار الإنجليـز النافذيـن مـع الدولـة العثمانيـة كانـت وراء هـذا الرفـض، وهـؤلاء التجـار وشركاتهـم كانـت عنوانـا للعلاقـات الوديـة بـين إنكلـترا والعثمانيـين، والتـي اسـتمرت دون تذبـذب كبـير حتـى أواخـر القـرن السـابع عـشر عـلى الأقـل[62].

عـاد روبـرت شـيرلي إلى إيـران عـام (1605 م) بعـد فشـل بعثتـه في توقيـع تلـك المعاهـدة، ورجـع ثانيـة إلى إنكلـترا في بعثـة أخـرى عـام (1622 م)، حامـلا معاهـدة مـن بنديـن أساسـيين هـما تسـخير السـفن الإنكليزيـة في الخليـج لمحاربـة البرتغاليـين وتتحمـل الدولـة الصفويـة نفقاتهـا، والمقـترح الآخـر تقديـم خمسـة وعشريـن ألـف جنـدي صفـوي للعمـل عـلى هـذه السـفن ويكونـون بإمـرة الحكومـة الإنكليزيـة، ووافـق الملـك عـلى ذلـك بيـد أنـه تـوفي قبـل توقيـع المعاهـدة، ليخلفـه الملـك شـارل الأول الـذي تـردد في توقيعهـا، عندهـا أرسـل الشـاه سـفيرا لمسـاعدة شـيرلي غـير أن هـذا السـفير اسـتماله التجـار الإنجليـز المعارضـون للتعـاون مـع الدولـة الصفويـة، وتوالـت عـدة أحـداث في تلـك الفـترة لم تنتـه معهـا الأمـور إلى مـا كان يرغـب بـه الشـاه عبـاس. ففشـل في إقامـة تحالـف عسـكري مـع الإنجليـز كـما كان يطمـح، وآثـر الإنجليـز بدورهـم الهـدوء خاصـة بعـد طـرد البرتغاليـين سـعيا وراء انتعـاش التجـارة والمحافظـة عـلى مصالـح تجارهـم مـع الدولـة العثمانيـة، ووجـدوا أنفسـهم في الخليـج تحديـدا سـادة البحـر والممسـكين بطـرق التجـارة العالميـة بقيـت العلاقـات بـين الدولتـين الصفويـة والبريطانيـة تـراوح مكانهـا دون تقـدم كبـير في أواخـر عهـد الشـاه

(60)- إدريس الناصر: العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن السادس عشر، دار الهادي، الطبعة الاولى 2007 م، ص 158 و159.

(61) - محمد سهيل طقوش، ص 199.

(62) - إدريس الناصر: مرجع سابق، ص 162

عباس، بل وتراجعت العلاقات التجارية حتى أن الشركة الشرقية الإنكليزية أغلقت فرعها في أصفهان، وبعد وفاة الشاه عباس عام (1629م /1038هـ) استلم مقاليد العرش الصفوي الشاه صفي، فأعاد منح الشركة بعض الامتيازات كالتحرك بين المدن الإيرانية وإقامة مراكز تجارية فيها وحمل الأسلحة الشخصية للتجار الإنكليز للدفاع عن أنفسهم. وهو ما دفع الملك الإنكليزي تشارلز الأول إلى إرسال رسالة شكر وتقدير للشاه صفي لرعايته واهتمامه بالتجار والرعايا الإنجليز في دولته. ولكن ما نغص العلاقة التجارية هو ظهور منافس[63] قوي للإنكليز تمثل بالتجار الهولنديين الذين أصبح بأيديهم القسم الأكبر من الصادرات والواردات الإيرانية، مع إعفائهم من الرسوم الجمركية، أما في عهد الشاه عباس الثاني والشاه سليمان فقد تذبذبت العلاقات واعترتها الكثير من المنغصات، وتحول الصراع التجاري بين الإنكليز والهولنديين إلى مواجهات عسكرية في الخليج، وخاصة بعد أن اندلعت الحرب في أوروبا بين الإنكليز وهولندا، الأمر الذي دفع الدولة الصفوية إلى إلغاء امتيازات الشركتين الشرقيتين الإنكليزية والهولندية[64]. وفي أواخر العهد الصفوي استلم الشاه حسين الحكم وكانت له ميول باتجاه الإنكليز على حساب الهولنديين فعادت وتحسنت العلاقات الإنكليزية الصفوية في عام (1697م) بعد حصول شركة الهند الإنكليزية الشرقية على امتيازات مهمة رغم الضغوط التي مارستها الشركة الهولندية، إذ تحصلت على فرمان من الشاه حسين بدفع حصتها من الرسوم الجمركية في ميناء بندر عباس بانتظام، فيما يتم دفع الديون المتأخرة نقدا والباقي حريرا، فسارعت الشركة الهولندية لتقديم مبلغ من المال لمنع حصول ذلك بيد أنها فشلت في تحقيق أغراضها، ويضاف إلى ذلك أن وطدت الشركة الإنكليزية من وجودها عبر فتح مقر رئيس لنشاطها التجاري والسياسي في أصفهان، وبذلك أرست تجارتها مع إيران على أسس ثابتة أكثر من أي وقت مضى[65].

صراع الدول الأوربية الكبرى في الخليج

لقد أشرنا إلى أن الصراع على النفوذ والسيطرة على طرق التجارة الدولية بين أسبانيا والإنكليز تطور إلى مواجهات عسكرية بحرية، وفي الأعوام ما بين 1615-1612م ألحقت السفن الإنجليزية بالسفن الإسبانية عدة هزائم، الأمر الذي نال من هيبة إسبانيا، وبدا للشاه عباس الأول أن أسبانيا أضعف من أن يراهن على قوة أسطولها، وكان هذا العامل سببا آخر- بالإضافة إلى الأسباب التي مر ذكرها في الصفحات السابقة - لقطع علاقات الصداقة معها[66].

وفي عام 1620م بلغت التوترات في الخليج أقصاها، وحدثت مواجهة بين السفن الإنجليزية والإسبانية انتهت لصالح الإنجليز، وفي نفس العام اقترح الشاه على شركة الهند الشرقية الاتحاد معه للقضاء على القوات الإسبانية والبرتغالية، ورغم عدم تحمس الشركة الشرقية للحرب إلا أنها وافقت بفعل

(63) - في واقع الأمر كان هناك منافس ثالث داخل إيران لهاتين الشركتين، تمثل في التجار الأرمن، وكان الشاه عباس يبيع لهم جزءا من الحرير بعد أن يربح عشرة تومانات على كل حمل، ولذلك واجهت الشركتان منافسة أرمنية عنيفة، وكان التجار الأرمن يبذلون قصارى جهودهم لإلحاق اكبر ضرر بالتجار الإنكليز، انظر: د. عبد العزيز عوض، ص 160.

(64) - فلسفي: ص 193.

(65) - د. عبد العزيز عوض: ص 113.

(66) - نصر الله فلسفي، مصدر سابق، ص 100.

جهـود مندوبهـا في إيـران، و أبـرم اتفـاق نـص عـلى مـا يـلي:[67]

- إذا انتـصرت الحكومـة الإيرانيـة عـلى البرتغاليـين في هرمـز بمسـاعدة السـفن الإنجليزيـة فـإن غنائـم الحـرب تقسـم بالتسـاوي بـين الطرفـين.

- يجـب أن تسـلم قلعـة هرمـز بكامـل مدافعهـا وعتادهـا إلى الإنجليـز، ويمكـن للحكومـة الإيرانيـة إقامـة قلعـة أخـرى عـلى نفقتهـا إن أرادت ذلـك.

- أن تقسـم عائـدات الجـمارك بـين الشركـة والحكومـة الإيرانيـة بالتسـاوي. كـما تعفـى البضائـع الإنجليزيـة مـن الضرائـب والرسـوم.

- بعد الحرب يسلم الأسرى المسيحيون إلى إنجلترا والمسلمون إلى إيران.

- تتحمل الحكومة الإيرانية نصف نفقات السفن والمؤن وأجور العاملين وخسائر الحرب.

ويبـدو مـن البنـود أعـلاه أن شركـة الهنـد الشرقيـة الإنجليزيـة سـتكون صاحبـة المكتسـبات الأوفـر غـير أن النتائـج لم تكـن كذلـك، فقـد اضطـرت لدفـع رشـوة كبـيرة للملـك الإنجليـزي تقـدر بعـشرة آلاف جنيـه اسـترليني بالإضافـة إلى دفـع غرامـة ماليـة كبـيرة بلغـت عشريـن ألفـا بسـبب مخالفتهـا الأوامـر الملكيـة، وزاد الأمـر سـوءا ظهـور منافـس قـوي لهـا تمثـل بشركـة الهنـد الشرقيـة الهولنديـة التـي راحـت تتمتـع بنفـس الامتيـازات، فيـما فـاز الصفويـون بالنصيـب الأوفى فقـد حـرروا أجـزاء مهمـة مـن أراضيهـم واحتفظـوا في هرمـز بحاميـة مكونـة مـن ثلاثمائـة جنـدي تعززهـا قـوة بحريـة بريطانيـة، فضـلا عـن اسـتيلائهم عـلى الكثـير مـن الأسـلحة والذخائـر.[68]

لقـد توجهـت بموجـب الاتفـاق السـابق السـفن الإنجليزيـة إلى قشـم وأنزلـت مدفعيتهـا إلى الـبر وبعـد ثلاثـة أيـام استسـلم البرتغاليـون، لتتجـه بعدهـا السـفن الإنجليزيـة محملـة بثلاثـة آلاف مـن الجنـود الإيرانيـين وعـشرات الـزوارق الإيرانيـة للاسـتيلاء عـلى جزيـرة هرمـز، وقـد أظهـر البرتغاليـون هنـاك مقاومـة عنيفـة، فاسـتمرت المعـارك مـن (10 شـباط 1 فبرايـر 1622م إلى يـوم 23 أبريـل) حيـث أنـزل العلـم البرتغـالي مـن عـلى قلعـة البوكـيرك وإلى الأبـد[69].

لا يخفـى أن مجـيء بريطانيـا إلى الخليـج لم يكـن سـوى لأهـداف اقتصاديـة تتعلـق بمصالحهـا التجاريـة، والواقـع أن سياسـة الشـاه عبـاس لم تكـن بعيـدة النظـر في فهـم الدوافـع الأوروبيـة بشـكل عـام والبريطانيـة عـلى وجـه الخصـوص، وبعـد هزيمـة إسـبانيا والبرتغـال بـدت القـوة الإنكليزيـة هـي سـيدة الخليـج دون منافـس، لكـن الأمـر تغـير اعتبـارا مـن منتصـف القـرن السـابع عـشر بعـد بـروز الهولنديـين وشركتهـم الشرقيـة، ثـم دخـل لاعـب ثالـث فيـما بعـد تمثـل بالفرنسـيين، إثـر بـدء ضعـف هولنـدا وهـو الأمـر الـذي أعقـب إعـلان فرنسـا حربهـا ضدهـا نتيجـة تدخلهـا في الـصراع الـذي كان قائمـا بـين فرنسـا وإسـبانيا، حيـث أعلـن لويـس الرابـع عـشر الحـرب ضـد المملكـة الهولنديـة عـام1672م.

ولكـن لم تلبـث بريطانيـا أن عـادت لتفـرض هيمنتهـا عـلى الخليـج والمحيـط الهنـدي بعـد أن تمكنـت مـن هزيمـة القوتـين الأوروبيتـين الهولنديـة والفرنسـية عقـب انتهـاء حـرب السـنوات السـبع (1756م-1763م) بـين إنكلـترا وفرنسـا، حيـث تنازلـت الأخـيرة عـن مسـتعمراتها في الهنـد لصالـح شركـة الهنـد الشرقيـة الإنكليزيـة بموجـب معاهـدة باريـس عـام ١٧٦٣ م[70]. ومـن الطبيعـي أن تذبـذب ميـزان القـوى في الخليـج عـلى هـذا النحـو كان عامـلا فاعـلا في التحكـم

(67) - المرجع السابق، ص111 و112.

(68) - رياض محمود الأسطل: ص 364.

(69) - فلسفي: ص 120.

(70) - جفـري بـرون: تاريـخ أوروبـا الحديـث، ص 330، ترجمـة عـلي المرزوقـي، المكتبـة الأهليـة الأردن وانظـر: د. يحيـي حلمـي رجـب: الخليـج

بعلاقات الصفويين مع الدول الأوروبية التي تتواجد سفنها في المنطقة، لكن بقاء السياسة البريطانية في حيز الاهتمام بالمصالح التجارية لم يستمر إلى ما لانهاية، وإن تأخر كثيرا بالقياس إلى بقية الدول الأوروبية، وحيث أن النشاط التبشيري لم يكن غائبا عن سياسة القوى الأوروبية في مناطق نفوذها في الشرق، بل كان أحد العوامل الأساسية المحركة للوصول إلى الشرق، وفي إيران على وجه التحديد، شجع ذلك سياسات الدولة الصفوية لاسيما في عهد الشاه إسماعيل الأول وعباس الأول، وهكذا فقد بدأت بريطانيا بإرسال هيئات تبشيرية إلى إيران كي تحد من نفوذ الفرنسيين والأمريكان ولكن تم ذلك متأخرا، فقد أرسلت أول بعثة تبشيرية إنكليزية إلى بلاد فارس عام 1872م، أي أن هذا يأتي بعد أكثر من أربعين عاما على بداية التبشير الأمريكي في شمال بلاد فارس [71]. الأمر الذي يؤكد بأن السياسة البريطانية تجاه إيران كانت قائمة على المصالح التجارية، بل ويبدو للباحث أنه حتى جهودها التبشيرية التي كانت تستهدف أساسا المسيحيين الآشوريين والأرمن إنما أتت بدافع اقتصادي، لسيطرة تجار هذه الطوائف على قسم كبير من تجارة الحرير الفارسي.

المطلب الرابع

علاقات الدولة الصفوية مع هولندا

بدأت محاولات الهولنديين في الوصول إلى الشرق عام 1595م ثم انطلقت الرحلات المنظمة منذ عام 1598م تحت قيادة البحار كورنيلوس دي هوتمان، وكان مقصدهم الجزر الهندية. وقد أدى ذلك إلى اصطدامهم بالبرتغاليين، فنشبت بينهما على الفور معارك صغيرة فيما قتل بعض مبعوثيهم الأوائل إلى هناك على يد قوى محلية بتحريض البرتغاليين[72]. ولا بد من الإشارة إلى أن تتابع وصول القوى الأوروبية بأساطيلها عقب اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح وفرضهم الهيمنة على طرق التجارة مع الهند والخليج أدى إلى إزاحة النفوذ البرتغالي والإسباني تدريجيا، واختلفت سياسة الدول المستعمرة عما انتهجه البرتغاليون في مستعمراتهم الشرقية، حيث عرفت عنهم الغطرسة والقسوة، واحتكار المنافذ البحرية، في حين مال الهولنديون والإنكليز والفرنسيون إلى نهج جديد قائم على توسيع المستعمرات والإفادة من مواردها لا من تجارتها فقط، أما سياسة أعالي البحار فقد بنيت على قواعد المشاركة والتنافس وليس الاحتكار وإغلاق المنافذ ومسالك التجارة الدولية[73]. ولكن هذه السياسة لم تمنع من وقوع التصادم فيما بين هذه القوى الجديدة نتيجة لتعارض مصالحها مع مرور الوقت وترسيخ أقدامها في المنطقة. وفي هذا السياق كان وصول الهولنديين متزامنا مع الصراع البريطاني البرتغالي في الخليج، فدخلت السفن الهولندية إلى جانب السفن الإنكليزية في مواجهة البرتغال، ولكن هذا الحلف كان قصيرا فبعد ضعف النفوذ البرتغالي تحول التحالف إلى الصراع فيما بينهما.

العربي والصراع الدولي المعاصر، مكتبة دار العروبة، الكويت، طبعة 1989م، ص 13.

(71) - د. هشام سوادي: النشاط التبشيري الأمريكي في شمال غرب بلاد فارس، مجلة دراسات إقليمية العدد الخامس، حزيران (2006م)، ص 147.

(72) - انظر: عيسى أمين، مصدر سابق، ص 56.

(73) - د. صلاح العقاد : الاستعمار في الخليج الفارسي، المكتبة الإنجلو مصرية سلسلة الألف كتاب، رقم121، مطبعة الرسالة، ص 7.

بدايات العلاقات الصفوية - الهولندية

كانت هولندا تابعة للتاج الإسباني، الأمر الذي وقف عائقا دون تنمية تجارتها حيث أحكم الإسبان والبرتغاليون سيطرتهم على طرق ومنافذ التجارة مع الهند، ولم يسمحوا بمنافستهم في هذا المجال، غير أن انفصال هولندا عن العرش الإسباني نهاية القرن السادس عشر دفع الهولنديين باتجاه الشرق[74]، وكانت الدوافع في الأساس دوافع اقتصادية على عكس الدوافع البرتغالية والإسبانية كما مر بنا في مواضع سابقة، فالسياسة الإسبانية ضد هولندا كانت مبنية على ممارسة الضغوط الاقتصادية عبر منع الهولنديين من الحصول على البضائع الشرقية، وإغلاق ميناء لشبونة بوجه التجار الهولنديين، ورفع أسعار السلع المباعة لهم، فدفعهم كل ذلك إلى التفكير بالاتصال المباشر مع الهند[75]، ويعد تحقق وصولهم إلى المنطقة بدأت الشركات الهولندية التجارية تزاول أعمالها في أكثر من مكان، وراحت أساطيل السفن تتابع على الخليج العربي ما بين 1598م إلى 1603م، الأمر الذي دفع الحكومة الهولندية إلى توحيدها فيما يعرف بشركة الهند الشرقية الهولندية[76]، والتي ضمت سبع شركات وغرف تجارية ساهمت في حصص مالية مختلفة، كما كان للبرلمان الهولندي حصة محددة، وعندها تمكن الهولنديون من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب المنافسين البرتغاليين والإسبان والإنكليز، ونشبت بينهم معارك كانت لصالح هولندا، وراحت شركة الهند الهولندية تحصد أرباحا طائلة، ليتأجج الصراع بين الهولنديين من جهة والإسبان والبرتغاليين من جهة أخرى، حتى تمكنت هولندا تدريجياً من الاستيلاء على مناطق النفوذ الاستعماري لهما، وانتهت في عام 1653م بالسيطرة على رأس الرجاء الصالح، لتصبح كل المستعمرات البرتغالية القديمة في أيديهم[77]، وهنا كان لا بد أن تتعامل الدولة الصفوية مع اللاعب الجديد فضلا عن الوجود الإنكليزي، منذ دخوله إلى الخليج حتى فرض سيادته على عموم المحيط الهندي والخليج العربي، حيث كان القرن السابع عشر هو عصر السيطرة الهولندية وقد ساد الربع الأول منه التقارب الواضح بين الهولنديين والإنكليز لما كان بينهما من هدف مشترك في طرد البرتغاليين.

محاولات إشراك هولندا في الصراع العسكري

إن الحرب التي كانت قائمة بين العثمانيين والصفويين تعود هنا لتلعب دورا مهما في فسح المجال للتواجد الهولندي، فقد غض الشاه عباس النظر عن تأسيس هولندا لمركز تجاري في بندر عباس عام 1623م، والتي كانت ترى - أي هولندا- في ذلك امتيازا طبيعيا لها بعد مشاركتها في قتال البرتغاليين وإخراجهم من هرمز إلى جانب الإنجليز، ففي ذلك الوقت كان الشاه عباس منهمكا في مقاتلة العثمانيين ولم يكن لديه خيار للاعتراض على التواجد الهولندي[78]. وبعد عودة الشاه منتصرا من بغداد أرسلت هولندا وفدا تجاريا من قبل شركة الهند الشرقية الهولندية، والذي قوبل بالترحاب وتم عقد مفاوضات بين الجانبين تكللت

(74) - عصام خليل محمد إبراهيم الصالحي: مرجع سابق، ص451.

(75) - عادل محمد: الصراع البرتغالي - الهولندي في المحيط الهندي، مجلة سر من رأى، المجلد الثاني العدد 3، أيلول (2006)، ص 83.

(76) - فلسفي: ص 206.

(77) - المصدر السابق: ص 207.

(78) - المصدر نفسه.

باتفاق على منحهم كمية من الحرير كل عام وإعفائهم من الرسوم[79]. ثم أرسلت الحكومة الهولندية وفدا آخر عام 1624م توصل معه الشاه إلى عقد اتفاق تألف من عشر نقاط أغلبها تمثل امتيازات تجارية للهولنديين، كإعفائهم من الضرائب وحرية تنقلهم في الأراضي الإيرانية، و بناء الكنائس وتوفير الحصانة القانونية لمركز شركة الهند الشرقية الهولندية في أصفهان[80]. وهذه المرونة الواسعة والمكاسب التجارية الكبيرة للجانب الهولندي لم يكن ليقدمها الشاه عباس لولا أنه كان يعدها بمثابة الإغراء والاستدراج للهولنديين بغية التعاون في المجال السياسي والعسكري بوجه العثمانيين، ولهذا ما لبث أن أرسل مبعوثه إلى الملك الهولندي لأجل عقد اتفاقية قائمة على أساسين: قطع العلاقات السياسية بين هولندا والدولة العثمانية والتعاون العسكري مع إيران لأجل طرد البرتغاليين من مسقط وعمان. ومن جديد يخطئ الشاه عباس في تقدير حقيقة نوايا الأوروبيين وفهم سياسات دولهم، حيث اعتذرت هولندا عن تنفيذ أي من هذين المطلبين اللذين تقدم بهما الشاه، والواقع أن الهولنديين مما عرف عنهم هو تقديمهم لمصالحهم التجارية إلى أقصى حد، وقد تمكنوا من المحافظة على هذه المصالح مع الدولة العثمانية بشكل لم يخل من الإهانة، حيث كان سفراء هولندا في إسطنبول يتعرضون إلى شتى الإهانات. ويشترك البريطانيون معهم في هذه الخصيصة كما أشرنا سابقا، ومما يؤثر عن حاكم روسيا بطرس الأكبر أنه كان على قناعة بوجوب الحذر في التعامل مع الإنجليز والهولنديين لأنهم يؤثرون مصالح تجارهم على مصالح حلفائهم[81]. ولهذا فقد كان الصراع الصفوي - العثماني من وجهة نظر ملك هولندا معرقلا لبعض مصالح بلاده في تلك الفترة من بداية القرن السابع عشر، وكان يميل إلى سياسة متوازنة في علاقات هولندا الخارجية بهذين الطرفين، لهذا دأب على المماطلة مع الشاه بخصوص مطالبه بقطع العلاقات مع العثمانيين وتقديم المساعدة العسكرية له في عمان، وتجلى ذلك في وعد بإرسال مبعوث خاص لمناقشة المطالب الصفوية، غير أن هذا المبعوث لم يصل إيران، فاضطر الشاه عباس إلى إرسال وفد للاستفسار عن سر هذا التأخير غير المبرر، وحمل الوفد رسالة فيها تلويح بقطع العلاقات مع هولندا، وقتها كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تحقق مكاسب متصاعدة، وأوشكت أن تمسك بأغلب تجارة إيران الخارجية، ولهذا السبب اضطر الملك الهولندي بعد تهديد الشاه بقطع العلاقات إلى الرضوخ للمطالب السابقة وأرسل مبعوثا يحمل الموافقة على تلك المطالب، إلا أن هذه الرسالة وصلت بعد وفاة الشاه عباس بشهرين ونصف [82].

تعزيز العلاقات التجارية

تعززت الروابط التجارية بين إيران وهولندا في عهد الشاه صفي، وكان هدفهم الأهم هو إخراج الإنكليز من المراكز التجارية الإيرانية ومن الخليج بشكل عام، ومع أن الشاه صفي أعاد صياغة بعض بنود الاتفاقات السابقة وفرض شروطا جديدة على تجارة الحرير لحفظ مصالح الدولة الصفوية، إلا أنه جدد عقد الامتياز للشركة الشرقية الهولندية، وفي تلك المرحلة تحول جزء كبير من تجارة بلاد فارس إلى يد الهولنديين، واحتكروا العديد من البضائع وكانت سفنهم التجارية تخوض غمار البحر الهندي والخليج بنشاط مميز،

---

(79) - محمد سهيل طقوش: ص 205.

(80) - فلسفي: ص 208.

(81) - إدريس الناصر: مصدر سابق، ص165.

(82) - محمد سهيل طقوش: ص 207.

حتى إنهم في عام 1641م أخذوا يبيعون السلع الأوروبية بأسعار أقل من كلفتها الحقيقية لأجل الإمساك بالسوق الإيرانية والبضائع الأجنبية المصدرة إليها[83]. بعد وفاة الشاه صفي عام 1642م/ 1052هـ اعتلى العرش الشاه عباس الثاني، وبعد ثلاثة أعوام منح الهولنديين حق امتياز تصدير الحرير الفارسي من جميع الموانئ الخاضعة للسيطرة الصفوية، وإعفائهم من الضرائب [84]، فتعاظم النفوذ الهولندي واتسع نشاطهم التجاري بشكل لم يسبق له مثيل[85]. والحقيقة أن ذلك الامتياز حدث على إثر اتفاق بين الشاه عباس الثاني والهولنديين عقب ظهور بوادر تهدد مصالحهم، فحركوا سفنهم الحربية باتجاه جزيرة قشم، ولكنهم أخفقوا في الاستيلاء عليها فاضطروا إلى مصالحة الشاه، والاتفاق من جديد على تثبيت امتيازاتهم الخاصة. شهد الثلث الأخير من القرن السابع عشر صراعاً وحروباً بين هولندا وبريطانيا تارة وهولندا وفرنسا تارة أخرى، وقد أدى ذلك إلى ضعف النفوذ الهولندي وتراجع قوتهم في الخليج، وفي عام 1664 م ظهرت إلى الوجود شركة أخرى منافسة، هي شركة الهند الشرقية الفرنسية، لتكون منافسا جديداً على التجارة في المحيط الهندي والخليج. أي قبل عامين من وفاة الشاه عباس واعتلاء الشاه سليمان للعرش الصفوي الذي كان يسمى في البداية بالشاه صفي الثاني، وفي عهد هذا الشاه تراجعت التجارة الهولندية في إيران، وكان السبب الرئيس في ذلك هو تلك الحروب التي اشتعلت في أوروبا بين هولندا وفرنسا ودول أخرى أواخر العقد السادس من القرن السابع عشر، حيث انعكست الظروف الداخلية في هولندا على تجارتها، ولم يستطع التجار الهولنديون أن يستوردوا من الحرير الفارسي أكثر من ثلاثمائة بالة في العام.

توتر العلاقات الصفوية - الهولندية

وسط هذا التراجع للتجارة الهولندية وظهور منافسين أقوياء تعالت شكاوى التجار الهولنديين، واتهموا الحكومة الصفوية بأنها تبيعهم حريرا بمواصفات سيئة يتسبب في خسارتهم، وبفعل هذه الظروف مجتمعة أقدمت البحرية الهولندية على محاصرة ميناء بندر عباس وقصفه بالمدفعية في محاولة منها للاستيلاء على جزيرة قشم، وإزاء هذه الخطوة التي حاولت من خلالها هولندا الضغط على الشاه لمنحها امتيازات إضافية لتجارها دعت الحكومة الصفوية الشركة الشرقية إلى إرسال مبعوث للتفاوض، ولكن هذا المبعوث مكث في أصفهان ثلاثة أعوام دون أن يسأله أحد لماذا جئت؟! فاضطر الهولنديون عندها للانسحاب من قشم لما كان يتسبب به تواجدهم فيها من نفقات مالية كبيرة.[86]

بعد وفاة الشاه سليمان استلم الشاه حسين مقاليد الحكم، وقد سبق لنا القول إن الشاه حسين كانت له ميول باتجاه الإنكليز على حساب الهولنديين، ولهذا عادت العلاقات الإنكليزية الصفوية إلى التحسن، ففي عام 1697م حصلت شركة الهند الإنكليزية الشرقية على امتيازات مهمة رغم الضغوط التي مارستها الشركة الهولندية، وفي هذا العهد انتهت العلاقات بين الدولة الصفوية وهولندا، بعد أن ساءت علاقتها مع الشاه حسين، ولأن عهده كان بمثابة النهاية الفعلية للدولة الصفوية بعد احتلال الأفغان لأصفهان، رغم أنها بقيت شكليا لأربعة عشر عاما أخرى.

---

83 - فلسفي: ص 211.

(84) - كان المتبع في الدولة الصفوية أن الاتفاقات والامتيازات مع الدول الأجنبية تكون في حكم الملغاة بصورة مؤقتة بعد وفاة الشاه حتى يوقع على تجديدها الشاه الجديد.

(85) - عصام خليل محمد إبراهيم الصالحي: ص 452.

(86) - فلسفي: ص 222.

المطلب الخامس

علاقات الدولة الصفوية مع روسيا

لم تكن هناك أية صلات ذات أهمية بين الدولة الصفوية وروسيا منذ بداية ظهور الصفويين وحتى عهد الشاه عباس الأول، فقد أراد الشاه عباس أن يستميل روسيا إلى جانبه على نحو ما كان يحاوله مع الدول الأوروبية الأخرى، ولهذا أرسل في السنة الثانية من حكمه وفدا إلى موسكو، معربا عن رغبته بتوطيد العلاقات الودية مع الروس والوقوف معاً ضد الدولة العثمانية، واقترح شراء الدروع منها[87]، وتبدو هناك ثلاثة دوافع رئيسة دفعت بالشاه عباس لإقامة علاقات مع موسكو، أولها أنها الطريق الذي كانت تسلكه البعثات والوفود الصفوية إلى أغلب البلدان والدول الأوروبية، والثاني أنها مثلت طريقاً تجارياً أيضاً خاصة لتصدير الحرير الفارسي بعد أن منعت مروره الدولة العثمانية عبر العراق وحلب، والثالث هي ثورة أحمد خان الكيلاني[88]، والذي كانت له ارتباطات مع الروس [89]، ما دفع الشاه لإيجاد علاقات ودية ومصالح مشتركة تخدمه مع روسيا، التي ردت على رسائله ومبعوثيه بإرسال بعثة مكونة من 75 شخصا مات أغلبهم عقب الرحلة التي قاموا بها نحو قزوين عاصمة الدولة الصفوية التي وصلوها عام 1597م/1006هـ ولم يعد منهم سوى اثنين إلى موسكو. وفي عهد الشاه عباس الأول لم يستمر تطور العلاقة الصفوية الروسية إذ حدثت أزمة مالية خانقة في روسيا دفعتها إلى طلب المساعدة من الشاه عام 1618م بيد أن الطلب الروسي لم يواجه إلا بالتجاهل، الذي مثل مفاجأة للروس وعلى أثره توقفت الاتصالات الودية بين الجانبين[90]. واستمر الفتور حتى عهد الشاه عباس الثاني حيث أرسلت روسيا سفيرها محملا برسالة من القيصر تؤكد على الرغبة في بناء علاقات ودية وطيدة، ولكن الأمور لم تتطور أيضاً بشكل إيجابي برغم إظهار الطرفين للرغبة الحقيقية في ذلك، فسرعان ما عاد التوتر ليكون سمتها ، فقد كانت مسألة جورجيا حاضرة لتلقي بظلها الداكن على العلاقة بين الدولة الصفوية وروسيا، والحقيقة أن الساحة الجورجية كانت ساحة مفتوحة للصراع بين الصفويين والعثمانيين، فقد رأى كل منهما فيها منطقة نفوذ حيوية لفرض السيطرة على ما وراء القوقاز، كذلك لعب العامل الديني دوراً أيضاً، إذ إن الشاه إسماعيل كان يرى الجورجيين كفارا يجب قتلهم[91]، وهو أمر يبدو غريباً نوعاً ما للوهلة الأولى، كون غالبية سكان جورجيا مسيحيين، وقد مر بنا أن الشاه الصفوي كان منفتحا على المسيحيين لأسباب تتعلق بتوطيد

---

(87) - عباس الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق، ص 148.

(88) - خان أحمد الكيلاني الشريف الحسيني، سلطان بلاد كيلان، من بيت السلطنة أبا عن جد، كما يترجم له في خلاصة الأثر، وكان أحمد خان في السجن أثناء حكم الشاه إسماعيل، وبعد وفاته قام خدا بنده بإخراجه من السجن وإرساله حاكما على منطقة كيلان، ثم تواطأ مع العثمانيين أثناء احتلالهم لأجزاء واسعة من إيران والعراق، وفي عهد الشاه عباس الأول تم استرجاع كيلان فهرب أحمد خان إلى العثمانيين ثم إلى بغداد حيث توفي فيها. انظر: السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج-2 ص511.

(89) - عباس الموسوي وكمال السيد: مصدر سابق.

(90) - محمد سهيل طقوش: ص108.

(91) - باسم حمزة عباس: إيران في عهد الشاه طهماسب الأول - كلية الدراسات التاريخية، جامعة البصرة مجلة الخليج العربي، المجلد 40، العدد (1 و 2)، (2012). ص 25.

علاقته مع الدول الأوروبية ونزاعه المذهبي السياسي مع العثمانيين، وقد يكون التبرير الوحيد المقبول هو أن ثمة إرثاً من العداء حكم تلك العلاقة، فقد كانت جورجيا هدفاً جهادياً للحركة الصفوية، وقد نجح الصفويون مرة واحدة في تنصيب حاكم مسلم هو الأمير كستنديل خان الذي أطيح به بسبب كونه مسلما[92]. كما أن الهدف السياسي من وراء الانفتاح الواسع للحكام الصفويين تجاه المسيحيين لغرض خطب ود أوروبا لم يكن ذا مغزى في جورجيا، والتي برغم كل ما ذكرناه أعلاه كانت في فترات عديدة أقرب إلى الدولة الصفوية منها إلى الدولة العثمانية، والتي حاولت هي الأخرى الاستيلاء على جورجيا ونشر الإسلام فيها. والمهم في قضية جورجيا أنه تسببت في فتور العلاقة بين الصفويين وروسيا، حيث اعتاد الجورجيون منذ الغزو المغولي على التوجه إلى روسيا لطلب المساعدة العسكرية منها[93]، ولهذا فبعد عودة العلاقات الدبلوماسية وإرسال السفراء في عهد الشاه عباس الثاني ما لبثت أن رجعت الأمور إلى مربعها الأول، على أثر شروع الروس ببناء قلاع على الحدود داخل جورجيا لتكون منطلقاً لهجمات توسعية، وقد جاء ذلك استجابة لتحريض بعض الجورجيين المعادين للدولة الصفوية[94]. ويبدو أنه بعد ذلك وحتى سقوط الدولة الصفوية بشكل حقيقي لم تكن العلاقات مع روسيا قد شهدت أية تطورات مهمة يمكن الإشارة إليها، ويعود حضور روسيا في الحديث عن تاريخ الدولة الصفوية من جديد أثناء انهيارها بعد غزو الأفغان، حيث أثار هذا الضعف المريع للصفويين وتوسع العثمانيين على حسابهم طموحات لدى روسيا، كالسيطرة على بحر قزوين ومناطق مهمة كانت تحت السيطرة الصفوية، فضلا عن طموحات اقتصادية تجاه الحرير الفارسي وتجارته وصولاً إلى الهند، إلا أن التقدم السريع والواسع للجيش العثماني حد من تلك الطموحات، ولم يكن وقتها القيصر الروسي بطرس الأكبر راغباً في مواجهة الجيش العثماني الأكثر عدة وعتادا، فآثر التوقف. وحين استمر العثمانيون في التوسع داخل الأراضي الإيرانية أرسل الشاه طهماسب الثاني رسالة إلى القيصر يدعوه فيها إلى مساعدته في قتال العثمانيين، ووافق القيصر مقابل شرط الاستيلاء على مناطق أستر آباد ومازندران وجيلان، لكن طهماسب رفض هذا الشرط. وفيما بعد أبرم العثمانيون والروس اتفاقية برعاية فرنسية نصت على احتفاظ كل منهما بما سيطرا عليه من الأراضي الإيرانية، والوقوف معا بوجه أي محاولات من قبل طهماسب لاسترجاعها.

تقييم عام للعلاقة الصفوية مع أوروبا

يبدو واضحاً للباحث مما تقدم سرده فيما يختص بعلاقة الدولة الصفوية بالدول الأوروبية أنها علاقات كانت خاضعة لتأثير عاملين أساسيين، الأول هو وصول الأوروبيين عبر سفنهم إلى الخليج والمحيط الهندي بعد اكتشاف الطريق الملاحي عبر رأس الرجاء الصالح، وهو ما مهد للغزو الاستعماري الغربي، والذي كان من أولوياته المصالح التجارية واستغلال مقدرات الشعوب الأخرى في آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا، وقد كانت هذه الأهداف تقتضي أن تمارس الدول الأوروبية سياسة قائمة على تأجيج الصراع الإسلامي - الإسلامي الذي تمثل بالصراع بين العثمانيين والصفويين، ولهذا لم

(92) - عباس الموسوي وكمال السيد : ص 141.

(93) - باسم حمزة عباس: مصدر سابق.

(94) - عباس الموسوي وكمال السيد: ص213.

تبرم أي من الدول الأوروبية حلفاً حقيقياً مع أحد هذين القطبين بوجه الآخر، ومالت إلى سياسة تلبي مصالحها الاقتصادية وأهدافها الاستراتيجية البعيدة المدى، فلم تغنم الدولة الصفوية التي اضطرت تحت وطأة التهديدات العثمانية المتزايدة واحتلال الأخيرة لأراضي الأولى أية مكاسب حقيقية على الصعيد السياسي والعسكري، واكتفت بتلقي الوعود وانتهاج سياسة التسويف والمماطلة، في وقت كانت تحرص أيضاً على عقد المعاهدات التجارية مع الدولة العثمانية ذاتها، وبرغم أن الاتفاقيات والمعاهدات والمرونة الواضحة التي أبداها الصفويون في أغلب مراحل علاقتهم بالدول الأوروبية كانت تصب في صالح الدولة الصفوية بقدر ما تلبي قدراً من الطموحات والمصالح الاقتصادية لأوروبا، إلا أنها على صعيد التعاون العسكري كانت ذات نتائج وآثار محدودة، خاصة على العثمانيين، ومن جانب آخر فإن ما يبدو من ميل للصفويين باتجاه أوروبا بالضد من الدولة العثمانية فهو في الحقيقة لم يكن خارج الإطار المنطقي والتقليدي في العلاقات الدولية في مثل تلك الظروف التي كانت تمر بها الدولة الصفوية لاتقاء تهديدات العثمانيين.

أما الفاعل الآخر في العلاقة الصفوية الأوربية فهو العامل الديني، الذي تمثل عبر مستويين أو إطارين متداخلين نوعا ما، الأول التبشير المسيحي الذي كان ملوك أوروبا يعتبرونه غاية أصيلة في تحركهم باتجاه المنطقة، والذي أخذ أبعاداً مختلفة أكثر إلحاحاً بعد طرد بقايا المسلمين من الأندلس عام 1609 م على أثر اليأس من القدرة على تحويلهم إلى المسيحية، والذين بلغ عددهم أكثر من نصف مليون مسلم[95]، وهو ما ولد شعوراً مزعجاً بالعجز لدى الأوروبيين فانطلقوا بإصرار جاعلين التنصير غاية من الغايات الأساسية لاكتشافاتهم البحرية. فيما كان الإطار الآخر الذي وقعت فيه العلاقة مع الصفويين من وجهة النظر الأوروبية هو الصراع المذهبي للصفويين مع العثمانيين، وهو يعيدنا إلى الفاعل الأول في هذه العلاقة وأعني به المصالح الاستعمارية، فقد أدرك الأوروبيون منذ التوغل البرتغالي في المنطقة بأن النزاع بين الدولة الصفوية والعثمانية ذو طابع ديني مذهبي، وكان عليهم استغلال ذلك إلى أقصى الحدود الممكنة واستدامته خدمة للمصالح الدينية والسياسية والاقتصادية.

(95) - أنور الجندي: تاريخ العلوم والمناهج، المجلد الأول: تاريخ الإسلام، دار الأنصار، طبعة 1979ص 367.

الخاتمة

النتائج

لقد شكل ظهور الدولة الصفوية المختلفة مذهبياً عن الدول الإسلامية إبان القرن السادس عشر حدثاً بارزاً ألقى بظلاله على العلاقات الدولية، فقد لعب العامل الديني المذهبي دوراً واضح التأثير في العلاقات الدولية منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي إلى الربع الأول من القرن الثامن عشر، واتسمت العلاقات الخارجية للدولة الصفوية بكونها علاقات وقعت تحت تأثير هذا العامل سواء علاقاتها الإقليمية أوالدولية.

وقد خلص الباحث إلى النتائج التالية:

بعد دراسة تاريخ الصفوية وتتبع سير حركة الصفويين وتطورها وظروف قيام دولتها، نستنتج أن الشاه إسماعيل لم يكن أساساً من هواة التوظيف الديني والسعي نحو تزعم العالم الإسلامي وخلافته، أوالبحث عن فتوحات إسلامية بالضد من الغرب، ولم يكن يحمل وعياً وطموحاً سياسيا كهذاً، بقدر ما كان التوظيف المذهبي بدوافع مختلفة، ومنها:

- الانتقام من قتلة أسرته وتحقيق طموحهم في إنشاء إمارة مستقلة تجمع شتات أتباع الطريقة الصفوية. ويمكن القول إن رغبة الانتقام من قتلة الأسرة الصفوية كان عاملاً سيكولوجياً تعزز تأثيره بمرور الوقت وتوسع ليشمل كل من همّش وأقصى الشيعة و ظلمهم، مع تحميل مخالفيهم في المذهب على كل أوزار وخلافات التاريخ.

- ثم توسع الطموح لكي يشمل جميع إيران بل جميع أتباع المذهب الشيعي فيها وفي الأناضول والعراق.

- تم الحفاظ على استقلالية البلاد وتعميم الطريقة والمذهب فيها.

ولذا نراه هو ومن جاء بعده من حكام الدولة الصفوية أكثر انفتاحاً من العثمانيين على الغرب المسيحي، ففسحوا المجال أمام الحرية الدينية حتى قاموا ببناء كنائس واحتضان وفود كنسية وبابوية في عواصمهم، و خاصة في زمن شاه عباس الأول وفي عاصمته أصفهان.

إن فرض التشيع مذهباً رسمياً للدولة الصفوية أثار ردود فعل تراوحت بين الحذر الشديد والتحفظ في بداية نشوء الدولة الصفوية، ويبرز ذلك لدى قوتين كبيرتين هما السلطنة العثمانية ودولة المماليك، فيما كان موقف الأوزبك شديد العدائية منذ البداية. وقد تطور الموقف بالنسبة للدولة العثمانية بمجرد استلام السلطان سليم الأول للحكم، وتجمعت عوامل شخصية وموضوعية، داخلية وخارجية باتجاه نشوب صراع دام بين الطرفين العثماني والصفوي، ومع كل ذلك بقي العامل المذهبي شديد الحضور في تحديد مسارات العلاقة بين الدولتين، واستمر ذلك حتى سقوط الصفويين، تخللت تلك المدة التي زادت عن القرنين اتفاقيات ومعاهدات سلام، ولكنها لم تستطع إلغاء مشاعر التعصب المذهبي لدى الحكومتين.

إن الصفويين والعثمانيين برغم التشابه العقدي كانوا قد انفصلوا في المسار التاريخي لكي يلتقي في النهاية أحدهما بالتشيع والآخر بالتسنن، بشكل صارخ ومتطرف. ويرى الباحث أن لذلك التحول

مبرراته وأسبابه، إذ فرضت المصالح السياسية كلمتها. ولهذا خلعت الدولتان رداء التصوف المعتدل القريب من التشيع لكي تحمي نفسها خلف المؤسسة الدينية الرسمية (الشيعية والسنية)، لأن العقائد البكتاشية والصفوية لم تكن قادرة على إقناع الأغلبية، وعاجزة عن سن القوانين والنظم كما في الفقه والشريعة، ومن خلال الفقهاء والمؤسسة الدينية، وبالفعل وفرت المؤسسة الدينية للدولتين غطاءً شرعياً وحزمة قوانين وعصبية مذهبية وتحشيداً جماهيرياً.

فمن الناحية السياسية كان لإمارة العثمانيين الصغيرة أن توسعت بشكل متسارع تحت يافطة الجهاد وحفظ الثغور الإسلامية، وحققت فتوحات عظيمة على حساب أوروبا والغرب المسيحي، قبل أن تغير مسارها نحو الشرق الإسلامي مع بدايات صعود وتنامي قوة الصفويين، وتمكنت من استغلال ضعف الدول السنية الأخرى (المماليك والآق قيونلو) لكي تستبدل بالفتوحات شعار الحفاظ ورعاية العقيدة السنية وأهل السنة والجماعة، وبذلك حققت لنفسها مكانة مرموقة وضمت إليها أغلب الجغرافيا الإسلامية تحت عنوان الخلافة. إن الحفاظ على أراضي الدولة الشاسعة وتحقيق الانسجام الداخلي بين جميع القوميات المنضوية تحت الخلافة العثمانية ألجأت العثمانيين إلى إدامة زخم التركيز الجماهيري على أعداء الداخل (الصفويين الشيعة) من خلال توظيف الحساسيات المذهبية والدينية والانحياز والتطرف الكامل نحو التسنن، رغم تقارب البكتاشية من التشيع وسيرتهم المعتدلة وسلوكهم المنصبّ نحو الفتوة و الأخلاق.

لهذه الأسباب نرى بأن الدولة العثمانية ولسعة طموحاتها تمكنت من الاستمرارية أضعاف المدة التي حكم فيها الصفويون، بنظرتهم الضيقة واكتفائهم السياسي وزهدهم الجغرافي، وقد كُتبت الغلبة للعثمانيين في غالبية حروبهم مع الصفويين بسبب: الجغرافيا وعدد السكان والعصبة المذهبية العددية والطموح السياسي الواسع، وهو طموح لايقاس به ما لدى الصفويين فالعثمانيون كانوا يسعون إلى التوسع نحو الشرق والغرب واتساع رقعة خلافتهم وتثبيت ركائز إمبراطوريتهم، في حال أن الصفويين بقوا ضمن رقعتهم الجغرافية.

لقد كان لتوظيف البعد المذهبي لأغراض سياسية بين الصفويين والعثمانيين في القرن السادس عشر الميلادي آثار خطيرة فاقمت من المشاكل المذهبية في المنطقة والتي تعاني منها حتى اليوم، وكانت الفتاوى التكفيرية من قبل المؤسسة الدينية التابعة للعثمانيين ذات تأثير واضح ما زال قائماً، حيث يلاحظ إعادة اجترار لهذه الفتاوى ونشرها خلال السنوات الماضية. فيما كان لإقحام الصفويين للمذهب الشيعي كمذهب رسمي يلبي أغراضهم ومصالحهم السياسية آثاره السلبية أيضا، وبقيت التهم التي طالت الشيعة تستند إلى سياسات الصفويين وبعض من الآراء التي ظهرت في عهدهم، مع ما مر بنا في البحث من أن المؤسسة الشيعية نأت بنفسها عن الصفوية فيما كان القسم الذي تعاون مع الصفويين لم يعترف بشرعيتهم السياسية، وثمة ما يدل على أنه أسهم في تقليل غلواء التطرف الصفوي.

لم تقتصر تأثيرات الاختلاف المذهبي على العلاقات الصفوية بدول الجوار السني، بل ألقت بظلالها الواضحة أيضا على طبيعة العلاقات بين العالم الإسلامي وأوروبا، وإنما تمكن الباحث من استنتاجه من استقراء تاريخ علاقات الدولة الصفوية بالدول الأوروبية ما يلي:

1. كانت الدولة الصفوية بشكل عام هي المبادِرة إلى إقامة علاقات مع مختلف الدول الأوروبية. ويبرز ذلك بوضوح منذ عهد الشاه إسماعيل الأول، كما أن الدول الأوروبية منذ بدء دخولها إلى المنطقة عقب اكتشاف طريق التجارة البحري عبر رأس الرجاء الصالح، كانت قد أدركت قيمة المراكز التجارية على الخليج العربي والتابعة لبلاد فارس، ومدى الموقع الاستراتيجي الذي يمثل عنصر قوة الدولة الصفوية منذ نشأتها، الأمر الذي دفعها إلى إقامة روابط تجارية وسياسية معها.
2. إن الدوافع التجارية والدينية تبدو سبباً مؤكداً وواضحاً وراء السعي الأوروبي للعلاقات مع الصفويين، ويبدو العامل الديني متفرعا إلى رغبتين: الأولى نشر المسيحية خارج أوروبا، وقد سادت هذه النزعة التبشيرية في عموم البلدان الأوربية منذ الحروب الصليبية، وتعززت بفعل الكشوف البحرية التي قام بها البرتغاليون والهولنديون والإسبان، والثانية مواجهة الخطر العثماني لاسيما بعد سقوط القسطنطينية، ويبدو أن الأوروبيين وفي مقدمتهم البرتغاليون قد أدركوا بالفعل حجم الخلاف المذهبي الذي اجتاح العالم الإسلامي، وبين أقوى قطبين فيه، الصفويون والعثمانيون، ولهذا لعب الخلاف المذهبي بين هاتين القوتين في العالم الإسلامي دوراً محورياً هاماً في نتائجه المباشرة على تشكيل طبيعة العلاقات الدولية في العالم آنذاك، وقد استثمرت أوروبا المسيحية هذا الخلاف وشجعته لإضعاف العثمانيين وإشغالهم بجبهة مواجهة شرقية مع الصفويين. والحقيقة أن السياسة الاستعمارية لأوروبا كان من أهم أولوياتها تشجيع النزاعات والصراعات داخل العالم الإسلامي باعتبارها الوسيلة الأكثر نجعا في فرض الهيمنة والسيطرة على عموم البلدان الإسلامية، ويمكن القول إن جزءاً كبيراً من هذا الهدف قد تحقق مع انهيار الدولة الصفوية بداية القرن السابع عشر وضعف السلطنة العثمانية بعد ذلك بقرن من الزمان.
3. لقد كان اندفاع الدولة الصفوية قويا ومتحمسا في تشكيل حلف عسكري لمواجهة العثمانيين والظفر بتسليح أوروبي عالي المستوى يضاهي التسليح العثماني، بيد أن الدول الأوروبية لم تذهب في أغلب مراحل علاقتها مع الصفويين إلى تلبية تمام هذه الرغبة، وفضلت نوعا من الموازنة بين مصالحها الاقتصادية والتجارية وبين رغبة الصفويين في مواجهة النفوذ العثماني والحد منه، واكتفت بمواجهات محدودة هنا وهناك عند الضرورة. وهذا الموقف بُني على أساس واضح هو خدمة الأهداف التوسعية للأوروبيين الذين بدأت تطلعاتهم في الهيمنة متزامنة مع ظهور الصفوية بعد اكتشافهم طرق جديدة للملاحة والتجارة العالمية.

النظرة المستقبلية

تستدعي الظروف الراهنة التي تسود منطقة الشرق الأوسط الباحث إلى عقد مقارنة بين المرحلة الراهنة ومرحلة الصراع الذي كان قائما في القرن السادس عشر الميلادي بعد ظهور الدولة الصفوية، حيث تظهر وجوه شَبَه عديدة بين هاتين المرحلتين، وبالطبع فقد يكرر التاريخ نفسه، فهذه المقولة تصح ما إن تتوفر ذات الظروف والحيثيات والمواقف وإن كانت بقوالب وأطر جديدة، وقد تقود إلى النتائج التاريخية نفسها، أوتزيد من ترسيخ وقوة تلك النتائج وتراكماتها. ويمكن تحديد القواسم

والملامح المشتركة بين مرحلة الصراع الصفوي العثماني والصراع المتعدد الجبهات في الوقت الحاضر، ليتسنى طرح بعض التصورات والتوصيات التي يمكن الأخذ بها، بل وضرورة تطبيقها لتجنيب المنطقة مستقبلاً غير سار في تبعات ونتائج هذا الصراع.

إذ يعتقد الباحث أن الصراع المذهبي الحاد والمكشوف والمحتدم الذي حصل بين الدولتين الصفوية والعثمانية قد ألقى بظلاله على الواقع حتى يومنا هذا، ومن المؤكد أن دراستنا لتلك الحقبة التاريخية الحساسة قد تساعدنا على تحليل وفهم ما يجري في ساحتنا اليوم، وما تعاني منه الشعوب الإسلامية في هذه المنطقة.

فبالنسبة للعلاقة بين إيران وتركيا نرى بوضوح أن تقارباً حصل في ظل الحكومات العلمانية، و خاصة في فترة أتاتورك - البهلوي، حيث تقاربت الدولتان على أنقاض دولهما الإسلامية السابقة وتحت راية علمنة تركيا وإيران، بينما عاد التنافس والاحتكاك بين إيران الإسلامية وتركيا بإدارتها ذات الميول الإسلامية الإخوانية لاسيما في السنوات العشر الماضية، ما يعني أن الخلفية المذهبية المختلفة عادت لتكون حاضرة للتحكم بطبيعة العلاقة وتحديد مسارات تطورها أوتراجعها، بناء على تقارب المواقف أوتنافرها الشديد إزاء القضايا ذات الأهمية للطرفين، وبإلقاء نظرة سريعة نجد أن من أبرز القضايا الراهنة محط الاختلاف هو الموقف تجاه الوضع السوري، ومصير النظام في سوريا الذي ينحدر من أصول علوية محسوبة ضمن الخانة الشيعية. وبرغم أن الدولتين تتعاملان بحكمة وتعقل أكبر بكثير من نظرائهما التاريخيين إلا أن الاختلاف وتباين طبيعة السياسة الخارجية لهما يسهم في زعزعة أوضاع المنطقة، وتعميق حالة الاستقطاب الطائفي الذي بات حقيقة صارخة، يزيده لاعبون إقليميون، كالمملكة العربية السعودية التي تتخذ من المذهب الوهابي السلفي مذهباً رسمياً لها، وهي تتصارع مع إيران سياسياً وعسكرياً وإعلامياً، وهناك لاعبون دوليون كالولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وأخيراً الحضور الروسي العسكري والسياسي.

كما شهدنا عودة فتاوى التكفير يضاف إليها تأثير الإعلام الطائفي (فضائيات، إذاعات، صحف، مواقع إلكترونية) مذكرة بفتاوى البلاط العثماني في تكفير الصفويين والشيعة، وبحرب الشائعات والمؤلفات التكفيرية المتطرفة، وبذات المضامين التي سادت في حقبة الصراع الصفوي - العثماني، فإذا كان سلطان سليم قد اعتبر الصفويين أخطر من الصليبيين واستحصل فتاوى بتكفير الشيعة والدعوة إلى جهادهم وغزوهم، فإننا اليوم نسمع ذات الدعوات حول خطر إيران والشيعة باعتبارها أشد من خطر اليهود والنصارى، و بالتالي ضرورة جهادهم أينما كانوا.

أما عسكريا ففي الوقت الذي نستبعد فيه نشوب حرب مباشرة بين إيران وإحدى جاراتها الإسلامية كما حدث مع الدولة الصفوية لتعيد لنا المشهد التاريخي نفسه، إلا أن الصراع العسكري متجسد واقعاً على الأرض، عبر (حروب الوكالة) بين الفصائل السنية والشيعية في سوريا والعراق واليمن.

ولا تقف وجوه الشبه بين المرحلة الراهنة وتلك التاريخية عند هذا الحد، بل تتعداه إلى واقع ما هي عليه المؤسسة الدينية الشيعية والسنية، حيث ترى الاختلاف الفقهي بين إيران الشيعية و الجزء الشيعي من العراق (بين قم والنجف)، أوبعبارة أكثر دقة (بين طهران والنجف)، والتوافق الفقهي الأكبر بين إيران وجبل عامل) أو(إيران والبحرين). وهو ما يعيد للذاكرة الحراك الفقهي والفكري

داخل المؤسسة الدينية الشيعية في دعم الصفويين أوعدمه. فرغم الفاصل التاريخي الزمني (500 عام)، نرى بأن تعدد القراءات داخل المذهب الواحد ينعكس سياسيا على الدول نفسها وعلى محيطها الإقليمي أوعلاقاتها الدولية. نجد ذلك مثلا عبر ولاية الفقيه في طهران والدولة المدنية لدى مرجعية النجف، وكذا نرى مقاومة إيران العسكرية ومقاومة النجف السياسية. وهذا لايعني بطبيعة الحال وجود حرب أوصراع محتدم داخل المؤسسة بقدر احتفاظ كل منهما بمساحته الفقهية وآرائه وبالمثل ترى الحراك الفقهي في الداخل السني بين (المتصوفة والسلفيين)، و(الأزهر والرياض)، و(تيار الإخوان وتيار الوهابية)، ماينعكس على التنافس السياسي في تزعم العالم السني بين السعودية وتركيا، وهو ما يذكرنا كذلك بالتنافس على زعامة السنة بين العثمانيين أصحاب الفتوحات والجهاد وبين المماليك حاضنة الخلافة العباسية و(خدام الحرمين الشريفين في مكة والمدينة). إن التوظيف السياسي للمذهبية نراه قد أوصل العالم الإسلامي إلى حالة من التشرذم والتفكك أوالتخلف، و هو ما أنتج سقوط الصفويين والعثمانيين في السابق، وانهيار الدول الإسلامية حالياً تحت وطأة الحروب والإرهاب والفقر والتخلف والتشدد الديني، وهي حالة سبق لأوروبا أن مرت بها عبر خوضها حروبا ذات طابع ديني سواء مع المسلمين في الأندلس ومن ثم حقبة الحروب الصليبية، أو داخلياً فيما بينها على خلفية الانقسام إلى بروتستانت وكاثوليك، ولكنها رأت في النهاية بأن القوة في الاجتماع والتحالفات، وانتهى هذا المسار بها إلى تأسيس الإتحاد الأوروبي، رغم الاختلافات التكتيكية لكنهم تفاهموا استراتيجياً. في حين تكتفي الدول الإسلامية بالتفاهمات التكتيكية وتؤمن بالصراع الاستراتيجي البيني، وهو ما يهدد مستقبلها ومستقبل شعوبها قاطبة.

التوصيات

لقد مثلت الدولة الصفوية ثمار الحراك القومي الشاق، الذي امتد إلى ما يقارب 900 عام للحصول على الاستقلال، وكان ذلك الحراك واسعا شمل مختلف المشارب والتكتلات القومية أوالدينية والمذهبية والإصلاحية في بلاد فارس، وإلى يومنا هذا ينظر الشعب الإيراني إلى الدولة الصفوية بإجلال واحترام، لما قامت به تلك الدولة من توحيد للدويلات المتناثرة وضمها في كيان سياسي لدولة موحدة ومقتدرة، فرضت نفسها على محيطها الإسلامي المتنوع، وكسبت مكانتها المنشودة. وبرغم أن هذا الموقف تشترك فيه مختلف التيارات الاجتماعية والسياسية في إيران، إلا أنه لا يلغي وجود جملة من الانتقادات التي توجه لسلوك الدولة الصفوية فيما يخص سياساتها في إدارة الدولة، وعلاقاتها الخارجية وطريقة التعامل المذهبي المتطرف مع أتباع المذاهب السنية.

ومن الناحية المذهبية فإن الدولة الصفوية كسبت سمعتها ومكانتها من خلال إعلان المذهب الشيعي مذهبا رسميا للدولة، ومحاولاتها دعم وحماية و نشر التشيع والشيعة في إيران وخارجها، مما أضفى عليها هالة من الاحترام والتبجيل لدى الكثير من الشيعة. وقد بقيت إيران على تشيعها وظل المذهب الشيعي الإمامي الاثني عشري مذهباً رسمياً للدولة منذ الصفويين وحتى القاجار وإلى الحركة المشروطة التي ثبّتت المذهب في الدستور الإيراني وبقي ساريا حتى انتصار الثورة الإسلامية في

إيران والتصويت على دستورها الذي أبقى المذهب الإمامي مذهباً رسمياً، و جعل من شروط المرشح لولاية الفقيه أن يكون إمامياً والأمر نفسه مع مرشح الرئاسة، حيث يجب أن يكون إمامياً جعفرياً. وهذا يعني بأن الشعب الإيراني ومنذ الدولة الصفوية لم يتخل عن مذهبه لا في حياته الاجتماعية ولا في دستوره وممارسته السياسية، وهذه اللبنة الأساس هي التي أرستها الصفوية وبقيت قائمة حتى اليوم.

وهكذا فقد ترسخ التشيع في إيران ولا يمكن بحال من الأحوال التعامل معه كأنه حالة طارئة قابلة للزوال أوالتلاشي، ما يعني ضرورة النأي عن التصورات والمواقف العبثية التي تحاول النظر إلى إيران على خلفية وضعها قبل الصفوية.

وانطلاقا من هذه الحقيقة واستفادة من دروس التاريخ ولما ذكرناه من ملامح الشبه بين حقبتين مهمتين من تاريخ المنطقة والعالم، فإن الباحث يوصي بضرورة إجراء المزيد من الدراسات والأبحاث لتاريخ الدولة الصفوية وعلاقاتها ومواقف القوى الإقليمية، وهذه البحوث يجب أن تُبنى على أسس علمية موضوعية وتنطلق من المحددات التالية التي تمثل أيضا توصيات في رسم السياسات وانتهاج المواقف الحصيفة لحل المشكلة المستفحلة في المنطقة:

- التعامل مع الدولة الصفوية باعتبارها ظاهرة تاريخية لم تلامس الجانب المذهبي فحسب، بل اشتملت على أبعاد أخرى أكثر أهمية، تاريخية وسياسية وقومية، وما يمثله كل ذلك من مكانة في تاريخ الشعب الإيراني وإرثه ووجدانه، والتعامل وفق هذه المقدمة ذات الأهمية البالغة، لامتصاص جزء من حالة الاحتقان الطائفي والقومي التي سادت المنطقة خلال الحقب الأخيرة.

- النأي عن الأطر المذهبية الضيقة في دراسة تاريخ الدولة الصفوية، لكي يمكن استلهام الدروس وأخذ العبر، وهي من أسمى أهداف دراسة التاريخ وتحليل أحداثه، فلا قيمة لنبش الماضي ما لم يحقق دفعاً للحاضر وفتحا لآفاق المستقبل، ونرى أن الإيرانيين قد استفادوا من التجربة الصفوية بشكل واضح، ففي حين كان الصفويون قد أعلنوا إيران دولة شيعية تجنبت الجمهورية الإسلامية مثل هذا الإعلان المركز، واكتفت بالتعبير عن نفسها كدولة إسلامية، ورفعت شعار الوحدة الإسلامية مع احتفاظها بهويتها المذهبية، وهذا يعد تطوراً ملحوظاً عن نظيرتها الدولة الصفوية. ومن جهة أخرى سعت إيران الإسلامية إلى الانفتاح على محيطها الإقليمي لاعلى المستوى السياسي فقط، بل من خلال الانفتاح الجماهيري أيضا، فرفعت شعار (إنقاذ المستضعفين) و(الانتصار للقضايا الإسلامية)، و(التقريب بين المذاهب والوحدة الإسلامية)، وغير ذلك. كما أن إيران الإسلامية اليوم سعت إلى الاحتفاظ بأصالتها وهويتها المذهبية من دون الركون إلى العزلة الجغرافية و السياسية.

- إن التوظيف السياسي للعامل المذهبي لم يخدم على المستوى البعيد مصالح شعوب المنطقة، وإن حقق بعض المكاسب المرحلية في جولات الصراع، وفي كل الأحوال فإن الثمن كان باهظا حيث تسببت الرغبة في توظيف الدين ومحاولة التلاعب بالعواطف المذهبية في حدوث مجازر مروعة، وأزهقت نفوس بريئة لغايات سياسية ومصالح لم تدم طويلا، فالدولة الصفوية من جانبها انهارت بعد قرنين من تأسيسها، فيما أخفق العثمانيون في البقاء كإمبراطورية إسلامية فرضت هيمنتها على أرجاء واسعة، وانتهت إلى نظام علماني متشدد في بدايته، فيما راحت الأقليات القومية والدينية

تشكل هاجساً وجودياً لها، و كانت النتيجة الأخطر هي تعميق نزعة التطرف والتشدد الذي أنتج حركات إرهابية باتت تهدد الجميع دون استثناء. ويسهل ملاحظة استمرار التأثير الواضح لحقبة الصراع الصفوي العثماني عبر إعادة اجترار فتاوى التكفير العثمانية التي أصدرتها مشيخة الإسلام آنذاك، بل لا يختلف الأمر في مصر التي استمرت، رغم مرورها بأشكال مختلفة من الحكم وتعدد الأنظمة، باصطحاب ذلك الموقف شديد الحساسية ضد الشيعة الذي ساد العصر المملوكي، ونُظر إلى التشيع منذ ذلك الوقت كونه تهديداً سياسياً لأنظمة الحكم في مصر، الأمر الذي أسهم مع الوقت بتزايد التطرف الديني السني وانتشار الفكر السلفي الجهادي. ولهذا تُمسّ الحاجة استلهاما للعبر التاريخية وتقديرا للمخاطر المستقبلية أن يتم تجريم التكفير وحظر وسائله وأدواته، وانطلاق المبادرات الحقيقية البناءة للتقريب بين المذاهب والتركيز على المشتركات الواسعة بينها ونبذ الفوارق الهامشية التي تضخمت عبر الصراعات السياسية وأغراض السلطات وأهدافها الضيقة.

- ولأجل ذلك يمكن لحكومات المنطقة أن تركز جهودها عبر آليات ووسائل مختلفة لتجاوز هذا التخندق الطائفي وقطع استمراريته التاريخية، ومن ذلك:

* الشراكات الاقتصادية.

* محاربة الإرهاب والتطرف.

* توحيد المواقف السياسية من القضايا الإسلامية المعاصرة والاستراتيجية.

* الذهاب نحو التنمية والديمقراطية والتعددية والتداول السلمي للسلطة.

* تكريس ثقافة الأمة الواحدة والتنشئة الاجتماعية والدينية المعتدلة.

* الحاجة إلى تفاهمات كبرى بين الدول الإسلامية.

* حل مشكلة الأقليات الشيعية والسنية في الدول الإسلامية.

* تحويل التخندق والتخوين والنظر إلى الأقليات كعيون وجواسيس إلى تقبل التعددية، الحرية المذهبية، المشاركة السياسية، وكل ما يعزز من مبدأ المواطنة، خاصة أن الأقليات كانت على الدوام حطباً للصراع، وارتُكبت بحقهم مجازر مروعة كما حصل في العراق والأناضول وجبل عامل، وفي داخل إيران أيضا. كما يوفر احترام حقوق الأقليات ورعايتها ضمانة بوجه مشاريع التقسيم والتمزيق وتقزيم الدول الإسلامية.

الملاحق









ضريح الشيخ صفي الدين الأردبيلي











1 الشاه اسماعيل الصفوي.

2 الشاه طماسب الصفوي.

3 الشاه عباس الصفوي.

4 السلطان سليم العثماني.

5 القزلباش.





معركة جالديران

مصادر الدراسة ومراجعها

أولا: المصادر والمراجع العربية والمترجمة

- أباظة، فاروق عثمان: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط في القرن السادس عشر، دار المعارف، ط2.
- الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ابن تغري بردي): النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، تحقيق إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة القاهرة، 1963م.
- الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 2008 م، الطبعة الثالثة.
الأصفهاني، أبو الفرج: مقاتل الطالبيين، تحقيق الشيخ أحمد صقر، دار الشريف الرضي، قم، الطبعة الثانية، 1416 هـ.
- الأمين، محسن: أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الخامسة، 2000 م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003 م.
- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، حاشية خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.
- ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت.
- ابن كمال باشا: خمس رسائل في الفرق والمذاهب، تحقيق: سيد باغجوان، منشورات دار السلام للطباعة والنشر، 2005 م.
- ابن نطاح (مؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري): أخبار الدولة العباسية، تحقيق د. عبد العزيز الدوري و د. عبدالجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت، 1971م.
- أحمدوف ومنوروف، بوريبوي، وزاهد الله: أوزبكستان، تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت، الطبعة الثانية 1999م.
- أبو زهرة، محمد: الإمام زيد حياته وعصره- آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، 2005 م.
- أوزتونا، يلماز: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010 م.
- أوزتونا، يلماز : مدخل إلى التأريخ التركي، ترجمة: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى 2005 م.
- أوغلو، أكمل الدين إحسان: الدولة العثمانية تأريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون - استانبول 1999م.
- إينالجيك، خليل: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، 2002م.
- برون، جفري: تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المرزوقي، المكتبة الأهلية الأردن.
- البحراني، الشيخ يوسف: لؤلؤة البحرين، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، مكتبة فخراوي.

- بشمي، إبراهيم: هرمز الفقاعة الذهبية، مؤسسة الأيام للطباعة والنشر.
التميمي، تقي الدين بن عبد القادر: الطبقات الأمنية في تراجم الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحاو، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1970.
- تيرنر، كولن: التشيع والتحول في العصر الصفوي، ترجمة حسين علي عبد الساتر، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، 2008م.
- تيخسيرا، بيدرو: تاريخ الخليج والبحر الأحمر في اسفار بيدرو تيسيرا، نقله عن الإنجليزية عيسى أمين، مؤسسة الأيام للصحافة و الطباعة والنشر والتوزيع، 1998م.
- الجاف، حسن كريم: موسوعة تأريخ إيران السياسي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008م.
- الجزري، ابن الأثير: الكامل في التأريخ، تحقيق د. سمير شمس، دار صادر، بيروت، 2009م.
- جعفريان، رسول: الشيعة في إيران دراسة تاريخية، تعريب د. علي هاشم الأسدي، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة، الطبعة الثانية، مشهد، 1388هـ.
- الجندي، أنور: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- الجندي، أنور: تأريخ العلوم والمناهج، المجلد الأول: تاريخ الإسلام، دار الأنصار، طبعة 1979م.
- الحسني، هاشم معروف: الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت،1990م.
- الحسني، هاشم معروف: بين التصوف و التشيع، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2006م.
- الحسيني، ابن عنبة جمال الدين: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، دار أنصاريان، قم، الطبعة الثالثة، 2006م.
- الحكيم، حسن عيسى: المفصل في تأريخ النجف، المكتبة الحيدرية، قم المقدسة، الطبعة الأولى،1428هـ.
- حلمي، مصطفى: نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، دار الكتب العلمية – بيروت.
- حمزة، فائقة محمد: أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا: رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، 1989م.
- الحنفي، محمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1984م.
- الخوانسارى، محمد باقر: روضات الجنات في أحوال العلماء و السادات، طهران، 1957.
- الدرورة، علي بن إبراهيم: تاريخ الاحتلال البرتغالي للقطيف، المجمع الثقافي في أبو ظبى، 2001.
- درويش، على إبراهيم: جبل عامل بين -1516 1697، الحياة السياسية والثقافية، منشورات دار الهادي، بيروت. ط1، 1993م.
- دهمان، محمد، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، دمشق، الطبعة الأولى، 1986م.
- الدوري، عبد العزيز: الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981م.
- ديوارت، ول: قصة الحضارة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
- رجب، يحيي حلمي: الخليج العربي والصراع الدولي المعاصر، مكتبة دار العروبة، الكويت، طبعة1989م.
- رستم، سعد: الفرق والمذاهب الإسلامية، دار الأوائل، بيروت، الطبعة السابعة، 2009 م.

- الزبيدي، محمد حسين: إمارة المشعشعيين، مركز دراسات عيلام، دار الحرية، بغداد، 1982م.
- السامرائي، عبد الله سلوم: الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، دار الرشيد للنشر،1980م، بغداد.
- سرهنك، المير ألاي إسماعيل: تأريخ الدولة العثمانية، دار الفكر الحديث، ط 1988م.
- سليمان، زكريا: قراءة جديدة في تأريخ العثمانيين، دار عالم المعرفة - جدة، 1991م، الطبعة الأولى.
- السيف، توفيق: نظرية السلطة في الفقه الشيعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002 م.
- السيوطي، جلال الدين: حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى 1968م.
- شريعتي، علي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ترجمة حيدر مجيد، منشورات دار الأمير.
- شنقارو، عواطف العربي: فتنة السلطة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2001م، الطبعة الثانية.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل و النحل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثامنة 2009م.
- الشيبي، كامل مصطفي: الصلة بين التصوف و التشيع، منشورات الجمل، بيروت، 2011 م.
- الصرفي، رزق الله منقريوس: تأريخ دول الإسلام، دار الهلال - مصر، 1325هـ 1907م.
- الصلابي، على محمد: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار النشر والتوزيع الإسلامية بور سعيد، الطبعة الأولى.
- الصمانجي، عزيز قادر: التأريخ السياسي لتركمان العراق، دار الساقي، بيروت، 1999م.
- الصوفي، منصور: الأوضاع الدينية للمسلمين في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة غزة، 2010م.
- الطبرى، محمد بن جرير: تاريخ الأمم و الملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار روائع التراث العربي، بيروت، 2009 م.
- الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض وعبد المحسن إبراهيم، دار الحرمين للطباعة والنشر - القاهرة.
- طرابيشي، جورج: معجم الفلاسفة. الفلاسفة المناطقة-المتكلمون - اللاهوتيون - المتصوفون بيروت، 1987م.
- طقوش، محمد سهيل تاريخ السلاجقة في خراسان و إيران و العراق، دار النفائس، بيروت،2010م
- طقوش، محمد سهيل: تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس، بيروت، 2009 م.
- طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، 1997، الطبعة الأولى.
- طقوش، محمد سهيل: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، ط-3 2013م.
- الطهراني، آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار إحياء التراث العربى، بيروت، 2009.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة، الطبعة الثانية.
- العاصمي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك: سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، - تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، منشورات دار الكتب العلمية بيروت، ط1 - 1998م.
- العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، 1969 م.

- عثمان، شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية (41-904 هـ -661-1498م)، إصدارات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، 1978

- عزام، عبد الوهاب: مجالس السلطان الغوري، صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.

- العزاوي، عباس: تاريخ العراق بين الاحتلالين، الدار العربية للموسوعات ، بيروت، 2004م.

- العقاد، صلاح: الاستعمار في الخليج الفارسي، المكتبة الإنجلو- مصرية سلسلة الألف كتاب، رقم121، مطبعة الرسالة.

- العلامة الحلي: نهج الحق وكشف الصدق، تعليق الشيخ عين الله الحسني، منشورات مؤسسة الهجرة للطباعة والنشر، مدينة قم، 1421هـ.

- علي بن نايف: موسوعة الغزو الفكري والثقافي وآثاره على المسلمين، كتاب إلكتروني.

- عوض، عبد العزيز: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، دار الجيل - بيروت، ومكتبة الرائدالعلمية - عمان.

- عوف، أحمد: أحوال مصر من عصر لعصر، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.

- العيدروس، محمد حسن: سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي، دار المتنبي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة الإماراتية.

- العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تأريخ أهل الزمان، تحقيق د. محمود رزق محمود و د. محمد محمد أمين، دار الكتب و الوثائق القومية، القاهرة، 1985م.

- ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة الدكتور أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994م.

- فلسفى، نصر الله: إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي ، ترجمة: محمد فتحي يوسف، دار الثقافة للطباعة و النشر في القاهرة، 1989م.

- فهمى، نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى المكتبة العربية، طبعة 1972.

- قازان، نزار، سلاطين بني عثمان بين قتال الإخوة وفتنة الإنكشارية، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992.

- القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التأريخ، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، بيروت، الطبعة الأولى 1412 هـ 1992 م.

- القزويني، أبو الحسن: فوائد الصفوية، تحقيق مريم أحمدي، انتشارات مركز تحقيقات علوم إسلامي قم، بلا تاريخ.

- القزويني، جودت: تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية، دار الرافدين، بيروت، 2005م.

- القلقشندي، أبو العباس: صبح الأعشى ج13، مطبعة الأميرية - القاهرة، 1918م.

- القمي، الشيخ عباس: الكنى والألقاب، منشورات مكتبة الصدر، طهران.

- القمي، قاضى أحمد بن شرف الدين الحسين الحسيني: خلاصة التواريخ، المحقق إحسان إشراقي، قم،انتشارات مركز العلوم الإسلامية.

- الكاتب، أحمد: تطور الفكر السياسي السني نحو خلافة ديمقراطية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2008م.

- الكاتب، أحمد: التشيع السياسي و التشيع الديني، انتشارات العربي، بيروت، 2009م.
- الكركي، علي بن عبد العالي: الرسائل، تحقيق الشيخ محمد الحسون، مطبعة الخيام.
- الكركي، علي بن عبد العالي: جامع المقاصد، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى.
- الكركي، علي بن عبد العالي: نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت، تقديم د. محمد الأمينى، مكتبة نينوى الحديثة، طهران.
- كوثراني، وجيه: الفقيه والسلطان جدلية الدين والسياسة في إيران الصفوية القاجارية والدولة العثمانية، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 2001 م.
- لبيب، حسين: تاريخ الأتراك العثمانيين، ج2 مطبعة الواعظ، مصر، 1917م.
- الليثي سميرة مختار: جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول، تحقيق الأستاذ سامي الغراوي مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم، 2007م.
- المحامي، محمد فريد بيك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، منشورات دار النفائس، الطبعة الأولى، 1981م.
- المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية، دار الشروق.
- مغنية، محمد جواد: الشيعة والتشيع، منشورات شريف، قم، الطبعة الثانية، 1405 ش.
- المقريزى، تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، بلا تاريخ.
- المقدسى، ابن طهر: البدء والتاريخ، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.
- منصور، محمد علاء الدين: تاريخ إيران بعد الإسلام، دار الثقافة والنشر والتوزيع في القاهرة.
- الموسوي، عباس، والسيد، كمال: نشوء و سقوط الدولة الصفوية، مكتبة فدك، قم، 2005م.
- موسينيه، رولان: تاريخ الحضارات العام - القرنان 15 و16، ترجمة: يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت.
- موير، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.
- المهاجر، جعفر: الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوى، مطبعة الروضة - بيروت 1989م.
- الناصر، إدريس: العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر ، دار الهادي، الطبعة الأولى 2007م.
- النعيمي، أحمد نوري، اليهود والدولة العثمانية، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة.
- هريدي، محمد عبد اللطيف، الحروب العثمانية - الفارسية ودورها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1987م.
- الورداني، صالح: الشيعة في مصر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى - 1993م.
- الوردي، علي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، انتشارات المكتبة الحيدرية، الطبعة الثالثة، بلا مكان، 1383 هـ.
- الوردي، علي: لمحات اجتماعية ج 3، درا كوفان، لندن، 1992.
- ياغي، إسماعيل أحمد: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، 1988م.

ثانيا / المصادر والمراجع الفارسية

- أبو الحسن قزوينى: فوايد الصفوية تحقيق مريم أحمدي، انتشار مركز تحقيقات علوم إسلامي، قم.
- د. إحسان إشراقي و د. ناصر جديدى: تصوف إيراني قرن هفتم تا دهم هجرى بسترى براى تكوين نهضت صفويان، مجله مسكويه، تهران، بهار 1385 هـ ش.
- أحمد بن شرف الدين الحسين الحسيني القمي: خلاصة التواريخ، محقق إحسان إشراقى، انتشارات مركز علوم إسلامي، قم.
- أحمد كسروى: شيخ صفى وتبارش، انتشارات مهر، تهران، 1996م.
- د. أمير حسين خنجي: قزلباشان در إيران، نشر وبگاه إيران تاريخ.
بورگشتال، هامر: تأريخ إمبراطوري عثماني، ترجمه ميرزا علي زكي آبادى، تهران، انتشارات زرين، 1367 هـ ش، ج 2 صص 981-980.
- پروفسور ايليا باولو لويچ پطروشفسكى : اسلام در ايران از هجرت تا پايان قرن نهم هجرى، ترجمه كريم كشاورز، انتشارات پيام، تهران، چاپ هفتم، 1363 هـ ش.
- د. بهزاد كشاورزى : تشيع و قدرت در ايران، انتشارات خاوران، پاريس، 1379 هـ ش.
- پژوهش دانشگاه كمبريج : تاريخ ايران دوره صفويان، مترجم د. يعقوب آژند، نشر گلشن، جاب چهارم، تهران، 1387 هـ ش.
- حسن روملو، احسن التواريخ، تحقيق عيد الحسين نوائى، تهران، انتشارات نشر كتاب، 1385هـ ق.
- حميد حسيني؛ عوامل فرهنگى - مذهبى تنش بين صفويه و عثمانى، مجله سخن تاريخ، تابستان 1388، شماره 5.
- جلال همايى: شعوبية، مجله مهر، تهران، سال دوم، شماره 1، 1313 هـ ش.
- جوزا فابابارو: سفرنامه هاى ونيزيان در ايران، ترجمه منوچهر اميرى، نشر خوارزمى، تهران،1349 هـ ش.
- د. حسين مير جعفرى و د. مرتضى دهقان نژاد : انديشه غاليانه در طريقت صفوى، فصلنامه - انديشه دينى، دانشگاه شيراز، شيراز، زمستان 1385 هـ ش.
- راجر سيورى: صفويان، ترجمه د. يعقوب ازند، انتشارات مولى، چاپ دوم، تهران، 1390 هـ.
- رسول جعفريان: سياست و فرهنگ روزگار صفوى، نشر علم، تهران، 1388 هـ ش.
- ظهير الدين مرعشى: تاريخ طبرستان ورويان ومازندران، تحقيق عباس شايان، تهران، 1313 هـ ش.
- عالم آراي عباسي: يد الله شكري: عالم آراى صفوى، انتشارات بنياد فرهنگ ايران، تهران، 1350 ش.
- د. عبد الحسين زركوب: دو قرن سكوت، كتابخانه درفش كاويانى، چاپ نهم، تهران، 1378ش.
- د. عبد الرفيع حقيقت: تاريخ جنبش هاى مذهبى در ايران، انتشارات كومش، چاپ دوم، تهران، 1385 هـ ش.
- عبدالرضا هوشنك مهدوى: تاريخ روابط خارجى ايران، انتشارات امير كبير، الطبعة الرابعة 1388 ق.
- د. عبد الرفيع حقيقت: جنبش زيديه در ايران، انتشارات كومش، تهران، 1383 هـ ش.
- د. عبد الرفيع حقيقت: تاريخ مذهب شيعه، انتشارات كومش، تهران، 1390 هـ ش.
- على أكبر ولايتى: ايران در عصر صفوى، انتشارات امير كبير، تهران، 1393.

- د. على اقا نورى: خاستگاه تشيع و پيدايش فرقه هاى شيعى در عصر امامان، پژوهشگاه علوم و فرهنگ اسلامى، چاپ دوم، قم، 1386 هـ ش.
- د. علي الله بداشتى، ريشه هاى پيدايش و گسترش تشيع در مازندران، فصلنامه تخصصى شيوه شناسى، سال پنجم، شماره 19، پاييز 1386 هـ ش.
- د. غلام رضا إنصاف پور: روند نهضت هاى ملى إسلامي در ايران، انتشارات فرانكلين، تهران، 1359 هـ ش.
- كلمنت هوارت سر: مجموعة رسائل حروفيه، انتشارات مولى، تهران، 1360 هـ ش.
- كلود كاهن: بويهيان، ترجمه د. يعقوب آژند، انتشارات مولى، تهران، 1426 هـ ش.
- د. محسن كيانى: تاريخ خانقاه در ايران، انتشارات طهورى، چاپ سوم، تهران، 1389هـ ش.
- د. محمد علي رنجبر: نهضت شيعى مشعشعيان، روزنامه همشهرى، شنبه 20 دى 1382 هـ ش، شماره 3278.
- مرتضى مطهرى: خدمات متقابل اسلام و ايران، انتشارات صدرا، تهران، 1418 هـ ش.
- د. منوچهر پارسادوست: شاه اسماعيل اول، شركت سهامى انتشار، چاپ سوم، تهران،1387 هـ ش.
- نصر الله فلسفى: زندگانى شاه عباس اول، نشر كيهان، چاپ دوم، تهران، 1334 هـ ش.
- يد الله شكري: عالم اراى صفوي، انتشارات بنياد فرهنگ ايران، تهران، 1350 هـ ش.

ثالثا\ رسائل الماجستير والدكتوراة

- الأسطل، رياض محمود: الصراع الإسلامي البرتغالي وأثره في التجارة الدولية، رسالة دكتوراه، جامعة السند، كلية الآداب – پاكستان.
- أصغر، عباس جعفر، التطورات السياسية الداخلية في الدولة العثمانية في عهد بايزيد الثاني (-1512 1481)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت، (2002م).
- الساعدي، بشري ناصر هاشم: شريعة قتل الأخوان وأثرها في نظام الحكم آل عثمان (1617-1520). مجلة مركز بابل، العدد (2)، سنة (2011م).
- سونرن، ريتشارد: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ترجمة: رضوان السيد، دار المدار.
وعبد الله، صالح حسن: تهجير يهود العراق 1941 - 1952، رسالة ماجستير، جامعة تكريت، (2011م).
- محمد، أميرة فهمي: نزهة الناظرين في من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، لمرعي بن يوسف الكرمي، رسالة دكتوراه، جامعة النجاح، فلسطين، نابلس. منشورة إلكترونيا، حقوق النشر محفوظة بمكتبة الجامعة الأردنية، التاريخ غير محدد.
- الوائلي، طالب محيبس: رسالة دكتوراه، إيران في عهد الشاه إسماعيل، جامعة بغداد، كلية الآداب،2007 م بإشراف د. كمال مظهر أحمد.
- يوسف، نوال حمزة، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز،كلية الدراسات الإسلامية، الدراسات العليا التأريخية والحضارية، 1980م.

رابعا\ الدوريات والمواقع الإلكترونية

- رحمتي، محمد كاظم: الصيرورة المذهبية في إيران، استراتيجية السلطة في العصر الصفوي، - ترجمة: محمد عبد الرزاق، بحث منشور بتاريخ 31 ديسمبر 2014.
- السباعي، هاني: أسباب تهميش واحتواء دور المؤسسات الدينية، مقال منشور، مركز المقريزي للدراسات.
- السرجاني، راغب: مقال الدولة الطولونية، موقع قصة الإسلام.
- السمك، عبد الكريم: مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية، مقال منشور، تاريخ النشر:2014\3\22.
- سوادي، هشام: النشاط التبشيري الأمريكي في شمال غرب بلاد فارس، مجلة دراسات إقليمية، العدد الخامس، حزيران (2006م).
- شقيرات، أحمد صدقي، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، منشور إلكترونيا.
- الشيخ عبد الرحمن عبد الله، ثلاث رسائل مترجمة للفونسو دي البوكيرك، مجلة عالم المخطوطات والنوادر، المجلد الخامس، العدد الرابع، لأشهر ابريل - سبتمبر (2000م)، جامعة الملك سعود الرياض.
- الصائغ، بان غانم، سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية، مجلة التربية والعلم، المجلد 19، العدد (2)، سنة (2012م)، جامعة الموصل.
- الصالحي، عصام خليل محمد إبراهيم: السياسة البريطانية في الخليج العربي الأهداف والنتائج 1600م - 1843م - مجلة مداد الآداب.
- عباس، باسم حمزة: إيران في عهد الشاه طهماسب الأول - كلية الدراسات التاريخية، جامعة البصرة ، مجلة الخليج العربي، المجلد 40، العدد (1 و 2)، (2012).
- عزت، هويدا، مختارات إيرانية - العدد 47، سنة (2004م). ومحمد، عادل: الصراع البرتغالي - الهولندي في المحيط الهندي، مجلة سر من رأي، المجلد الثاني العدد 3، أيلول (2006م).
- محمود، صدفة محمد: التطور التاريخي لدور الدين في العلاقات الدولية، بحث منشور، 2010.
- المحيميد، على بن صالح: الإمارات الحدودية شمال الشام ودورها السياسي في العصر المملوكي، إمارة دلغادر أنموذجا، بحث منشور.
- مزيري، شعبان: كركوك في التاريخ - الجزء الثالث، موقع جريدة الاتحاد الكردستانية العراقية، بلا تاريخ.
- مشكور، سالم: علماء جبل عامل في بلاد فارس لماذا هاجروا وماذا قدموا؟ - جريدة النهار، 20كانون أول / ديسمبر 2001 م.
- مصطفى، نادية محمود: خبرة العصر المملوكي، من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية مركز الحضارة للدراسات السياسية.

خامساً\ المقابلات الخاصة

- مقابلة خاصة بالدكتور علي كاظمي المتخصص في تاريخ العلاقات الخارجية الإيرانية بتاريخ 15/10/2010، طهران.

سادساً / المخطوطات

- ابن شدقم: تحفة الأزهار وزلال الأنهار في نسب السادة الفاطمية الأطهار، الورقة 217 المؤسسة العامة للآثار، مكتبة الآثار العراقية (رقم المخطوطة 10692).
- محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي: العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية، مخطوطة -المكتبة الأزهرية.

فهرس الموضوعات





علي المؤيد

ALI ALMUAYAD

مواليد بغداد / 1984

- طالب دكتوراه علاقات دولية
- ماجستير علاقات دولية
- بكلوريوس علوم سياسة

للتواصل مع الكاتب:

www.alialmuayad.com

فيسبوك: Ali.Almuayad.iq

تويتر: @alialmuayadiq

شهدت بداية القرن السادس عشر ظهور الدولة الصفوية في إيران، والتي أعلنت المذهب الشيعي مذهبا رسميا لها، وقد جاء ظهور هذه الدولة في مرحلة تاريخية شديدة التعقيد من تاريخ المنطقة، حيث قُدّر لهذه الدولة الناشئة أن تحاط بواقع إقليمي سمته الأساسية وجود عدد من الدول والإمارات السنية كان أبرزها السلطنة العثمانية والدولة المملوكية ودولة الآق قوينلو إلى الغرب، كما تزامن ظهورها مع ظهور دولة الأوزبك إلى الشمال الشرقي من إيران.

وتبرز اهمية هذه الدراسة في محاولتها معرفة وتحليل تأثير عامل الاختلاف المذهبي في صياغة العلاقات بين الدول، متخذة من العلاقات الخارجية للدولة الصفوية نموذجاً لمعرفة حجم هذا التأثير وحضوره، والأبعاد التي يمكن أن يصلها، ويزيد من هذه الأهمية قلة الدراسات العربية التي عالجت قضية العلاقات الدولية في تلك الفترة ولاسيما العلاقات الخارجية للدولة الصفوية، كما أن المرحلة التاريخية التي تمثل حدود هذه الدراسة تبدو نتائجها وتبعاتها حاضرة وممتدة التأثير بشكل أو بآخر حتى اليوم.

إن إشكالية الدراسة تتجسد في أن ظهور دولة تدين بين جاراتها بمذهب مختلف لابد وأن يترك آثارا محددة على علاقاتها بالمحيط من حولها، وقد اختار الباحث في بحثه الدولة الصفوية كنموذج لدراسة هذه العلاقة، وينطلق البحث من السؤال التالي:

هل كان لاختلاف الدولة الصفوية مذهبيا عن جيرانها في العالم الإسلامي أثر في تحديد علاقاتها الخارجية سواء مع إقليمها الإسلامي أو العالمي بصورة عامة؟

